الدكتور بهنام أبو الصوف

التاريخ من باطن الأرض

آثار وحضارات وأعمال ميدانية

عمان - ٢٠٠٩

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٥٢٢٣ / ١٢ / ٢٠٠٩)

مطابع شركة الأديب
هاتف : 4888585 6 962+ - فاكس : 4888584 6 962+
عمان – الأردن
2009
E-mail: info@label-world.com

إهـداء

إلى أولادي :

نعمة

سرمد

معن

حنان

كلمة أولى

إن الكلام عن حضارة وآثار وأعمال التنقيب عن الآثار في العراق القديم في الواقع هو كلام عن بلاد الشام وبقية أرض العرب، وعدد آخر من مواطن الحضارة الأولى في العالم القديم حيث توفرت المياه والأرض الصالحة للرعي ونمو الأنواع البرية من الحبوب الصالحة للتكثير.

وإن قيام نواة الحضارة في قرى زراعية أولى في بلاد الرافدين وبلاد الشام بالذات كان متعاصراً ومتشابهاً من أوجه عديدة. وكانت تلك النواة التي تحققت قبل أكثر من ثمانية الآف عام في هاتين المنطقتين الحضاريتين (العراق وبلاد الشام) أساساً لما أعقب ذلك من تطورات إنسانية وحضارية واقتصادية وسياسية خطيرة في بِقاع عديدة من العالم القديم وأحواض الانهار الكبرى كالنيل والسند والنهر الأصفر في الصين. وأن اختيار لقطات موجزة من تاريخ الأردن وحضارته في العصور القديمة لاظهار العلاقة الحضارية الحميمة بين بلاد الرافدين وبلاد الشام باعتبار الاردن ممثلا لهذه المنطقة الواسعة من أرض العرب والتي تشابه ما حدث في بلاد الرافدين من وجوه عديدة في تاريخه القديم. وإن اختيار اليمن لإلقاء الضوء على ماضيه الحضاري والاقتصادي كان دافعه التعريف بالتطور التاريخي لهذه البقعة من أرض العرب السعيدة في الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية في عصر كانت فيه معظم هذه الأرض قد تحولت إلى صحارى قاحلة بسبب التبدل المناخي الأساس الذي حلَّ في النصف الشمالي من

الكرة الأرضية في أواخر العصر الجليدي الرابع قبل أكثر من خمسة وعشرين ألف سنة.

وكان الكلام عن حضارات أمريكا الوسطى والجنوبية (المايا والآزتيك والأنكا) بسبب الخصوصية التي تميزت بها واحتمال تأثر بناتها ببعض العناصر العمارية الأساسية في المنطقة العربية القديمة في منطقة الشرق الأدنى القديم.

كما ان الكلام عن مملكة دلمون البحرية، التي قامت في جزر البحرين وما يجاورها، في الألف الثالث قبل الميلاد بسبب العلاقات الحضارية والتجارية التي تربطها ببلاد الرافدين في أكثر من عصر تاريخي أبتداءً من الزمن السومري مروراً بعصر الامبراطوية الأكدية والعصر البابلي القديم وزمن الامبراطورية الآشورية وما بعدها.

هذا وأن مساهمة الكاتب في أعمال ميدانية من مسوحات آثارية وتنقيب، تؤلف موضوع الفصل السابع من هذا الكتاب، والتي حقق مواسمها ابتداءً من تخرجه في قسم الآثار والحضارة في كلية الآداب في بغداد في أواسط الخمسينات من القرن المنصرم وحتى تقاعده من العمل الوظيفي في مؤسسة الآثار في أواخر الثمانينات .

وأخيراً رأيت أن انهي هذه الدراسة بكلمة موجزة عن الكهوف والملاجىء الصخرية وأسباب تكوّنها، إذ إنها منازل الإنسان الأولى منذ عصوره الحجرية السحيقة وانها موجودة في اعالي بلاد الرافدين كما انها موجودة في المنطقة المحيطة والعالم القديم.

وفي الختام، كان لابد من كلمة أخيرة تحكي بإيجاز شديد ما حدث في ربوع بلاد الرافدين من تطور حضاري خلال العشرة آلاف سنة المنصرمة وما حل فيه من كبوات في عصره الحديث حتى قيام الحكم الوطني في مطلع القرن العشرين.

الفصل الأول
جذور الحضارة في بلاد الرافدين

١. تمهيد

كانت طبيعة أرض العراق، بجبالها وهضابها وسهولها ونهريها العظيمين وبينهما الوادي الخصب والدلتا، موطن حضارة العراق الأولى، وهي كلها الخلفية الجغرافية المثلى التي هيأت لإنسان العراق الأول المواطن الطبيعية والظروف البيئية المناسبة التي مكّنته من التقدم السريع في مضمار التمدن بعد إستقراره واقامته في أولى قراه الزراعية، وقد كان ذلك الإنسان واحداً في نوعه وفي مهاراته في الصناعات الحجرية في عصوره الأولى، إن كان ساكناً في كهوف الجبال، أو مرتاداً لمصاطب أعالي النهرين (دجلة والفرات)، أو ساعياً وراء القوت في الصيد والقنص في بوادي غربي الفرات انحداراً حتى حافات البحر في أقصى الجنوب. لقد أكدت هذه الحقيقة دراسات واستكشافات وتنقيبات علمية لا تقبل الشك والتأويل، وأن معارف فلاحي العراق الأوائل في الزراعة وأستئناس الحيوان وفي العمارة وعمل الفخار، ومهاراتهم في فنون وحرف دقيقة أخرى تطلبتها حياة الاستقرار الأولى وما رافقها واعقبها من فكر ديني ومعتقدات أولية في الحياة والموت والخصوبة والنماء والتكاثر والتي أكتملت كلها في أواخر الآلف السابع قبل الميلاد، وتدرجت في النضج والتطور حتى قيام مواطن الحضارة

الناضجة في دول مدنها المعروفة في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. لقد كانت هذه المعارف والمهارات واحدة ومتشابهة في الشمال والوسط والجنوب. وكل هذا مثبت في دراسات ونشرات علمية جاءت بعد تنقيب واستكشاف دقيق قام بهما، ليس آثاريون عراقيون فحسب، بل عدد من باحثي الغرب ودارسيه كانوا قد سبقوا العراقيين في هذا الباب.

ولو رجعنا إلى نصوص العراق القديم وكتاباته، سومرية كانت ام اكدّية، بابلية أو آشورية، لوجدنا ان الشعور بوحدة أرض العراق وتكاملها الحضاري والجغرافي والإقتصادي والسياسي، لا بل الشعور بوحدة المنطقة وتناظرها الحضاري من البحر السفلي (الخليج العربي) في الشرق إلى شواطىء البحر العلوي (البحر المتوسط) في الغرب، كان هاجساً بارزاً لشعب العراق القديم وقادته على مر التاريخ، تعززه وحدة الأرض والحضارة والمصير المشترك في مواجهة الأخطار والتحديات القادمة من وراء الحدود الشمالية والشرقية بالذات، وقد سعى إلى هذا الهدف وحققه باصرار، واحياناً بتضحيات كبيرة، قادة عراقيون بارزون، منذ آواسط الألف الثالث قبل الميلاد : أولهم لوكال-زاكيزي (٢٤٠٠-٢٣٧١ قبل.الميلاد)، واشهرهم وابعدهم اثراً سرجون الأكدي (٢٣٧١-٢٣١٦ قبل.الميلاد)، وأكثرهم شهرة المشرع البابلي الكبير حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل.الميلاد)، فضلاً عن عدد من القادة الآشوريين العظام أمثال سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ قبل.الميلاد)، وابنه سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ قبل.الميلاد)، وأسرحدون (٦٨١-٦٦٩ قبل.الميلاد)، وآشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧ قبل.الميلاد)، وأخيراً البطل الكلدي البابلي نبوخذ نصر (٦٠٥-٥٦٢ قبل.الميلاد)، الذي اجتثَّ بقايا الكيان العبري من أرض فلسطين وجعل من مدينة بابل عروس العالم القديم. وبقيت أرض العراق واحدة بحضارتها وإنسانها المناهض للظلم

والتسلط ومحاولات التفتيت وطمس المعالم القومية والوطنية طيلة الفترات التي تعرض فيها للغزو والتسلط الاجنبي : الأخميني والسلوقي والفرثي والساساني، بعد كبوة بابل الأليمة في عام (٥٣٩ قبل.الميلاد)، حتى بزوغ نور الاسلام وامتداد ظله شرقاً وغرباً حيث استعاد العراق قوته ومركزه الحضاري ليكون قلب الأمة العربية الاسلامية وصارت بغداد، دار السلام، ووريثة بابل وآشور، حاضرة لدولة العرب الكبرى في ازهى عصورها.

ودارت عجلة الزمن، وتكالب الطامعون والغزاة من المغول والاعاجم والترك، لتقاسم دولة العرب، فنال الأمةَ الكثيرُ من الأذى على ايدي اولئك الغزاة. وقد اعقب ذلك كله استيلاء الأتراك العثمانيين على العراق، من جملة ما استولوا عليه من أرض العرب. ورغم قسوة حكمهم وتخلفه ومحاولاتهم المستميتة لطمس المعالم الوطنية والقومية للعراق، وبقية أقطار الوطن العربي، بقيَ العراق صامداً، كما بقيت أرض العرب، وواحداً بأرضه وإنسانه وقيمه الروحية والحضارية.

٢. الإنسان والأرض

تتوزع الحياة على أرض العراق في أربع مناطق رئيسة تتباين فيها التضاريس والبيئة والمناخ، كما يختلف فيها توزيع النبات الطبيعي والحيوان. وتؤلف السلاسل الجبلية التي تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي الحدود الشمالية والشرقية للعراق، وتتوزع بين هذه السلاسل هضاب وسهول تكثر فيها العيون والينابيع كما تكثر فيها الأشجار والمراعي وتسقط أمطارها غزيرة في فصلي الشتاء والربيع. وفي هذه المنطقة كهوف وملاجىء صخرية كانت مأوى للإنسان العراقي في عصوره الحجرية. وتنحصر السهول الشمالية والشرقية بين الزابين

الأعلى والأسفل ونهر ديالى، ممتدة من شرقي دجلة حتى السفوح الغربية لجبال زاجروس. وفي هذه السهول عرف العراقيون لأول مرة الزراعة واستئناس الحيوان، ساعدهم في ذلك توفر الأنواع البرية الصالحة للتدجين والتكثير من الحيوان والنبات. وكانت هذه السهول موطن الآشوريين في أوج قوتهم، وفيها أقاموا مدنهم الكبرى : آشور ونمرود (كالح) ونينوى وخرساباد (دور - شروكين) وأربيل (أربا - إيلو) وكركوك (أرابخا). أما وادي ما بين النهرين فهو الحوض الذي يخترقه دجلة والفرات منحدرين مع انحدار الأرض من الشمال إلى الجنوب نحو الخليج العربي. وتنحدر الأرض باتجاه هذا الحوض من الشرق بعد سلاسل جبال زاجروس وبشته كو، ومن الغرب عند هضبة الجزيرة العربية وبادية الشام، والجزء الأسفل من هذا الحوض سهل غريني أحدثه الطمى المنحدر مع النهرين وروافدهما. وهذا الجزء من الحوض هو دلتا العراق وموطن أقدم حضارة وأنضجها في العالم، وهو خصب التربة سهل الإرواء بسبب ارتفاع مجرى نهري دجلة والفرات اللذين يقطعانه. وقد قامت في هذا الجزء من سهل العراق، معتمدة على الري والزراعة، أولى المدن في التاريخ، وازدهرت فيه حضارة العراق الأولى، الحضارة السومرية، وفيه يقل المطر، وهو يخلو من المعادن والحجارة. لذا اعتمد ساكنوه منذ البداية في عمارتهم على القصب والطين المادتين الأساسيتين للبناء والحياة في الجنوب. والجزء الأعلى من وادي الرافدين أرضه متموجة تكثر فيها احجار الرخام والكلس وأمطاره تكفي للزراعة الديمية. وعلى أرضه استقر الآشوريون منذ قدومهم إلى العراق في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. وبوادي العراق تقع إلى الغرب من نهر الفرات وتمتد على امتداد حدوده الغربية. وهي في حالتها هذه لم تكن تصلح للسكن الدائم، إلا ان فيها وديانًا وشعابًا

ارتادها إنسان العراق منذ أكثر من ربع مليون سنة، كما كان يرتادها الرعاة باستمرار طلباً للكلأ والماء. وتنحدر الأرض من بادية الشام وشمال هضبة الجزيرة العربية شرقاً نحو هذه البوادي وعلى نحو تدريجي مكوّنة منخفضات تكثر فيها الغدران والعيون وقامت حولها، منذ أقدم العصور، مستوطنات بشرية عديدة كالرحالية وشفاته والأخيضر والرهيمية والرطبة. وأرض العراق هذه بمناطقها الأربع جسم واحد يكمل بعضها البعض الآخر، ولا يستطيع احدها أو بعضها الحياة دون بقية الأجزاء. فالجبال لا تستغني عن السهول الخصبة في توفير الغذاء والتنقل واقامة المدن والعمران. ووادي ما بين النهرين عماد الحياة فيه المياه المنحدرة من أعالي الجبال. كما أن الدلتا في الجنوب قوام حياتها هي الأخرى النهران وما يحملانه من طمى وغرين سنوياً. وهذه الدلتا كان سبب تكونها في الواقع الرواسب التي جلبتها، وما زالت تجلبها، انهار دجلة والفرات من الشمال وكرخا والكارون من الشرق ووادي البطن والرماح من الغرب. وهناك ارتباطٌ عضويٌ بين دلتا الرافدين، بما فيها منطقة عربستان وحوض الخليج العربي، تؤكده المظاهر الجغرافية والمخلفات الآثرية. وحوض الخليج العربي امتدادٌ طبيعي لأرض العراق، إذ انه في العصور الجيولوجية السحيقة التي تكونت فيها تضاريس الكرة الأرضية بجبالها ووديانها وبحارها ومحيطاتها هبطت الأرض في هذه المنطقة من غربي آسيا فتكون الحوض المنخفض الذي يشغله الخليج العربي والقسمان الأسفل والأوسط من سهل العراق، الذي يُعَد منخفضُ الخليج العربي امتدادَه الطبيعي من جهة الجنوب.وكذلك البوادي الغربية التي هي امتداد شمالي لهضبة الجزيرة العربية ولولا نهر الفرات لانعدمت فيها سبل الحياة، ولما قامت عند حافاتها الشرقية مدن عامرة منذ فجر التاريخ، مثل ماري والقائم وخندانو (الجابرية والعنقاء) وعانة

وراوة وكبيسة وهيت وغيرها. غير ان أرض العراق الخيرة المعطاء هذه بجبالها الشماء وسهولها الخصبة ووديانها المزدهرة بالحياة كانت على مرّ التاريخ موضع طمع وحسد جيرانها القاطنين في مناطق جبال زاجروس وهضبة إيران إلى الشرق. وقد تعرضت اكثر من مرة، منذ أقدم العصور، لهجمات أولئك الطامعين. فكان على العراق وقادته منذ قيام أقدم أنظمة الحكم السياسية فيه في آواسط الألف الثالث قبل الميلاد أن يسعى بكل طاقاته وبجد ومثابرة لقيام دولة القطر الواحدة المركزية والقوية لسد كل المنافذ على الطامعين والمعتدين القادمين من الشرق. وقد كان هذا قدره ومصيره التاريخي وسيبقى كذلك على الدوام لحماية شعبه وأرضه ومنجزاته الحضارية.

٣. الإنسان وحضارته

عاش إنسان العراق الأول في كهوف المنطقة الشمالية والشرقية وتجوَّلَ فوق هضابها واستقرَّ حيناً في مقار قريبة من مجرى دجلة والفرات وفوق مصاطبهما الجيولوجية في الأقسام العليا والغربية من العراق، كما تردد في أطراف بادية الرطبة والأنحاء الغربية الأخرى من وسط العراق وجنوبه في مناطق الرزازة والأخيضر وأريدو، وحتى حافات الخليج العربي في اقصى الجنوب وذلك قبل أكثر من ربع مليون سنة. وكان هذا الإنسان يدرج في مضمار التطور الجسدي والعقلي، كما كانت حال معاصريه في بقاع الدنيا الأخرى. وقد اكتُشفت بقاياه العظمية مع كميات كبيرة من آلاته وأدواته الحجرية في كهف شانيدار في منطقة راوندوز في محافظة أربيل من أقليم كردستان للحكم الذاتي، كما اكتُشفت آلاته وأدواته الحجرية في عدد من كهوف منطقة كردستان الأخرى وعلى هضابها وقرب موارد المياه الاخرى، وفي جهات متعددة

أخرى من العراق. لقد أظهرت دراسات الانتروبولوجية الجسدية (Physical Anthropology) في السنوات الأخيرة أن البشر الذين عاشوا في كهوف العراق وفلسطين وسواحل البحر المتوسط الشرقية في العصور الحجرية القديمة قد مروا بمراحل أحيائية أساسية منذ أكثر من ثلاثين الف سنة نتج عنها نوع من الجنس البشري له صفات ومظاهر جسمانية، وطباع وقدرات عقلية تؤهله ليكون السلف المباشر لجنسنا البشري المعاصر.

وإذا ما تذكرنا أن لساكني كهف شانيدار معرفة أولية ببعض المعتقدات والممارسات والتي نجد فيها بذوراً مبكرة لمعتقد ديني أولي، كعنايتهم بدفن موتاهم بأسلوب يشير إلى شيء من الإهتمام والحزن، وذلك بوضعهم باقات من الزهور البرية عند رؤوس موتاهم، وتزويدهم بما يحتاجونه في العالم الآخر من آلات وأدوات حجرية. وكذلك عنايتهم بالمعوقين من أبناء جنسهم تأكد لدينا التوجه الإنساني المبكر لأولئك البشر سكنة العراق الأوائل، وأنهم كانوا في طريقهم إلى تحقيق الطفرة البشرية الكبيرة لبني جنسهم من البشر.

إن الفحوصات الآثارية المتأنية للأدوات والآلات الحجرية المكتشفة في مقار إنسان العصر الحجري القديم في غربي العراق وعلى طرفي دجلة والفرات تظهر تشابها ملحوظاً مع مثيلاتها المكتشفة سابقاً في هضبة الجزيرة العربية والتي تعود لنفس الحقبة الزمنية. إن هذا التشابه يشير إلى المسار الذي سلكه إنسان الجزيرة العربية، كما سلكه دوماً في الأزمنة اللاحقة الأكثر حداثة بانحداره نحو وديان الأنهار العظيمة في المنطقة. ويشير أيضاً إلى ان شبه الجزيرة العربية كانت تدفع وباستمرار بموجات بشرية من الصيادين والرعاة لتستقر في بلاد الرافدين وبلاد الشام وربما في أماكن أخرى في الجوار حيث تتوفر

المياه والأرض الخضراء. وقد يقود هذا كله إلى سبب التشابه البين بين مخلفات إنسان هذه المناطق المادية والجسدية في تلك الأزمان السحيقة في القدم.

لقد سعى إنسان المناطق العليا من بلاد الرافدين للانتقال من طور جمع القوت ومشاق الصيد والتجوال إلى طريقة في الحياة اكثر أمناً واستقراراً حين حقق معرفته بإنتاج قوته بنفسه لما عرف الزراعة واستئناس الحيوان قبل أكثر من عشرة آلاف سنة، فأخذ بالاستقرار في أماكن محددة جوار حقله وحيواناته المدجَّنة حديثاً.

ونشأت بذلك أولى قرى الإنسان في التاريخ بمنازلها البسيطة المحدودة العدد. وفي هذه القرى الأولى توصل الإنسان إلى معارفه المبكرة بعدد من التقنيات والفنون التي تطلبتها حياة الاستقرار الجديدة. فإلى جانب معارفه البسيطة في العمارة تعلم صناعة الفخار والغزل والحياكة. كما شكل نماذجه الأولى من الأشكال الآدمية والحيوانية من الطين التي ترمز إلى مفاهيم الخصب والتكاثر في الحياة. وتظهر نتائج التنقيب والدراسة في عدد من مواقع وسط وجنوبي بلاد الرافدين واخرى في اقسامه العليا عن التشابه المطلق في المعطيات الحضارية في مجالات العمارة والفنون وصناعة الفخار والمعتقدات الدينية والمظاهر الإقتصادية والإجتماعية في أواخر العصر الحجري الحديث منذ منتصف الألف السادس وحتى نهايات الألف الرابع قبل الميلاد، وذلك في قرى نينوى وتبَه كورة وكرى رش وقالينج أغا في أربيل واخرى في سهول مخمور والموصل وأحواض سدود دوكان وشهرزور وحمرين واسكي موصل والقادسية والمبدد إلى الشرق من تكريت والصوان جنوب سامرا وراس العمية وجمدة نصر وكيش في منطقة مشروع المسَّيب الكبير ونفر والوركاء وأور واريدو وتل العبيد في منطقة الناصرية والكثير غيرها.

وهذا كله يؤكد وحدة جذور وبدايات حضارة العراق الواحدة وتأصلها في اعماق تربة العراق القديم. لقد تطور الكثير من قرى العراق الأولى وصار نواة للعديد من المدن في مطلع الالف الثالث قبل الميلاد، اشتهرت كحواضر مزدهرة للعراق في عصوره التاريخية اللاحقة عند قيام أول نظام حكم سياسي عرف في العالم القديم، المستند إلى المدينة بوصفها نواة للدولة وحاضرة لها بما يحف بها من قرى وحقول ومزارع. ومن أبرز دول مدن العراق القديم الأولى كانت : نينوى وآشور وكيش وبابل ونفر والوركاء ولجش واوما وأور وشروباك وكرسو وغيرها.

وفي مدن العراق السومرية هذه اخذت الحضارة السومرية (حضارة العراق الأصيلة الأولى) بالنموّ والازدهار بعد ان شهدت بداياتها قرى عصر الوركاء (٣٥٠٠-٣٠٠٠ قبل.الميلاد) الواسعة في مختلف انحاء بلاد الرافدين من أقصى جنوبه حتى اعالي الفرات في حوض سد الطبقة إلى الشرق من مدينة حلب.

فقد نضجت وتطورت العمارة الدينية التذكارية الفخمة، والنحت بنوعيه البارز والمجسَّم، والأختام الاسطوانية، واكَتمل تطور دولاب الفخار وتوسع استخدامه في عمل الفخار. وصارت الأواني تُعَمل من النحاس والفضة والذهب، وانتشر استخدام الذهب لصياغة الحلى والاسلحة. وقد تُوِّجَت مبتكرات الحضارة السومرية بمعرفة الكتابة (خلال الربع الاخير من الالف الرابع قبل.الميلاد)، التي كانت في أول أمرها صورية محضة نجد نواة فكرتها قبل ذلك بزمن طويل في نظام بسيط للعد (Counting) ابتكره سكنة قرى العراق الأولى في تعاملهم اليومي وتبادل السلع. ومادة العد تلك اشكال مخروطية أو كروية صغيرة من الطين أو الحجارة تحسب (اي تعد) بها المادة المطلوب مقايضتها أو امتلاكها. وحين كثرت وتعقّدت المعاملات الاقتصادية بين الناس

وفي المعابد، برزت الحاجة إلى نظام أكثر تطوراً من مجرد حساب الكميات، اي جمعها باسلوب العد وجمع الكرات الصغيرة أو المخاريط (Token) فتوصل العراقيون إلى ابتكار اشكال صورية لترمز إلى الاشياء والحاجات والاشخاص. وقد تطورت هذه الصور بمرور الزمن والاستخدام المستمر، وتحولت إلى علامات ورموز تطبع على رقيم من الطين بقلم من القصب أو المعدن رأسه يشبه المسمار. لذلك أطلقَ على هذه الكتابة المسمارية. وقد هُذّبت تلك الكتابة الأولى وازداد استعمالها بعدئذ في القضايا الدينية والتذكارية، فضلا عن المسائل الإقتصادية والتشريعية والأدبية.

وبدخول إنسان العراق القديم عالم الكتابة والتدوين، صار يسجّل أفكاره الفلسفية ومعتقداته وآراءَه في الكون والآلهة على هيئة قصص واساطير وملاحم وحكَم وأمثال بالخط المسماري وباللغة السومرية أولاً ثم انتقل في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد إلى استخدام اللغة الأكدية وفرعيها البابلية والآشورية. فكانت الملاحم والأساطير والقصص والأمثال والحكم السومرية أقدم أنواع الأدب المدوَّن التي عرفها العالم القديم. وقد تأثرت بها آداب اقوام المناطق المجاورة ومعتقداتهم وفنونهم في الجزيرة العربية وبلاد الشام وإيران وبلاد الأناضول. فنجد آثارها لدى أهل اليمن القدماء وسكان مملكة دلمون البحرية وعند العيلاميين سكنة الأطراف الجنوبية من إيران، والحثيين في آسيا الصغرى والكنعانيين والآراميين والفينيقيين في بلاد الشام. كما نجد عدداً من آثارها لدى المصريين في عهودهم الحضارية الأولى قبل زمن الاسرات. وقد وصل تاثير أدب العراق القديم أيضاً إلى بلاد اليونان عبر آسيا الصغرة وبحر ايجة، إذ نتلمس بوضوح اثر تلك الآداب في مقاطع من الألياذة والأوديسة للشاعر اليوناني هوميروس، وفي أنواع

اخرى من الأدب اليوناني القديم. كما تتضح آثار الأدب والفلسفة والحكمة السومرية والبابلية في عدد من أسفارِ العهد القديم وبخاصة في أسفار التكوين وتثنية الاشتراع (الشريعة) وأيوب والحكمة والمزامير ونشيد الأنشاد.

لقد أثبتت بحوث اللغة السومرية وترجمات العديد من نصوصها ان الفضل يعود إلى العراقيين أصحاب حضارة بلاد الرافدين الأولى في وضع أسس العديد من المظاهر الثقافية والتربوية والسياسية والقضائية المعمول بها في الوقت الحاضر. فهيئة شورى دولة المدينة على أيام جلجامش، الملك الخامس لسلالة الوركاء الاولى (في حدود عام ٢٧٠٠ قبل.الميلاد) المكونة من مجلسين أحدهما للشيوخ والآخر للرجال القادرين على القتال، هو النموذج الأول للأنظمة البرلمانية، في العالم المعاصر. والمدرسة التي كانت تعرف عند السومريين باسم بيت الرقم (إ - دوبا E-Dubba) هي أيضاً النموذج الأول لأقدم أشكال المعاهد التربوية والعلمية اللاحقة. ومن مدينة نفر وصلنا أقدم تقويم زراعي في بابه يضمُّ عدداً من الوصايا والتعليمات الزراعية الخاصة بتهيئة الحقل وبموسم البذار والري والحصاد وضعها فلاح عراقي قديم لإبنه على رقيم من الطين يحوي خمساً وثلاثين فقرة (عام ١٧٠٠ قبل.الميلاد). وفي العراق القديم وُضعت أقدم نماذج لأدب البطولة والفروسية والحكمة. كما وضعت أول حكاية عن العصر الذهبي للإنسان قبل أن يفقد جنته بسبب معصية أرتكبها ضد الآلهة. وفي مدن العراق الأولى في زمن السومريين برزت أول مرة في التاريخ حدود الملكية الشخصية وتوضحت العلاقات الإقتصادية بين الافراد والدولة وبين الافراد أنفسهم. وقد تطلب هذا كله تثبيت أعراف إقتصادية وأخرى إجتماعية، في زمن مبكر من الألف الثالث قبل الميلاد. فكانت هي النواة الأولى

للتشريعات القانونية في حياة البشر والتي سنت بعد ذلك بقليل من القرون من قبل العاهل السومري أور - نمو (٢١١٣-٢٢٩٦ قبل.الميلاد) أبرز ملوك سلالة أور الثالثة ومؤسسها. وما أعقبها من شريعتي لبت - عشتار واشنونا في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. وقد توجت هذه كلها بالشريعة القانونية الشاملة للعاهل البابلي الشهير حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل.الميلاد) في مسلته المعروفة التي ضمت ٢٨٢ مادة قانونية في مختلف المسائل الإقتصادية الإجتماعية والثقافية والعسكرية، إضافةً إلى مواد خاصة بالعقوبات، والتي أقام عدداً منها في بعض مدن العراق القديم الرئيسة بجانب العاصمة بابل.

٤. نشوء النظام السياسي وقيام دولة القطر الواحدة

تُعرف المرحلة التاريخية التي اتَّسمت بقيام نظام حكم دول المدن السومرية (٢٧٥٠-٢٣٧١ قبل.الميلاد) بعصر فجر السلالات. كانت دول المدن (City - States) هذه تتباين في حجومها وفي عدد سكانها. ففي المدن الواسعة منها كان يبلغ عدد نفوس المدينة الرئيسة فيها، اي العاصمة، نحو ثلاثين الف نسمة بينما يكون عدد سكان دولة المدينة كلها ضعف هذا العدد أحياناً. ولكل دولة من دول المدن تلك إله خاص بها تُقدَّم له فروض الطاعة في معبده الرئيس في مركز الدولة، في حين تشترك كل دول المدن في انحاء القطر كله في عبادة آلهة رئيسة مثل آنو (إله السماء) وسن (إله القمر) وشمش (إله الشمس) وإنليل (إله الهواء والأمطار والعواصف). وكان لكل واحدة من دول المدن السومرية قوة عسكرية قوامها الرجال القادرون على القتال والذين كانوا يُدعَون للخدمة العسكرية في الأحوال الطارئة. كانت القوات السومرية في الغالب تتألف من صنفين رئيسين : المشاة والعربات، وكان ملوك تلك

الدول يتولون قيادة قطعاتهم العسكرية بانفسهم ويشاركون في القتال فعلاً، كما تظهره المنحوتات التي جاءتنا من هذا العصر. وبسبب نزاعات الحدود والري والأراضي، كثيراً ما كانت تقع حروب طاحنة بين دول المدن السومرية المختلفة تدوم سنوات طويلة، كالحرب التي نشبت بين دولتي مدينتي لجش وأوما في حدود عام (٢٤٠٠ قبل.الميلاد)، والتي انتهت بانتصار قوات الأخيرة بقيادة زعيمها لوكال - زاكيري الذي كان لديه طموح كبير لتوحيد بلاد سومر تحت قيادته. وتخبرنا النصوص التاريخية من عهده بأنه قد استطاع بالفعل تحقيق وحدة بلاد سومر، وانه بسط نفوذه على جميع البلاد الواقعة بين البحر السفلي والبحر العلوي، أي بين الخليج العربي والبحر المتوسط، واتَّخذ من مدينة الوركاء عاصمة له، وأعطى لنفسه ألقاباً متعددة مثل ملك سومر وملك البلاد، الأمر الذي يدلُّ على هيمنته الكاملة على جميع بلاد وادي الرافدين، فضلاً عن بلاد الشام وسواحل الخليج العربي الغربية. لقد كان عمل لوكال - زاكيري هذا ايذاناً بنهاية عصر الكيانات السياسية في العراق القديم وبداية لظهور دولة القطر الواحدة التي تعززت أركانها وبرزت سيادتها التامة في العصر الأكدي التالي. كما يعتبر عصره (اي لوكال - زاكيري) بحق صفحة مهمة في التاريخ السياسي للعراق القديم، إذ انه يمثّل البداية الموفقة لقيام الوحدة الوطنية للبلاد وطليعة لظهور الدولة المركزية التي أرسى قواعدها فيما بعد القائد الأكدي الكبير سرجون (٢٣٧١-٢٣١٦ قبل.الميلاد)، وقد خُلد ذلك الحدث الجليل في تاريخ البلاد السياسي في نص باللغة السومرية من عهد الملك لوكال - زاكيري يعبّر بأسلوب شعري عن عمق الأحساس الوطني بذلك الحدث:

« عندما أعطى أنليل ملك البلدان جميعها ملوكية البلاد لوكال - زاكيري، وَجَّه إليه أنظار البلاد من شرقها إلى غربها، وأخضع له جميع

الناس من البحر الأعلى، على امتداد نهري دجلة والفرات، إلى البحر الأسفل، ومن الشرق إلى الغرب. وعندئذ لم يُبقِ انليل أيَّ منافس له. فاستلقى سكان جميع الأقاليم بسلام في ظل حكمه، وابتهجت البلاد في عهده وانحنى جميع رؤساء سومر وحكام الأقطار الأجنبية كلها أمامه في مدينة الوركاء. أجل في تلك الأيام كانت الوركاء تقضي ايامها في فرح عظيم، وكانت أور تشمخ برأسها عالياً نحو السماء، ولارسا مدينة اله الشمس أوتو المحبوبة تطلق صيحات الفرح، وأوما مدينة الإله شارا المحبوبة ترفع سواعد عظيمة، وفي مدينة زابالم كانت الجدران تردد أصداء الفرح كأنها شاة رُدَّ إليها حَمَلُها ورفعت مدينة الدير عنقها نحو السماء ».

وبعد حكم دام خمساً وعشرين سنة، فقد لوكال - زاكيري موقعه ملكاً للبلاد أمام الزحف الأكدي بقيادة سرجون الذي يُعَدّ المؤسس الحقيقي لأول وأقوى دولة مركزية لبلاد الرافدين، فقد صار العراق في زمنه قلباً لأقدم امبراطورية عرفها التاريخ. وقد شمل نفوذها وتأثيرها السياسي والحضاري منطقة واسعة من الشرق الأدنى القديم بما فيها الخليج العربي ومملكة دلمون القائمة على شواطئه الغربية، وبلاد الشام وأجزاء من آسيا الصغرى. والأكديون من اقوام الجزيرة العربية القديمة استوطنوا، منذ الألف الرابع قبل الميلاد، وسط العراق وعاشوا مع السومريين وتفاعلوا معهم وتأثروا بحضارتهم، وقد تكلم الأكديون اللغة الأكدية (إحدى لغات الجزيرة العربية القديمة التي كان يُطلق عليها سابقاً مجموعة اللغات السامية) واستخدموا الخط المسماري الذي ابتكره السومريون من قبل. وإلى سرجون قائد الأكديين يرجع الفضل في قيام أول وحدة سياسية حقيقية للمنطقة العربية القديمة في غربي آسيا. وكان عهده حافلاً بالمنجزات العسكرية على جميع الجبهات

واخطر التحديات التي جابهت الأكديين مصدرها جبال زاجروس إلى الشرق والشمال الشرقي من بلاد الرافدين. فقد واجه سرجون على هذه الجبهة حلفاً شرساً ضمَّ عدداً من المقاطعات العيلامية بزعامة ملك (اوان) في الجنوب الغربي من إيران. واستطاع العاهل الأكدي دحر قوات ذلك التحالف وضمَّ بلاد عيلام إلى الامبراطورية الأكدية. وحفظت لنا المدوَّنات الأكدية الكثير من أخبار المنجزات العسكرية للقائد المنصور سرجون : « كان سرجون هو المنتصر في أربع وثلاثين حملة عسكرية، وانه جرد المدن من دفاعاتها حتى ساحل البحر، وفي مرفأ عاصمته (أكد) رست سفن دلمون ومكان وملوخا. الملك سرجون ركع مصلياً للإله داكان في توتول – هيت، فاعطاه هذا الإله المنطقة العليا: ماري ويارموتي (ميناء إلى الجنوب من بيبلوس) وإبلا – تل مرديخ في شمال سوريا حتى جبال الأرز (جبال أمانوس) – وجبال الفضة (جبال طوروس). ولم يمكّن الإله أنليل أياً من الملوك على الوقوف امام سرجون الملك الذي كان يأكل في بلاطه ٥٤٠٠ مقاتل يومياً ».

وبقيت شهرة القائد الأكدي سرجون ومنجزاته العظيمة في ذاكرة الأجيال طويلاً : « جاء سرجون إلى الحكم ولم يكن له ندٌّ أو منافس. ونشر سناهُ المهيب فوق كل البلدان، فهو الذي عبر البحر إلى الشرق ودحر البلدان في الغرب ووصل إلى ابعد مدى في السنة الحادية عشرة من حكمه ». ونتيجة لسعة الامبراطورية وسيادتها الشاملة على أقاليم متعددة في الشرق والغرب، فقد صارت السفن والقوافل التجارية تأتي بالبضائع والمواد الأولية إلى العاصمة أكد وإلى أمهات مدن العراق القديم الأخرى. فانتعشت الحياة الإقتصادية وعمَّ الرخاء والعمران أنحاء البلاد كافة : « في تلك الأيام كانت مساكن أكد مملوءة بالذهب، وبيوتها الساطعة اللامعة مملوءة فضة، وإلى مخازنها كان يحمل

النحاس والرصاص وحجر اللازورد
عجائزها وُهبن سداد الرأي
وشيوخها وُهبوا فصاحة اللسان
وشبابها عُرفوا ببطش السلاح
وصغارها مُنحوا قلوبا مفعَمة بالفرح
في داخل المدن كانت تصدح الموسيقى
وفي خارجها تُسمع انغام المزمار
وفي موانيها حيث ترسو السفن
كان يعلو الصخب ويشتد الزحام».

وبسبب استنزاف طاقات الدولة في الحروب المتواصلة التي خاضتها الجيوش الأكدية على عدد من الجبهات، وبخاصة الجبهة الشرقية، حيث تقيم قبائل لولوبو والكوتيون، وفي إخماد عدد من حركات التمرد في الداخل وفي بعض الأقاليم، ولضعف القادة الذين تولوا السلطة في الدولة بعد نرام سن حفيد سرجون، فقد أخذت بوادر الضعف تدبُّ في أوصال الامبراطورية الأكدية، فلم تقوَ على صدّ هجوم القبائل الكوتية المنحدرة من جبال زاجروس، إلى الشرق من بلاد الرافدين. هذا وان نهاية الغزو الكوتي للبلاد، والذي دام ما يقرب من القرن من الزمان، كانت على يد القائد السومري اوتو- حيكال (عام ٢١٢٠ قبل.الميلاد)، الذي خلد انتصاره على الكوتيين، عقارب الجبال، وطردهم خارج البلاد في وثيقة باللغة السومرية يحكي فيها وقائع الانتصار الرائع الذي تحقق على يده بمعونة الآلهة العظام انليل وإنانا. وصار هذا النص يعرف في أوساط الدارسين بوثيقة حرب التحرير للملك اوتو- حيكال. وأقام اوتو - حيكال بعد طرده للغزاة الكوتيين دولة سومرية عاصمتها الوركاء. إلا أنها سرعان ما تخلت لمدينة أور ولحاكمها أور- نمو أحد أقوى رجال

اوتو - حيكال البارزين.أقام أور - نمو سلالة سومرية حاكمة عرفت باسم سلالة أور الثالثة قادت البلاد باقتدار زهاء مائة عام (٢١١٣-٢٠٠٦ قبل.الميلاد)، وكان عصرها واحداً من أزهى الحقب المشرقة في تاريخ العراق القديم. فقد استطاع أور - نمو وخلفاؤه أن يعيدوا للعراق مجداً امبراطورياً كان قد شهده لأول مرة على عهد سرجون الأكدي وحفيده نرام سن. كما استطاعوا إشاعة الأمن وتحقيق الإستقرار ونشر الرخاء والازدهار في أنحاء البلاد، ويرجع الفضل إلى أور - نمو في تشييد واحدة من أقدم الزقورات (الأبراج المدرجة) المعروفة في بلاد الرافدين، وهي زقورة مدينة أور العاصمة. كما أشتهر أور - نمو في التاريخ بأنه أول مشرع معروف في العالم القديم.

فقد ترك لنا قانونا مدوّناً باللغة السومرية يحوي مقدمة وعدداً من المواد القانونية. ويستمدُّ قانون أور - نمو أهميته من أنه يأخذ بمبدأ الغرامة المالية بدلاً من مبدأ القصاص المعروف العين بالعين. هذا وقد تعاقب على حكم امبراطورية أور الثالثة بعد أور - نمو وابنه شولكي ثلاثة ملوك كان آخرهم إبي سن الذي حكم مدة تقرب من أربع وعشرين سنة قدر لها ان تشهد نهاية آخر سلالة سومرية حاكمة في تاريخ العراق القديم. بعد انهيار حكم سلالة أور الثالثة وسقوط العاصمة أور وتدميرها على أيدي الغزاة العيلاميين (عام ٢٠٠٦ قبل.الميلاد) تولى السلطة في ارجاء بلاد الرافدين ردحاً من الزمن عددٌ من دول المدن أو الممالك الأمورية إلى ان تسنى لأقواها وهي سلالة بابل الأولى، توحيد البلاد مرة اخرى واقامة دولة القطر المركزية بقيادة العاهل البابلي الشهير حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل.الميلاد) صاحب الشريعة المعروفة باسمه والتي تضم ٢٨٢ مادة قانونية تعالج مختلف النواحي الإقتصادية والإجتماعية والأسرية والثقافية والعسكرية، كما تتخللها بعض مواد

للعقوبات. وقد اهتم حمورابي بالجيش وصار التجنيد في عهده الزامياً وسمح للمرأة بالتطوع في صفوف المقاتلين، واستحدث سلاحاً قوياً للاستخبارات في الجيش كان يأتيه باخبار البلاد والحكام والأعداء على وجه السرعة. كما اهتم بإستعادة مكانة دولته البابلية الموحدة ونفوذها في المنطقة، جاعلاً من مدينة بابل عاصمةً لثالث امبراطورية في تاريخ العراق القديم.

في مطلع القرن السادس عشر قبل الميلاد بدأ الضعف يدبُّ في جسم الدولة البابلية الواسعة الأرجاء التي اقامها حمورابي، واخذت مظاهر التمرد بالظهور في بعض مناطقها، وانفصل بعضها عن جسم الدولة كالقطر البحري في أقصى الجنوب الغني بثرواته، وأخذت اقوام اجنبية غريبة عن البلاد، مصدرها بلاد عيلام وبعض مناطق جبال زاجروس وآسيا الصغرى واطراف بحيرة وان وبحر قزوين تجتاح بقاعاً من أراضي الدولة البابلية. وتسنى لإحداها، وهم الكاشيون، الاستيلاء على السلطة في بابل، بعد انسحاب الحثيين القادمين من آسيا الصغرى، الذين كانوا قد أسقطوا الدولة البابلية واحتلوا العاصمة. وحين خروجهم منها على عجل اخذوا معهم تمثال الإله مردوخ. إلا انهم تركوه في مدينة عانة على الفرات.

واستطاع الآشوريون تسلم زمام السلطة في كل البلاد بعد ان أزاحوا الكاشيين من تسلطهم على منطقة بابل وبقية أقسام وسط العراق. وفي الربع الأخير من الألف الثاني ومطلع الألف الأول قبل الميلاد أصبح الآشوريون قادة العراق كله بلا منازع، وذلك بعد خروجهم منتصرين في الصراع الرهيب الذي خاضته قواتهم المسلحة مع عدد من أقوام الشرق الأدنى القديم، في الشمال والشرق والغرب، والتي كانت تحتل أجزاء من العراق وبلاد الشام. وقد أقام الآشوريون وللمرة الرابعة

في تاريخ العراق القديم دولة قوية مترامية الأطراف عاصمتها نينوى، ضمَّت، فضلا عن المنطقة العربية القديمة في غربي آسيا، أجزاء من وادي النيل وبعض أقسام آسيا الصغرى وإيران. وقد اشتهر من قادتها البارزين سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ قبل.الميلاد) الذي أزال السلطة العبرية من شمال فلسطين واسقط عاصمتها السامرة. وشيَّدَ عاصمة جديدة اطلق عليها اسمه (دور شروكين) أي مدينة سرجون، تقوم بقاياها اليوم إلى الشمال من نينوى وتعرف بخرساباد. وأعقبه ابنه سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ قبل.الميلاد) االذي قام باعمال عمرانية واسعة في العاصمة نينوى وحصَّنها وشيَّد أسوارها. وقد حاصرت الجيوش الآشورية في عهده مدينة أورشليم (القدس) في محاولة لإزالة الكيان العبري الجنوبي الذي كان يعرف بمملكة يهوذا، بعد ان كان والده سرجون قد أزال الكيان الشمالي (اسرائيل). وقد استطاع خليفته أسرحدون (٦٨١-٦٦٩ قبل.الميلاد) ان يضمَّ مصر السفلى (الدلتا) إلى ممتلكات الدولة الآشورية في عهد الفرعون النوبي ترهاقة. ويُعَدُّ آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧ قبل.الميلاد) آخر ملوك الآشوريين الأقوياء. ويرجع الكثير من شهرته إلى شغفه بالمعرفة واهتمامه بجمع التراث الأدبي والعلمي القديم للبلاد. وقد وصلنا الشيء الكثير من ذلك من مكتبته الشهيرة في قصره في العاصمة نينوى، والتي كانت تضمُّ أكثر من خمسة وعشرين الف رقيم طيني مدون بالخط المسماري وباللغات السومرية والأكدية والبابلية والآشورية وبمختلف فروع المعرفة والعلوم والآداب والملاحم والأساطير.

لقد تعرضت الدولة الآشورية في أواخر أيامها لهجوم مشترك من القوات الكلدية (البابلية) والميدية التي استطاعت الإستيلاء على العاصمة نينوى بعد حصار دام ثلاثة اشهر. وبزوال الكيان السياسي

للآشوريين في بلاد الرافدين انتقلت السيادة في البلاد برمتها الى السلالة الكلدية التي أسسها نبوبلاصر في بابل عام (٦٢٦ قبل.الميلاد)، وآلت إليها جميع اقاليم وممتلكات الدولة الآشورية في بلاد الشام والخليج العربي ووادي النيل. وقد دام حكمها نحو قرن من الزمن (٦٢٦-٥٣٩ قبل.الميلاد). وكان عهدها آخر حكم وطني شهده العراق القديم، كما كانت الامبراطورية الكلدية البابلية آخر امبراطورية تقوم في بلاد الرافدين في تاريخها القديم قبل ان يقع تحت السيطرة الأجنبية للأقوام الغازية لما يقرب من عشرة قرون انتهت بالتحرير العربي الاسلامي للعراق وبقية أقطار الوطن العربي في غربي آسيا وشمالي افريقيا قبل منتصف القرن الأول للهجرة. إشتهر من قادة الدولة الكلدية (البابلية الحديثة) العاهل البابلي الشهير نبوخذنصر الثاني (٦٠٥-٥٦٢ قبل. الميلاد) الذي دام حكمه ثلاثاً واربعين سنة قضى أكثر من نصفها في الحروب وقيادة الجيش البابلي بنفسه في الجبهات الشرقية والغربية من أجل توطيد كيان الدولة واخضاع المقاطعات المتاخمة لحدودها وتأمين طرق التجارة الخارجية وصد الأطماع العيلامية والميدية. وإلى نبوخذنصر الثاني يعود الفضل في القضاء على الكيان العبري في أرض فلسطين نهائياً وذلك بثلاث حملات موفقة كان آخرها في (عام ٥٨٢ قبل.الميلاد) حيث هدم اسوار أورشليم (القدس) وازال ما كان يعرف بدولة يهوذا ونقل أعدادا كبيرة من سكانها، من بينهم البيت المالك وبعض الأنبياء وأسكنهم في العاصمة بابل وغيرها من امهات مدن وسط العراق. وقام نبوخذنصر باعمال عمرانية واسعة في بابل، وفي العديد من مدن العراق القديم، وصارت أعماله العمرانية المدهشة في بابل أسطورة

تتحدث عنها الأجيال، وقد قام في اواخر عهده، وبسبب شكوكه في نوايا الميديين الفرس نحو دولته، بتشييد سور عظيم إلى الشمال من بابل، بدايته عند مدينة سبار (ابوحبة) على الفرات، ونهايته قرب مدينة اوبس على دجلة إلى الجنوب قليلاً من بغداد الحالية. لقد جعلت اعمال نبوخذنصر الحربية والعمرانية من شخصه أسطورة تناقلتها المراجع اليونانية والرومانية وأسفار العهد القديم والمؤرخين العرب بكثير من الإعجاب والمبالغة وأحياناً بشيء من الخوف والحقد (سفر دانيال العهد القديم)، كما جعلت منه أبرز شخصية عرفها العالم القديم.

٥. بيوت الآلهة والأبراج المدرجة (الزقورات)

عُني العراقيون بتشييد المزارات والمعابد الأولى لآلهتهم منذ الألف السادس قبل الميلاد، فقد شيدوا مزاراً للأم الإلهة (Mother Goddess) في أسفل طبقة سكنية في تل الصوان، قصده سكنة قرى المنطقة المجاورة في وسط العراق آنذاك حاملين معهم النذور والهدايا لسيدة الأرض وإلهة الخصب والأمومة. كما دفنوا الموتى من صغارهم في رحاب ذلك المزار ليكونوا في حماية الأم الإلهة في رحلتهم إلى عالم ما بعد الموت. وقد شيدوا عددا آخر من المزارات لسيدة الأرض في أبرز مستوطنات العراق الأولى من العصر الحجري الحديث، واهتموا منذ بداية الألف الرابع قبل الميلاد بإقامة معابد تعلو منازل البشر شيدوها على قواعد أو مصاطب من اللبن والطين وبالغوا احياناً في ارتفاعها وفي عدد طبقاتها حتى غدت في اواخر الألف الثالث وخلال الألفين الثاني والاول قبل الميلاد كالجبال الشاهقات في علوها وفي ضخامة مدرجاتها وسلالمها.

وخير أمثلة على ما تبقى من هذا الطراز الفريد من عمارة العراق القديم هي زقورات آشور ونمرود وعقرقوف وكيش ونفر والوركاء وأور واريدو. وقد اطلق العراقيون على كل من هذه الزقورات اسماً خاصاً بها يرمز إلى السمو والرفعة كما يرمز إلى الصلة الأزلية بين الأرض والسماء. فالجبل أي الزقورة أو البرج المدرج هو في الواقع سلم شاهق يتسلقه الانسان ليدنو من السماء ما استطاع ليقترب كثيراً من الإله الذي يصبو اليه ويسعى بتقوى وخشوع لتسهيل أمر نزوله إلى حيث البشر.

فزقورة آشور كانت تدعى دار جبل الكون وزقورة بابل تسمى دار أساس السماء والأرض، كما أُطلق اسم دار الأدلة السبعة للسماء والأرض على زقورة بورسيبا وهكذا... ومن الناحية المعمارية كانت بداية الزقورة في أواخر عصر العبيد واوائل عصر الوركاء (مطلع الألف الرابع قبل الميلاد). وقد كانت بالأصل دكة أو مصطبة أو شرفة مشيدة باللبن ترتفع عن الأرض قليلاً ليقوم فوقها بناء المعبد المخصص لإله المدينة. وقد جاءتنا نماذج أولى من هذه المصاطب من مواقع العقير قرب كيش والوركاء واريدو وتل العبيد وقالينج اغا في أربيل.

لقد تأثر بناة المصاطب التي تضم رفاة فراعنة مصر الأوائل في اواخر الألف الرابع قبل الميلاد بالطراز المعماري العراقي في هذا الباب، كما تأثروا الى جانب ذلك بعناصر فنية وتقنية عراقية اخرى في النحت البارز وعمل الأواني والجرار من الحجر المرمر والفخار وفي عمل الأختام الأسطوانية. وكان ذلك في أواخر عصر نقاده المعاصر في الزمن لأواخر عصر الوركاء في العراق. وقد عرفت مدينة ماري وتل براك في سوريا الزقورة على الطريقة العراقية وشيدها الإيرانيون في موقع جوخة زنبيل وربما في تخت سليمان على الطريقة العراقية أيضاً.

٦. القصب والبردي في عمارة العراق القديم

إستعمل فلاحو العراق الأوائل، قبل نحو عشرة آلاف سنة، أخشاب الأشجار وأغصانها وسيقان القصب والبردي في تشييد دورهم. كما فرشوا أرضيات تلك الدور بالبردي وغطوها بالطين تفادياً لرطوبة الأرض. وحاك سكنة قرى العراق الأولى الحصران والسلال من البردي واستخدموها بعد طلائها بطبقة من القار أواني للسوائل وغيرها من الأغراض المنزلية. ولخلو القسم الجنوبي من العراق من الحجارة والأخشاب اللازمة للبناء، فقد استعان قدماء العراقيين، ومنذ استيطانهم أرض الجنوب، بالطين والقصب والنخيل والحلفا في البناء كما أستفادوا من مختلف اقسام النخلة، فاتخذوا من جذوعها وجريدها موادا للتسقيف، وحاكوا من سعفها حصراناً. وقد كان للنخلة دور بارز في المعتقدات الدينية القديمة، إذ انها كانت شجرة مقدسة لدى العراقيين وعلى جانبها صورة لآدم وحواء والحية في الأختام الأسطوانية. وعند قدماء المصريين كانت النخلة شجرة من اشجار الجنة.

لقد جلب العراقيون أنواعاً من الأخشاب من الخارج للبناء. فقد أخبرتنا المصادر المسمارية السومرية من مدينة لكش (من منتصف الالف الثالث قبل الميلاد) بأن سفنا من دلمون (جزر البحرين وما جاورها) تأتي بالأخشاب من البلاد الأجنبية (المقصود بها موهنجادار وخرايا في حوض نهر السند في شمال غربي الباكستان). وان أخشاب الأرز كانت تُجلَب من جبال لبنان منذ أوائل الألف الثالث قبل الميلاد لاستخدامها في تشييد المعابد والقصور في أمهات مدن العراق القديم. وقصة رحلة البطلين جلجامش وأنكيدو إلى غابة الأرز المحفوفة بالأخطار وقتلهما للوحش الرمزي خمبابا حارسها، دليل واضح على

اهتمام العراقيين الواسع بهذه المادة وبمصادرها في جبال لبنان، إذ قد خُصص لهذا الجزء من القصة ركن بارز في ملحمة جلجامش المعروفة. وفي واقع الأمر ان ملك الوركاء جلجامش (في حدود ٢٧٠٠ قبل.الميلاد) كان يتهيأ بالفعل للقيام بمشاريع بنائية طموحة في مدينته الوركاء، يدخل فيها خشب الأرز مادة أساسية في مشاريعه العمرانية. واستمر استعمال خشب الأرز في مباني العراق القديم الرئيسة في العصور اللاحقة. فقد استخدمه أبرز ملوك الآشوريين المشيدين : آشور ناصر بال الثاني وابنه شلمنصر الثالث وسرجون الثاني وسنحاريب وأسرحدون وآشور بانيبال في مدن آشور ونمرود (كالح) ونينوى وخرساباد (دور شروكين). كما أستخدمه العاهل الكلدي البابلي الشهير نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥-٥٦٢ قبل.الميلاد) بشكل واسع في أعماله العمرانية الأسطورية في بابل في الربع الأول من القرن السادس قبل الميلاد. وكان للقصب دور بارز في حياة سكنة القسم الجنوبي من العراق فقد دخل في صناعات يدوية عديدة، منها حياكة الحصران والسلال وعمل الأسيجة، كما استُخدم في صناعة السفن والزوارق، وذلك بتجميع حزم القصب وربطها جيداً مع بعضها. كما دخل القصب أيضاً مع اوراقه أو بدونها في أعمال بناء واسعة واقامة الجدران والاسيجة والحواجز وكذلك في تشييد الأقواس والعقود والمباني. ومن المعروف ان معظم جنوبي العراق كان يستخدم القصب في البناء عند الإستيطان لأول مرة في هذا القسم من بلاد الرافدين. وفي قصة الطوفان التي وردت في ملحمة كلكامش، يخبرنا أتونابشتم الناجي الوحيد من ذلك الحدث المروع. ان الإله أيا صديق البشر قد أسرّ اليه بسر الطوفان الذي قررته الآلهة لإبادة البشر الذين صاروا يقلقون راحتها، هامساً إليه بهذه الكلمات:

يا كوخ القصب
اسمع يا كوخ القصب
وافهم يا حائط
يا رجل شروباك
يا إبن أوبار - توتو
قوّض البيت وابنِ لك فُلكاً
تخَلّ عن مالك وانشد الحياة
أنبذ الملك وانقذ حياتك
واحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة...

إلى آخر القصة. وهنا إشارة واضحة إلى ان بيوت مدينة شروباك (فارة في محافظة القادسية إلى الجنوب من مدينة عفك) كانت مشيدة من القصب. كما ان المراجع العربية تخبرنا ان البصرة والكوفة هما أول مدينتين شيدهما العرب المسلمون في العراق بعد تحريره في الأعوام (١٦-١٧ للهجرة) من ايدي الفرس الساسانيين في زمن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (رض) كانتا من القصب بكل مبانيهما بما فيها المسجد الجامع ودار الامارة والأسواق.

ان ظاهرة استخدام القصب بشكل واسع في جسم ابراج العراق القديم المدرجة (الزقورات) المشيدة من طبقات متعددة من سوف من اللبن والطين ظاهرة واضحة وبارزة تشاهد بقاياها اليوم في عدد من زقورات القسم الوسطي والجنوبي من العراق مثل زقورات عقرقوف، كيش، الوركاء، نفر، أور واريدو. وقد جرت العادة ان تفرش طبقة من القصب بين اعداد ثابتة من سوف اللبن المشيدة به تلك الزقورات. وكان القصب عادة يُفرش بهيأته الطبيعية دون ان يحاك بشكل حصران مسبقاً، الا أنه حين كان يفرش باتجاهين معاكسين فانه يوحي للناظر

إلى بقاياه اليوم وكأن حصرانا من القصب قد استعملت في طبقات بناء الزقورة.

وفي زقورة عقرقوف بالذات يشاهد المرء، اضافة إلى طبقات القصب الداخلة في مكوّناتها، حبالاً مجدولة من حزم من سيقان القصب تخترق جسم الزقورة من جانب إلى آخر. وتقوم هذه الحبال بعمل قضبان حديد التسليح في المباني الحالية.

لقد كان استخدام القصب في الكتل البنائية الكبيرة الصلدة ضرورة معمارية من أجل شد وتماسك اقسام تلك الهياكل الطينية الضخمة كالزقورات. وقد انتقلت هذه التقنية في البناء من العراق القديم إلى وادي النيل، مع عدد آخر من التنقيبات الفنية، كما مر سابقًا، في أواخر عصر الوركاء حيث نشاهد آثارها في مصاطب مصر القديمة المشيدة من اللبن أيضاً. يلي القصب في الانتشار البردي (Burlush) وهو يشبهه تماماً وينمو إلى أرتفاع ثلاثة أمتار ويدخل في عمل الحصران وتشييد الأكواخ. ان سيقان البردي أقل صلابة من سيقان القصب وتحوي بداخلها لباً أكثر ليونة من لب سيقان القصب. ولذا كانت أكثر ملائمة لعمل الحصران من القصب نفسه. ومع هذا ليس لدينا الكثير عن استخدامات البردي في العراق القديم، إذ إنه ليس هناك من تمييز واضح بينه وبين القصب في المراجع والنصوص المسمارية.

٧. البدايات الأولى لتجارة العراق الخارجية

احتاج العراقيون الأوائل منذ نحو عشرة آلاف سنة إلى مواد خام لصنع آلاتهم وأدواتهم وأسلحتهم، وأبرزها الحجارة بانواعها والأوبسيدين (زجاج بركاني). كما تطلبت زينة النساء أنواعاً من الصدف والمحار والأحجار الكريمة لا تتوجد غالبيتها في مناطق العراق

المختلفة. ولأجل الحصول على آلات حادة للقطع كان لا بد من توفر حجر الصوان والزجاج البركاني والحجر الجيري، بينما كانت أنواعٌ من الحجر الرملي والحجر البركاني تدخل في انتاج أدوات وآلات اكبر حجما وضخامة، كالمطارق والفؤوس والمدقات والمجارش ورؤوس الصولجان.

من الواضح أن أنواعاً عديدة من الحجارة المحلية قد دخلت في صناعة العديد من آلات القطع والفرم والفؤوس والآلات الأكبر حجماً المستخدمة في الحفر وإعداد الطعام. غير أن الحجارة البركانية اللازمة لعمل الكثير من الآلات والشفرات الحادة الأخرى الأكبر حجماً للاغراض الإقتصادية معدومة في انحاء القطر المختلفة. لذا فقد تطلب الحصول عليها وجلبها من أماكن تواجدها في الخارج. ومن أبرز المواد الخام التي وصلت مواقع المنطقتين الشمالية والوسطى من القطر والتي احتاجها أجدادنا الأوائل هي الزجاج البركاني (الاوبسيدين) لعمل شفرات وآلات دقيقة ودبابيس ومرايا وغيرها من الحاجيات اللازمة في مجتمع القرى الزراعية الأولى.

وكانت هذه المادة البركانية تتوجد في اماكنها من وسط وشرقي بلاد الأناضول، وأن الانواع الخاصة بكل منطقة من هاتين المنطقتين لها خواصها ومزاياها وما تحويه في تركيبها من المواد الكيمياوية الشائبة الداخلة في تكوينها. وان الدراسات التحليلية المختبرية الحديثة قد مكنتنا من التعرف إلى أنواع هذه المادة والمنطقة التي جاءت منها في بلاد الأناضول.

لقد وصلت مادة الاوبسيدين هذه إلى مواقع العراق القديم بطريقين رئيسين :

أولهما ماراً بمواقع شمالي سوريا حيث يتفرع هناك إلى فرعين، فينحدر احدهما جنوبا باتجاه فلسطين ومنها يعبر صحراء سينا إلى وادي النيل. ويتجه الآخر شرقاً إلى مناطق سنجار وتلعفر والموصل، حيث عُثر على أدلة ذلك في مواقع كري رش والمغزلية ويارم تپه وقرمز دره والثلاثات وحسونة وقوينجق والاربجية وتپه كوره وعشرات غيرها من مواقع شمال غربي العراق الاولى.

أما الطريق الثاني من شرقي الأناضول فقد كان يمر بشمال إيران عند اطراف بحيرة وان ويدخل العراق في منطقة قلعة دزه ماراً بسهل تبوين في منطقة رانية (حيث بحيرة سد دوكان الحالية) ومنه ينحدر باتجاه سهول السليمانية وشهرزور وجمجمال وكركوك وأربيل حيث نجد ذلك في مواقع القرى الأولى على طول هذا الطريق ومنها شمشارة وجرموومطارة وقالينج أغا والمبدد وتل الصوان على ضفة دجلة الشرقية في منطقة واسعة بين تكريت وسامراء.

وبتقدم ونمو مواقع القرى الزراعية الأولى في شمالي العراق ووسطه وانتشارها وتعددها في الألفين السادس والخامس قبل الميلاد، وشيوع العديد من المعتقدات والممارسات العقائدية والسحرية، وعلاقتها بالأرض والخصوبة والنماء، فقد قام سكان تلك القرى بجلب العديد من أنواع الصدف والمحار من سواحل البحر المتوسط والخليج العربي لعمل قلائد وحرز من الخرز والأصداف تتقلدها النساء والاطفال للزينة أو تعاويذ ذات قوى سحرية.

وقد تحاك على أطراف ملابس المناسبات، كما يعمل منها أساور وخواتم. وقد أتوا بالشذر من مصادره في شرقي إيران واللازورد من مناجمه في منطقة بادكشان في شمال افغانستان والنحاس من عمان في الخليج العربي، ومن بلاد الاناضول، كما أتوا بالفضة والذهب من

الاناضول أيضاً.

إن رحيل قدماء العراقيين بعيداً عن ديارهم لأغراض التجارة أدى في الوقت نفسه إلى انتشار الكثير من المعتقدات والفنون والمهارات العراقية في الاصقاع التي رحلوا إليها وتاجروا معها، وأدلّة ذلك تبرز في انتشار صناعة فخاريات العراق الملونة الأولى في الجهات التي وصل إليها تجار العراق الأوائل في شمالي سوريا وفلسطين ووادي النيل وجنوبي الأناضول وإيران، ترافقها معارف فنية ومعمارية ومعتقدات دينية وملاحم واساطير وآداب وأفكار فلسفية وعلوم فلك ورياضة.

٨. مكانة المرأة في العراق القديم

بالرغم من أن السيادة في مجتمعات ما قبل التاريخ، ومنها العراق، كانت للرجل بسبب قوته الجسدية ومصارعته الطبيعة القاسية وحيواناتها الضخمة المفترسة للحصول على الطعام له ولصغاره ولأزواجه، إلا ان للمرأة أيضاً في تلك الأزمان السحيقة في القدم دورها ومكانتها. فقد كانت هي التي تُعنى بالصغار وبحمايتهم وتنشئتهم. كما كانت في أوقات كثيرة تساهم مع الرجل في الصيد ومقاتلة الاعداء. كما كان يقع عليها عبءُ تهيئة الطعام ونظافة الكهف والعمل يداً بيد مع الرجل في تشظية وتحضير الآلات والأدوات من الحجارة والعظام وأخشاب الأشجار. وتشير الأدلة المكتشفة في كهف شانيدار أن سكنة ذلك الكهف من إنسان نياندرتال العراقي قد أهتموا بموتاهم واعتنوا بدفنهم بأسلوب احتفالي أحياناً، وقد وضعوا زهوراً برية تنمو في المنطقة عند رؤوس بعض أولئك الموتى وذلك قبل اكثر من أربعين ألف سنة. إننا نميل إلى الإعتقاد بان المرأة العراقية في كهف شانيدار كانت وراء هذا العمل الجمالي والإنساني معًا في ذلك الزمن السحيق في القدم.

ومرت بضعة ألوف من السنين على حياة الكهوف والصيد والبحث عن الطعام اعتدل فيها المناخ وقلت الأمطار وانخفضت المياه في الجداول والوديان. فخرج إنسان العراق من عزلته في كهوفه ومعه أطفاله ونساؤه يبحث عن الدفء والطعام. فقادته قدماه إلى مروج خضراء فوق هضاب وفي سهول ووديان تجرى فيها المياه والشلالات. فاستقر فيها مع من معه. وذهب الرجال كعادتهم وراء الفريسة والصيد، بينما سكنت النساء مع صغارها في تلك المروج وفوق الهضاب الخضر يرقبن حركة الطبيعة ونماء النبات تلقائياً، وفيه حبّات تصلح غذاءً طيباً إذا ما أبتلت بالماء بعد تساقطها فيه فتجمعها الصغار ويلتهمونها بمرح، بينما تلتقطها النساء لتحيلها إلى عجينة طرية تحولها نار الموقد إذا ما اسقطت فيها إلى وجبة طعام لذيذة. وتبقى بعض حبات هنا وهناك في التربة المبتلة بمياه المطر القادم بعد حين لتبرز من الأرض نباتًا أخضر سرعان ما تعلو سيقانه سنابل تصطف في كل منها حبيبات منتظمة تتساقط مرة آخرى على الأرض بعد جفافها فتحيلها النساء مرة اخرى إلى عجينة تشويها في النار وتقدمها لصغارها وجبة شهية. وبتكرار الحدث هذا وبمواسم منتظمة امام مرأى المرأة في أماكن سكناها في العراء تنبهت الى مغزاه فأخذت هي تأخذ الحبوب الناضجة وتدفنها في التربة الرطبة ليأتي عليها زمن المطر فتنمو إلى سنابل تعطي حبيباتها طعاماً لها ولصغارها. وهكذا حصلت المرأة في العراق القديم على حقلها الأول وكان السبب وراءه نماء نوعين من الحبوب الصالحة كطعام، وهي الحنطة الشعير التي تنمو برياً في سهول وهضاب تعلو ألف متر فوق سطح البحر في الأطراف الشمالية والشرقية من بلاد الرافدين.

ويذهب بعض دارسي نشوء الحضارة إلى ان المرأة قد أستأنست الحيوان قبل تعرفها إلى الزراعة بنحو ألفي سنة. وقد حدث ذلك حين

شاهدت المرأة نوعاً من الخراف والماعز تعيش برياً في أماكن سكناها التي يزيد أرتفاعها أيضاً عن ألف متر فوق سطح البحر، وقد الفتها تلك الحيوانات كما ألفت اطفالها صغار تلك الحيوانات فأُخذت الصغار لتُربى جوار منازلها. وهكذا تحقق لإنسان بلاد الرافدين دخول مرحلة إقتصادية هامة في حياته التي باتت بفضلها حياته أكثر استقراراً وامناً، وهي مرحلة إنتاج قوته بنفسه. ويرى الكثيرون ان تحقق ذلك كان على يدي المرأة بسبب يقظتها وانتباهها لما كان يجري حولها في الطبيعة ولاهتمامها بسد حاجات اطفالها إلى مصدر دائم وثابت للغذاء.

إن معرفة الإنسان بالزراعة وأستئناس الحيوان في ذلك الزمن المبكر من العصر الحجري الحديث أُعتبر قفزة كبيرة في مضمار التقدم والحضارة، وذلك بانتقاله من حياة الصيد والتجوال وجمع قوت يومه إلى مرحلة من حياته أكثر أمناً واستقراراً، والتي عدها بعض المشتغلين في نشوء الحضارات الأولى أخطر انقلاب حققته البشرية في مسيرتها الطويلة على سطح هذا الكوكب. وقد أطلق عليها البعضُ ثورة إنتاج القوت والثورة الزراعية وثورة العصر الحجري الحديث. انها المرحلة التي اعقبها التوصل إلى معارف وتقنيات عديدة في العمارة وعمل الفخار وممارسة معتقدات أولى في الدين والعبادة، وكله في قرى أولى اقامها ذلك الإنسان في مقاره التي حقق فيها تلك القفزة النوعية في حياته الإقتصادية.

وقد تحقق كل ذلك بخطوات بطيئة، إلاّ أنها مثمرة استغرقت ما لا يقل عن خمسة الآف سنة أعقبت توصله إلى تلك القفزة الإقتصادية الهامة، فنمت قراه الزراعية الأولى إلى نواة للمدن بتكوينها الإجتماعي ونسيجها الحضري الذي قاد بالتالي إلى ظهور الحضارة العراقية الناضجة في اواخر الألف الرابع ومطلع الألف الثالث قبل الميلاد.

ومن النتائج الفكرية الهامة للتحول الإقتصادي هذا ظهور العقيدة الدينية بأبسط مظاهرها في تقديس الأرض واعتبارها إلهة للخصب والعطاء ومصدراً للغذاء. فكانت الأم الأرض أول معبود اتخذته البشرية الأولى في كل مكان عرفت فيه الزراعة وتدجين الحيوان. فقد قدس فلاحو العراق والعالم القديم كله الأرض بشكل امرأة بحالة الحمل، وأقاموا لها المزارات وقدموا لها الهدايا والنذور، والأم الإلهة (Mother Goddess) أو الأم الأرض (Mother Earth) عند السومريين وبصفاتها الأخرى في الجنس والخصب وتكثير النسل والحب والزواج هي إنانا (E-Nann) ، كبيرة آلهة الوركاء التي منحتها الملوكية والسيادة والحكمة.

بعد انقضاء الألف الرابع قبل الميلاد، حين نمت قرى العراق الزراعية الأولى وصارت مدناً تشعبت فيها الحياة وتشابكت مصالح السكان والمعبد والكهنة، كان لابد من إيجاد تشريعات لحماية الفرد في المجتمع وتنظيم شؤون الحياة في دولة المدينة (city - state) .

فوضعت إصلاحات اجتماعية اولاً أعقبتها قوانين وشرائع كان للمرأة فيها نصيب وافر. فقد وضع أورو - كاجينا (٢٣٧٨-٢٣٧١ قبل. الميلاد) الحاكم السومري لسلالة لجش اصلاحات إجتماعية تنظم حياة الأسرة ومكانة المرأة في مجتمع دولة المدينة السومرية، إضافة إلى تنظيمه للشؤون الإقتصادية وحدِّه من سيطرة المعبد وكهنته على شؤون الدولة المالية. وفي شريعة أور - نمو، مؤسس سلالة أور الثالثة السومرية (٢١١٣-٢٠٠٦ قبل.الميلاد) عدد من المواد القانونية تعالج حقوق المرأة الباكر والمتزوجة والمطلقة. ولم تغفل شريعتا لبت - عشتار وأشنونا المرأة وشؤونها العائلية. كما تحتوي شريعة حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل.الميلاد) على أكثر من ثلاثين مادة قانونية (المواد ١٢٧-١٩٤) تعالج

شؤون الأسرة والمرأة بالذات من زواج وطلاق وارث وتبن وحمايتها من أي نوع من أنواع الإعتداء. وان هناك العديد من رقم طين مدونة بالخط المسماري لقوانين آشورية تتطرق في عدد من موادها إلى شؤون المراة ومكانتها في المجتمع الآشوري، ورقم أخرى من العصر البابلي الحديث (الكلدي) عالجت بعض موادها القانونية ما له علاقة بحياة المرأة ومكانتها الإجتماعية. وفي العديد من قوانين العراق القديم مواد تبحث في حقوق المرأة وامتيازاتها التي تُعَدُّ على درجة من التقدم في حينه. فقد اعطت بعض تلك التشريعات للمرأة حق إدارة أملاكها الخاصة بنفسها دون أي تدخل من ذويها أو زوجها، كما منحتها إحدى مواد شريعة حمورابي الحق في طلب الطلاق ان استطاعت ان تثبت أمام القضاء ان زوجها قد أهانها أو أساء إلى سمعتها، كما أعطاها الحق في ان تثبت براءتها واخلاصها للحياة الزوجية إذا ادّعى الزوج بأنها قد خانته.

وكان للمرأة في العراق القديم الحق في ممارسة أعمال ومهن مختلفة والقيام بواجبات ضمنها لها المجتمع والقانون. فقد شاركت نساء سومريات معروفات أزواجهن الأمراء والحكام في الإشراف على شؤون الدولة وتصريف الشؤون المالية وجمع الضرائب وتوزيع الأرزاق وشراء العبيد وترؤس الإحتفالات الدينية. كما برزت منهن حاكمات وكاهنات وقد شغلت نساء بارزات في المجتمع الآشوري مناصب كبيرة في الدولة. ولدينا نص مسماري من القرن الثامن عشر قبل الميلاد يشير الى أن امراة قد ساهمت في هيئة من المحلَّفين أمام مجلس للقضاء في مدينة نفر، وقد امتهنت المرأة في العراق القديم، ومنذ العصر السومري مهناً مختلفة منها الكتابة والطب والغناء والعزف على الآلات الموسيقية وتصفيف الشعر وادارة الحانات والمطاعم. وكانت المغنية أور - نانشه من أشهر النساء الموسيقيات في أواخر عصر فجر السلالات

السومرية في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. كما كانت تغني وتؤدي بعض الرقصات أيضاً وتمثالها المكتشف في مدينة ماري على نهر الفرات (ضمن الحدود السورية الآن) يظهرها مرتدية سروالاً وشعرها المجعد متهدل على كتفيها وظهرها. كما كانت حفيدة العاهل الأكدي المعروف نرام سن (٢٢٥٤-٢٢٣٠ قبل.الميلاد) تعزف على الكنارة في حضرة الإله سن إله القمر في معبده الرئيس في أور. ومن النساء الشهيرات في العراق القديم الملكة شبعاد (بو - أبي) زوجة الملك آبار- كي أحد ملوك سلالة أور الأولى سنة (٢٦٥٠ قبل الميلاد). اشتهرت هذه السيدة السومرية بمقبرتها المكتشفة في أور في اواخر العشرينات من القرن الماضي والشهيرة بزينتها وأثاثها الملكية من الحلي والاحجار الكريمة وكذلك الضحايا البشرية التي رافقتها إلى مقبرتها والمؤلفة من حاشيتها وخدمها وحرسها بالبستهم الكاملة واسلحتهم وعرباتهم وعددهم تسعة وخمسون شخصاً. وقد تكون شبعاد وزوجها أبار - كي من ضحايا طقوس وشعائر الزواج المقدس الذي كان يمارس سنوياً في مرحلة مبكرة من التاريخ السومري ليعم الرخاء والخصب في البلاد. والملكة كوبا با (٢٤٢٠ قبل.الميلاد) استولت على عرش كيش وحكمت دولة مدينتها مدة ثلاثين سنة بحنكة وذكاء واقتدار دون مشاركة زوجها أو إبنها. كما كانت الأميرة والكاهنة انخيدوانا إبنة سرجون الأكدي (٢٣٧١-٢٣١٦ قبل.الميلاد) أول أميرة في العراق القديم تشغل منصب كاهنة عظمى (أنتو) في معبد الإله سن إله القمر في أور ولمعبد إله السماء آنو في الوركاء بوقت واحد. وقد عُرفت الأميرة انخيدوانا بكونها شاعرة أيضاً. فقد وصلتنا إحدى أشهر قصائدها في مدح الإلهة إنانا (عشتار) والتي دعتها فيها سيدة النواميس جميعها، معددة خصال هذه الإلهة العظيمة :

سيدة جميع النواميس الإلهية

الضياء اللامع
المرأة التقية التي تتسلح بالإجلال
محبوبة الأرض والسماء
أنتِ يا من احتضنت النواميس إلى صدرها
يا مَخربة البلدان الأجنبية
أنتِ يا من أعطتها الرياح أجنحة
تجعلين الأناشيد تنطلق من قيثارة الأحزان
السيدة العظيمة في الأرض
من يستطيع نكران الولاء لك
أنا انخيدوانا الكاهنة العظمى

عرف العالم الكلاسيكي وكتاب اليونان الملكة الآشورية سومو – رامات (محبوبة الحمام) باسم سميراميس. كانت سومو – رامات زوجة للعاهل الآشوري شمشي – أدد الخامس (٨٢٣-٨١١ قبل.الميلاد) الذي حكم الإمبراطورية الآشورية من عاصمته نمرود (كالح). وعند وفاته كان ابنه أدد – زاري الثالث (٨١١-٧٨٣ قبل.الميلاد) قاصراً لم يبلغ سن الرشد بعد، فتولت السلطة نيابة عنه والدته سمو – رامات ولمدة خمس سنوات. قلدت سمو – رامات الملوك الآشوريين العظام بإقامة مسلّة لشخصها تخلد ذكراها في ساحة المسلات في معبد الإله آشور في العاصمة المقدسة آشور (قلعة شرقاط) التي اكتشفتها بعثة التنقيب الألمانية في مطلع القرن العشرين وبرئاسة المنقب والتر اندريه جاء فيها :

مسلة سومو – رامات
ملكة شمشي أدد
ملك الكون
ملك بلاد آشور

كنة شلمنصر

ملك الجهات الإربع

كانت شخصية هذه السيدة العراقية من القوة والتأثير بحيث أصبحت قادرة على أدارة دفة الحكم في الإمبراطورية الآشورية المترامية الأطراف باقتدار لمدة خمس سنوات. وكانت انجازاتها العمرانية والعسكرية سبباً اكسبها شهرة واسعة في عصرها ولأجيال عديدة لاحقة مما جعل من اسمها وذكراها مادة لكثير من الأساطير والقصص. و زاكو تو (نقية) التي تنتمي إلى إحدى القبائل العربية إلى الغرب من بلاد آشور كانت الزوجة المحبوبة والمفضلة لدى العاهل الآشوري سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ قبل.الميلاد). وقد أطلق عليها زوجها اسمها الآشوري (زاكوتو) بعد الزواج. لم تكن السيدة نقية زوجة ملك اعتيادية ترضى بحياة القصور المترفة، بل استطاعت بدهائها وذكائها ان تساهم في حكم الامبراطورية إلى جانب زوجها. وكان لها نفوذ كبير في ارجاء البلاد. وتمكنت نقية بحنكتها ان تجعل من إبنها أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩ قبل.الميلاد) ولياً للعرش بالرغم من انه لم يكن الإبن البكر لسنحاريب.

عاشت الملكة زاكوتو فترة طويلة من الزمن، واحتفظت بمركزها ونفوذها الواسع في الدولة، وكانت لها السلطة المباشرة في إدارة وتصريف شؤون المناطق الجنوبية الشرقية من الإمبراطورية الآشورية.

كانت أدد - كوبي والدة آخر عاهل بابلي كلدي حكم بلاد الرافدين قبل سقوط بابل بايدي الفرس الاخمينين عام (٥٣٩ قبل الميلاد)، وقد عاشت أكثر من مائة سنة قضتها، كما يخبرنا إبنها نبونائيد في نص مسماري على إحدى المسلتين اللتين أقامهما في معبد الإله سن إله القمر في حران، في التعبد والصلوات والأعمال الصالحة وتقديم النذور وخدمة الإله سن في معبده في حران. وفي حديثه عن والدته يصف نبونائيد

مراسيم وطقوس دفنها ومدى الحزن والأسى الذي عمّ البلاد بوفاتها.

٩. البدايات الأولى لنشوء وتطور دوب الفخاري في العراق القديم

هذه أفكار أولية وضعها الكاتب في مطلع الستينات من القرن الماضي، حول نشأة دولاب الفخاري وتطوره في بلاد الرافدين. وهذه الأفكار كما هي عليه قد تكون مقبولة من البعض، وقد يرفضها عدد من الدارسين الآن لما طرأ على هذا الموضوع وغيره من جديد في هذا الميدان من الدراسات التقنية والعلمية وما تقدمه من أدلة اضافية تلقي المزيد من الضوء على مثل هذا النوع من البحوث الآثارية وعلاقتها بتاريخ التكنولوجيا عموماً. تساءل هنري فرانكفورت في دراسة قيمة بحث فيها أقدم فخاريات الشرق الأدنى القديم عن الموطن الذي نشأ فيه دولاب الفخاري، وهل حدث نشوؤه في موضع واحد ثم انتشر منه إلى بقاع اخرى ؟ أم انه حصل في أماكن مختلفة وفي آن واحد ؟

من المتفق عليه الآن ان دولاب الفخاري قد عُرف لأول مرة في مكان ما من الشرق الأدنى في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. ومن الشائع أيضاً ان هذه الآلة المهمة في صناعة الفخار وتطوره وانتشاره كانت من مبتكرات عصر الوركاء. وهذان الرأيان، وإن كانا لا يخلوان من الحقيقة، الا ان فيهما شيئاً من الإبهام والتعميم.

إن جميع القرائن المتوفرة في الوقتِ الحاضر تدل على ان منشأ دولاب الفخاري كانت في بلاد الرافدين، وأن تلك النشأة لم تحدث فجأة في عصر الوركاء كما كان سائداً، بل جاءت بخطوات بطيئة على عدة مراحل، كما هي الحال تماماً في أي ابتكار واختراع آخر قبل ان يصل مرحلة النضج النهائي، اجتازتها تلك الآلة في عصور سبقت عصر الوركاء حيث وضعت أسس الاختراع الأولى التي قادت إلى اكتمال تطورها في مستهل ذلك العصر. تؤكد ذلك شواهد أثرية جاءتنا من مواقع عديدة من بلاد

الرافدين. ولعل من المفيد قبل الخوض في هذه الشواهد التعريف بتلك المراحل التي اجتازتها الآلة قبل بلوغها إلى ما صارت عليه في مطلع عصر الوركاء.

المرحلة الأولى : وفيها اتَّخذ الفخاري مسنداً خشبياً قرصي الشكل في الغالب يضع عليه كتلة الطين المراد عمل الأناء منها، وهذا المسند الخشبي يوضع عادة على الأرض والصانع يحركه بحرية إلى جميع الجهات، ومن فوقه كتلة الطين. والمفروض ان الفخاري كان قبل استعماله هذا المسند الخشبي يضع كتلة الطين على الأرض مباشرة ثم يبدأ بعمل الطرف المواجه له. وعند الانتهاء منه ينتقل بجلسته إلى الطرف المعاكس لتشكيل النصف الآخر وهكذا ومن الواضح ان هناك خطراً على الأناء فيما إذا حُرّك وهو في حالة رطبة وشديدة الالتصاق بالأرض. وباستخدام القرص الخشبي صار بإمكان الفخاري البقاء جالسًا في محل واحد وتحريك المسند ومن فوقه الإناء إلى جميع الجهات بدون تعريضه للتشويه. وهذه المرحلة في الواقع لا تختلف كثيرا عن أستخدام اليد وليس لها أي نتائج مرئية على شكل الإناء أو مظهره. إلا أنها عدا كونها تسهيلا لعمل الفخاري نفسه، فانها تُعَدّ خطوة أولى قادت إلى مراحل اعقبتها. ولعل العراقيين القدامى عرفوا استعمال هذا المسند قبل عصر العبيد بزمن طويل. ومن الجدير ذكره في هذا الصدد ان فخاري جزر قبرص وكريت وصقلية ما زالوا يستعملون هذا المسند الخشبي في تشكيل أوانيهم الفخارية حتى اليوم.

المرحلة الثانية : في هذه المرحلة ثبت القرص الخشبي على محور (Pivot) مما سهل تدويره بسرعة كما يدور المغزل، مما ادى إلى تمركز كتلة الطين المراد تحويرها إلى إناء، وأصبح الفخارون الآن في

حاجة إلى مساعد لتحريك القرص بحيث يتفرغ هو بكلتا يديه للعمل في الاناء. (الآلة تعرف في هذه المرحلة بالدولاب البطيء) (tournette). وقد عُرفت في النصف الثاني من عصر العبيد. فقد جاءتنا من مواقع مختلفة من جنوبي العراق فخاريات من هذه الفترة مصنوعة على هذا الدولاب. ففخاريات عصر العبيد التي كشف عنها في الطبقات الأربع السفلى (من الطبقة ١٨ الى نهاية الطبقة ١٥) في باطن حفرة الجس العميقة في الوركاء قد صنعت بهذا الدولاب. ومن المعتقد ان القسم السمج من هذه الفخاريات هي التي عملت على الدولاب البطيء بينما الفخاريات الأخرى الجيدة الدقيقة الصنع قد عُملت على الدولاب السريع. ولعله من المفيد الإشارة هنا إلى ان هذه الفخاريات قد وجدت جميعاً في طبقات لم تمتد إليها ايدي العابثين. وفي موقع ريدو الشرقي قرب الوركاء عُثر على نماذج من فخاريات عصر العبيد عملت بواسطة الدولاب البطيء، كما وجد ما يشابهها في موقع حاج محمد في جوار الوركاء أيضاً. وفي موقع تل العبيد نفسه عُثر على فخاريات لعلها من عصر العبيد أعتُمَد في صنعها الدولاب البطيء، أما فخاريات عصر العبيد في أريدو (أبو شهرين) فليس فيها ما يدل على استعمال الدولاب السريع ولكن هناك أمثلة عديدة في النصف الثاني من ذلك العصر عملت كلها بواسطة الدولاب البطيء. كما ان جميع فخاريات عصر العبيد في موقع العقير صنعت على الدولاب البطيء أيضاً.

وهكذا نجد أن الفخار في عصر العبيد لم يكن كله معمولاً باليد، بل ان الدولاب البطيء (وربما السريع احياناً) قد عُرف واستخدم في أماكن عديدة من جنوبي العراق لعمل أصناف كثيرة من فخاريات النصف الثاني من ذلك العصر.

وإن كانت الشواهد على معرفة تلك الآلة غير وفيرة من الشمال في ذلك العصر، إلا ان هناك دليلاً بارزاً يشير إلى استخدام دولاب

العربة في تلك المنطقة منذ ذلك الزمن أو قبل ذلك بقليل، فقد جاءنا من الطبقة الثالثة عشرة من موقع تپه كوره أقدم نموذج معروف لدولاب عربة كبيرة الحجم من الطين. كما جاءتنا كسرة فخارية من موقع الاربجية جوار الموصل عليها بالألوان رسم لدولاب عربة من عصر حلف، وإذا ما علمنا بان دولاب الفخاري هو في الحقيقة تقليد لعمل دولاب العربة تبين لنا بالتالي ان المعرفة بهذه الآلة ليست وليدة عصر الوركاء بل هي من مبتكرات عصر العبيد أو قبله بقليل، وان شمال بلاد الرافدين قد عرفت استخدام هذه الآلة منذ تلك الأزمان ايضاً.

المرحلة الثالثة : اكتمل تطور دولاب الفخاري في هذه المرحلة وتحررت يدا العامل نهائيًا حيث أخذ يحرك الدولاب بقدمه بدلاً من يده. وصارت هذه الآلة تدعى الآن بالدولاب السريع (Fast-Wheel) وأحياناً بالدولاب الطيار (Fly-Wheel) أو دولاب الفخاري الحقيقي (True Potters Wheel). وبهذا نرى أن قدماء العراقيين قد ابتكروا آلتهم هذه وطوروها في النصف الثاني من عصر العبيد حيث تكاملت وظهرت في اوجها في مستهل دور الوركاء حين اخذوا يكثرون من صنع فخارياتهم بواسطتها. وقد أثر استعمال الدولاب السريع في شكل الآنية كثيراً، وهذه ضرورة أملتها طبيعة بناء تلك الأواني على هذه الآلة. وهذا واضح في أشكال فخاريات عصر الوركاء بأنواعها الثلاثة الحمراء والرمادية والآخرى الخالية من الاصباغ. ونشاهد هذا التطور واضحاً في مدينة الوركاء بالذات حيث ينعكس ذلك في طبقاتها غير المشوشة، في حفرة الجس، حين تبدأ فخاريات عصر الوركاء بالظهور في الطبقة الخامسة عشرة ثم تكثر في الطبقة الرابعة عشرة التالية فما فوق. وهذه الفخاريات كما هو معروف معمولة على الدولاب السريع بينما الآخرى في الطبقات الأسفل والتي هي من عصر العبيد عملت على الدولاب

البطىء. وهذا كله خليق بان يجعل من مدينة الوركاء الموطن النموذجي لنشأة دولاب الفخاري وتطوره في عصر العبيد واكتماله في اوائل عصر الوركاء. وبتوصلنا إلى هذه النتيجة يجب ان لا ننسى بأن هناك إلى الشرق من الوركاء، في بعض مواطن الفخار القديم في إيران، قرائن تضارع في القدم مثيلاتها في العراق. ففي موقع السوس (Sussa) عثر في اعالي طبقتها الأولى على فخاريات معمولة بالدولاب البطيء، وكذلك في باكون (Bakun).

كما ان فخاريات سيالك في طبقتها الثالثة (sialk III6-7) قد عملت أيضاً على هذا الدولاب. وهذه الفخاريات كلها تعود إلى اواخر عصر العبيد ومطلع عصر الوركاء.

ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن هنالك تاثيراً إيرانياً في الأمر. لأن أقدم دولاب عربة كما رأينا قد عرف في العراق، كما ان تأثير فخاريات عصر العبيد العراقية على مثيلاتها الإيرانية لا ينكره باحث. وقد تكون معرفة الإيرانيين بدولاب الفخاري جاءتهم من جنوبي العراق عن طريق السوس ثم إلى غيرها من مواطن الحضارة الإيرانية القديمة في عيلام.

١٠. قراءة في المضمون القانوني للشرائع العراقية القديمة.

نبذة تاريخية

في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، على أيام دول المدن السومرية في بلاد الرافدين، وضع العراقيون الأوائل أسس الكثير من المعارف والفنون والآداب كما وضعوا أسس اقدم أنظمة الحكم والسياسة والقضاء المعمول بها الآن. وفي مدن بلاد سومر ظهرت، ولأول مرة في التاريخ، حدود الملكية الشخصية ووضحت العلاقات الإقتصادية بين الفرد والدولة وبين الأفراد أنفسهم. كما برزت تشابكات العلاقات

الإجتماعية بأبعادها المختلفة. وقد اقتضى هذا كله البدء بإرساء قواعد لإصلاحات إجتماعية وإقتصادية في وقت مبكر من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

كانت هي النواة الأولى للتشريعات القانونية في حياة البشر والتي انبثقت بهيئة قانون متكامل في الربع الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد، وضعها العاهل السومري اور – نمو مؤسس سلالة اور الثالثة السومرية (٢١١٣-٢٠٠٦ قبل.الميلاد). وقد اكتملت التشريعات العراقية القديمة وبأوضح مظاهرها القانونية في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد في الشريعة الشهيرة للعاهل البابلي العظيم حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل. الميلاد) التي ضمت ٢٨٢ مادة قانونية غطت الكثير من أوجه النشاط الإجتماعي والإقتصادي والمهني والعسكري في المجتمع البابلي الموحد.

تُعَدُّ إصلاحات العاهل السومري اورو – كاجينا (٢٣٥٠-٢٣٥٣ قبل. الميلاد) حاكم دولة مدينة لكش اقدم اصلاحات إجتماعية وإقتصادية معروفة في التاريخ. وقد عُثر على أربع نسخ من هذه الإصلاحات مدوَّنةً على رقم من الطين باللغة السومرية وبالخط المسماري. ومن أبرز ما جاء فيها تحريمه على المرأة من اتّخاذ أكثر من زوج واحد، وفرض عقوبة الموت على من تخالف ذلك. كما منع الأغنياء والكهنة والمرابين من استغلال الفقراء. ومنع الكهنة من تقاضي ضريبة على مراسيم دفن الموتى. وكلمة الحرية (أمارتو باللغة السومرية) ترد لأول مرة في التاريخ في وثيقة إصلاحات هذا العاهل السومري الإنساني.

تعقب إصلاحات اورو – كاجينا في الزمن مجموعة قوانين اور – نمو المدونة باللغة السومرية أيضاً والتي تتألف من ٣١ مادة قانونية تعالج عدداً من المسائل الإجتماعية والإقتصادية. واكتفى المشرع اور – نمو بفرض غرامة على المدان بأية جريمة بدلاً من العقوبة البدنية.

ومن مطلع الألف الثاني قبل الميلاد وصلتنا مجموعة ثالثة من القوانين

باللغة السومرية، وتنسب إلى الملك الخامس من سلالة ايسن الآمورية (العهد البابلي القديم) لبت - عشتار (١٩٣٤-١٩٢٤ قبل.الميلاد). وقد دُوِّنت على اربعة رقم من الطين بالخط المسماري. ولقانون لبت - عشتار مقدمة قريبة الشبه بالمقدّمة التي تفتتح بها شريعة حمورابي، يشير فيها واضعها إلى ان الإلهين أنو (إله السماء) وإنليل (اله العواصف والهواء) هما اللذان أجلساه على العرش. وتضمُّ الشريعة ٣٧ مادة قانونية تعالج عدداً من القضايا الإقتصادية وشؤون الأسرة والرقيق.

ومن أقدم القوانين المدوَّنة باللغة الأكدية المكتَشَفة حتى الآن ما يُعرف بشريعة اشنونا، والمكتشَف أجزاء منها في موقع تل حرمل (مدينة شادوبم البابلية) في بغداد الجديدة. إنها تسبق شريعة حمورابي بنحو قرنين. ويتضمن المتبقي من شريعة أشنونا على مقدمة و٦١ مادة قانونية عالجت جوانب من الحياة الإجتماعية والإقتصادية. وواضع هذه الشريعة هو الملك بلالاما (١٩٩٢ قبل.الميلاد)، أحد ملوك دولة اشنونا البارزين. ودولة اشنونا هي إحدى الممالك الآمورية الست التي قامت في بلاد الرافدين في أعقاب انهيار سلالة أور الثالثة في نحو سنة (٢٠٠٦ قبل.الميلاد).

اشتهر العاهل البابلي حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل.الميلاد) بأعمال جليلة بارزة في ميدان الإدارة والسياسة والتنظيم والثقافة والتعليم. وتأتي في مقدّمة هذه الأعمال جمعه وتوحيده للقوانين وإصدار شريعة شاملة عالج فيها مختلف انشطة المجتمع البابلي في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. ودُوّنت الشريعة باللغة البابلية وبالخط المسماري على مسلة من حجر الدايورايت الأسود بارتفاع مترين. وقد أقام حمورابي أكثر من نسخة من هذه المسلة في أمهات مدن بلاد الرافدين كبابل وسبار وربما نفر وأور وغيرها. وتتألف الشريعة من ٢٨٢ مادة قانونية تعد المصدر التاريخي الأول للعديد من القوانين الوضعية القديمة. ويفتتح حمورابي

شريعته بمقدمة طويلة يبدأها بما دفعه إلى وضع هذه الشريعة، ثم ينتقل إلى تمجيد الآلهة التي طلبت إليه وضعها واختارته لنشر العدل في البلاد :

أنا حمورابي الراعي الصالح الورع
الملك القدير الذي ينشر سلطانه على الجهات الأربع
الذي يبهج قلب مردوخ إلهه.
أنا الملك المتأمل المطيع للإله شمش العظيم
أنا حمورابي محبوب الإلهة عشتار
عندما أرسلني الإله مردوخ لقيادة سكان البلاد
في الطريق السوي ولإدارة البلاد...
وضعت القانون ودستور العدالة
بلسان البلاد لتحقيق الخير للنالس...

وختم حمورابي شريعته بمجموعة من الأقوال بدأها أيضاً بتمجيد عهده وأنهاها بالدعاء على من يخرب أو يحرف هذه المسلة وإنزال لعنات الآلهة عليه

أنا حمورابي الملك الكامل...
بالسلاح الفتاك الذي وهبني إياه
الإله زبابا والإلهة عشتار
وبالرأي الذي هداني إليه الإله أَنكي
وبالقدرة التي منحني إياها الإله مردوخ
إستأصلتُ دابر العدو من الشمال إلى الجنوب
وأنهيت الحرب وأرحت البلاد
وجعلت سكان المدن ينعمون بالصفاء والهناء
... وإذا لم يتدبر ذلك الشخص كلماتي التي كتبتها على مسلتي

وتجاهل لعناتي ولم يخشَ لعنات الآلهة
ومحا القوانين التي شرعتها
وأبطل أحكامي وغيَّر شرائعي
ومحا إسمي المكتوب وكتب إسمه
عسى الإله انليل أبو الآلهة الذي دعاني إلى الحكم
أن يجرّد ذلك الشخص ملكاً كان أو أميراً أو حاكماً
من أبهة الملك ويحطم صولجانه ويلعن طالعه
واختفاء إسمه وذكراه من البلاد
عسى أن تجعل الآلهة جيشه كومة من الجثث فوق السهل.

هذا وقد عالجت شريعة حمورابي في موادها الـ ٢٨٢ مختلف شؤون الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والمهنية.

فقد اختصت المواد ١-٥ بالقضاء والشهود، والمواد ٦-٢٥ بالسرقة والنهب، والمواد ٢٦-٤١ بشؤون الجيش والخدمة العسكرية، والمواد ٤٢-١٠٠ بالحقول والبساتين والبيت، والمواد ١٠١-١٠٧ بالتعامل في السوق ودكاكين التجار، والمواد ١١٢-١٢٦ بالبيع، والمواد ١٢٧-١٩٥ بشؤون العائلة وحقوقها وعلاقات أفرادها فيما بينهم، والمواد ١٩٦-٢٢٧ بعقوبات التعويض وغرامات نقض الاتفاقات والعهود والتعهدات، والمواد ٢٢٨-٢٤٠ بالأسعار وأجور البناء للبيوت والقوارب وأثمانها، والمواد ٢٤١-٢٧٧ بأجور الحيوانات والأشخاص وأخيراً المواد ٢٧٨-٢٨٢ بتعيين حدود الرق وحقوق العبيد وواجباتهم.

في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، كان للآشوريين جالية آشورية تجاريه كبيرة تقيم في منطقة كبادوكية من آسيا الصغرى تتعامل بأمور البيع والشراء والاستيراد والتصدير من بلاد آشور (الوطن الأم). وقد كان لهذه الجالية الكثير من الحرية في التعامل التجاري والحركة كما

كان لها بعض الحقوق والاصطلاحات القانونية والقضائية. وهذا يتَّضح من العبارة التالية التي جاءت في الوثائق القانونية لهذه الجالية :
لقد حسم الكاروم قضية قضائية

إن اسم الجالية الآشورية باللغة الآشورية كان الكاروم. لقد عثر في مخازن هذه الجالية على عدد من الرقم الطينية مدوَّنة بالخط المسماري واللغة الآشورية أُطلق عليها اسم وثائق كبادوكية، واقتصرت على قوانين تنظيم العقود والتجارة ومعاملات البيع والشراء. ويعود زمن هذه الوثائق القانونية الآشورية في آسيا الصغرى إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.

اكتشفت بعثة التنقيب الألمانية، التي نقبت في مدينة آشور (قلعة الشرقاط) في السنوات ١٩٠٣-١٩١٤ تسعة رقم من الطين مدوَّنة بالخط المسماري واللغة الآشورية تضمُّ موادَّ قانونية يرجع تاريخها إلى الربع الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد. وتُعَدّ هذه القوانين المكتَشَفة في مدينة آشور أبرز وثيقة تاريخية قانونية اكتُشفت بعد شريعة حمورابي. وإبرز ما حوته من موضوعات يتناول شؤون الزواج وحق الملكية وعقود الرهن والجرائم. والرقيم الأول من هذه الرقم التسعة يضم ستين مادة اختصت بشؤون النساء والجرائم الواقعة عليهن أو منهن.

وأخيراً جاءنا من العهد البابلي الحديث (الكلدي) رقيم طيني ضَمَّ خمس عشرة مادة قانونية تعالج غالبيتها مسائل تختص بالحقول وإدارتها وشؤون الأرواء والرقيق والنساء وقضايا الزواج والطلاق والإرث.

الفصل الثاني
نشوء العمل الآثاري في العراق وتطوّره

١. البداية

رأيتُ أن أبدأ هذا الفصل ببعض التعاريف والمصطلحات الأساسية التي أجد من المفيد أن يطّلع عليها القارىء قبل دخوله في صلب الموضوع. إذ إن هذه المصطلحات ستتكرر باستمرار في ثنايا هذا القسم من الكتاب. ولأبدأ بتعريف موجز لكلمة التراث (Heritage). لأن هذا المصطلح يعني أموراً كثيرة قد تنطبق على مخلّفات الماضي ونتاجات الحاضر معاً. والتراث في اللغة كلمة مشتقة من الفعل الثلاثي ورث أي تلقى تركة الآباء. ويقال ورث ويرث وإرثاً، وتوارث القوم أي ورث بعضهم بعضاً، ثم ان المعنى إزداد نطاقه إتساعاً في حركة ممتدة من الخاص إلى العام، فصار التراث يعني تركة الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة. أي موروثاتهم أو معطياتهم التي يتناقلها جيل عن جيل، أو ما يتركه السلف للخلف في الإطار التاريخي. وبهذا نرى ان المفهوم المعاصر للتراث لا ينفصل عن أصوله اللغوية، فهو تعامل مع تركة الأجيال الماضية، وتداول لهذه التركة بين الأجيال. وهو أيضاً تمسك بهذه التركة وعدم النزوع إلى مفارقتها أو التخلي عنها أو تركها عرضةً للنسيان. والتراث لغة يمكن أن يعني الحضارة (Civilization) المتوارثة عن الأجيال بكافة آفاقها وميادينها المادية والثقافية، أي المعنوية، باعتبار ان مصطلح الحضارة يتضمن أيضاً هذين الجانبين الأساسيين، والتراث اصطلاحاً يمكن ان

يكون الثقافة (Culture) المتناقلة بين الأجيال. وبما ان الثقافة هي المعيار الذي يميز بين حضارات الأمم والشعوب ويمنحها قسماتها الخاصة وسماتها الذاتية بما تحويه من عقائد وأفكار وفلسفات ورؤى وعادات وتقاليد وجماليات، فإننا نستطيع القول إن التراث هو البحث في خصوصيات الأمم والشعوب، وربما أيضاً في خصوصيات الوحدات الجغرافية الأصغر مساحة كالمدن ضمن وحدات جغرافية أكبر كالأقاليم والأقطار، وهو دراسة الثقافات على امتداد هذه الوحدات الجغرافية. إن استمرارية التراث تعني دوام الصلة أو الرابطة بين الماضي باشكاله المميزة وروح معاصرة متجددة.

أما الآثار (Antiquities) فهي مخلفات الماضي مما صنعته يد الإنسان أو أنتجه فكره على مرّ العصور، كالمباني والفنون والمعتقدات والأساطير والملاحم والقصص والأشعار. وقد يكون مصطلح الآثار مرادفاً لمصطلح التراث في هذا الجانب، الا إذا أردنا نحن عن قصد التمييز بينهما للفصل بين النشاط الآثاري والنشاط التراثي لدينا، فينصبُّ مفهوم التراث عندئذ على معطيات القرون الأخيرة من الزمن، كما هو عليه الآن في بعض دوائرنا المعنية بهذه الأمور.

وعلم الآثار (Archaeology) هو علم يدرس ماضي الإنسان على سطح هذا الكوكب ويُعنى بدراسة وتحليل مخلفات هذا الماضي مادية كانت أم فكرية، فيرينا بشكل متدرج التغيرات التي طرأت على ماضي البشرية ونشوء المعارف والتقنيات ونموها وتطورها عبر العصور. ويشمل ميدان علم الآثار في حدوده الواسعة ما نصطلح على تسميته بالمخلفات الأثرية. والآثاري (Archaeologist) هو الشخص المتخصص بدراسة علم الآثار، بما فيه التنقيب عن الآثار، والحضارات واللغات القديمة.

أما التراثي فهو الإنسان المهتم بالتراث بانواعه. فقد يكون آثارياً

أو معمارياً أو فناناً أو أديباً أو كاتباً، أو أي شخص آخر مهتم بدراسة التراث، شريطة ان يتعامل مع معطياته ويتذوقها ويغوص في مكنوناتها ويدرس اصولها ويتحسس قيمها الجمالية. ومع هذا فإننا نرى أن الآثاري المتمرس الحاذق بحكم تخصصه واشتغالاته وتعامله المستمر مع مخلفات الماضي بكل أشكالها هو الإنسان المرشَّح في المقام الأول للتعامل مع أشكال التراث المختلفة، ولاسيّما المادية منها، إذ إنه هو وحده القادر حسب طبيعة تخصصه، على تتبع طراز هذه المعطيات وأنماطها وعناصرها وتتبع أصولها وبداياتها في النماذج الحضارية الأولى لأمة من الأمم. والآثاري بعد هذا ينظر إلى المخلفات التراثية على أنها امتداد طبيعي لحضارات الماضي للأمة، وانه تطور حتمي فيه شيء من المعاصرة يتلاءم مع حاجات الحقب الزمنية اللاحقة التي أنتج فيها. والآثاري يرى كذلك في العناصر الفنية والزخرفية الظاهرة في لوحات وأعمال الفن التشكيلي المعاصر أو تلك الداخلة في تفاصيل بعض المباني والعمائر القائمة، إستمراراً طبيعياً لعناصر فنية وزخرفية كانت معروفة في أزمان موغلة في القدم في حضارات الأمة المتعاقبة. كما يتلمس الآثاري كثيراً من المعتقدات والتقاليد والعادات والحكايات والرموز الشعبية الموروثة والمتداول بعضها اليوم الأصول الأولى لها في معتقدات ورموز الحضارات المتعاقبة للأمة على ساحة الوطن الكبير. والآثاري، بعد هذا كله، يرى في المخلفات التراثية مادة ثمينة حية تعينه في فهم جوانب من الماضي المندرس، وأستعادة ذلك الماضي وبعثه للحياة اعتماداً على تلك النماذج من التراث. كما يستعين الآثاري بنصوص تاريخية وروايات وأشعار متوارثة للتحقق من أماكن مندرسة في مدن ومستوطنات تحولت إلى أكوام من الأنقاض والتلول عبر الزمن.

٢. التنقيب عن الآثار بين الهواية والنبش والعلم المنظم

علم الآثار بمفهومه الواسع، كما رأينا ذلك أعلاه، هو دراسة ماضي الإنسان ومخلفاته المادية والفكرية. والمهمة الأساسية لعالم الآثار أو المنقّب الآثاري، تنصبُّ في البحث عن تلك المخلَّفات ودراستها دراسة تحليلية ومقارنة واستنباط حقائق ملموسة منها عن الإنسان وبيئته وأنماط حياته الإقتصادية والإجتماعية والفكرية والعقائدية والفنية. وبكلمة أخرى ان هذا النوع من المعرفة يبحث في قصة الإنسان على سطح الأرض كما تكشف عنها مخلفاته التي تركها وراءه، وإن عملية التنقيب عن الآثار هي الحلقة المركزية في مضمار البحث الآثاري وبدونها لا يمكن لدارسي ماضي الإنسان، أي المؤرخين، ان يدوّنوا التاريخ. ويسعى عالم الآثار في عمله إلى تحقيق أمرين أساسيين :

أولهما : الكشف عن مخلَّفات الماضي بأفضل الأساليب العلمية وأحدثها.

وثانيهما : دراسة وتحليل هذه المخلفات وتقديمها للمؤرخ مادة خام لكتابة التاريخ.

لقد كان الغرض من التنقيب عن الآثار في القرن التاسع عشر جمع ما أمكن جمعه من القطع الفنية واللقى بأقل ما يمكن من الوقت والجهد والمال، دون الإلتفات إلى التدقيق في معاثر تلك اللقى والعناية برسم وتصوير الأماكن التي وُجدت فيها، وعدم المعرفة بتسلسل تواجدها الطبقي والزمني. فقد كان التنقيب عن الآثار عبارة عن عملية نبش وحفر كيفما اتفق لجمع اللقى والكنوز المطمورة في باطن الأرض وغيرها من الرموز التاريخية والفنية لحضارات الماضي دون الإلتفات إلى الدلائل الأثرية وما تنطوي عليه من تفسيرات علمية عن الماضي وأحواله. ولنا في لايارد في العراق وبيلزوني في مصر وشليمان

في تركيا واليونان وغيرهم في المنطقة العربية والعالم خير أمثلة على حالات النبش ونهب الكنوز الأثرية وسرقتها لبيعها لمتاحف الغرب وهواة التحف فيه. وقبل حلول القرن العشرين بقيت الامور على هذه الحال حتى بدأ بعض المشتغلين بالدراسات القديمة في أوربا في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين يهتمون بالدلائل الأثرية وتفسيراتها وبالطبقات البنائية وتعاقبها بجانب اهتمامهم باللقى ذاتها.

فظهر حينذاك ما يُعرَف بمصطلح التعاقب الطبقي (Stratigraphy) وأهميته في تاريخ علم الآثار. وكان من أوائل المهتمين بهذا الأسلوب العلمي في التنقيب ودراسة اللقى وأبرزهم الجنرال بت ريفرز في أنكلترا والسير فلندربتري في مصر والشرق الأدنى. ومع هذا فقد بقي العمل الآثاري الميداني، أي التنقيب، في معظم جوانبه، معتمداً على المهارة اليدوية والعين المتفحصة والإستنتاج الذكي مستعيناً بادوات يدوية بسيطة. إلا أنه على مرّ الزمن ابتُكرت أجهزة ووسائل تقنية حديثة استخدمها المنقب الآثاري في عملياته الميدانية وفي بحثه عن الماضي ودلائله المادية، فكانت له عوناً كبيراً في السنوات الأخيرة. وقد شهدت السنوات القليلة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، تعاوناً كبيراً بين الآثاريين وعلماء الطبيعة والرياضيات والذرة، مما فتح آفاقاً جديدة أمام البحث الآثاري في مراحله الرئيسة الثلاث : المسح، والاستكشاف والتنقيب والتحري الميداني والتحليل والمعالجة المختبرية.

من المتعارف عليه بين المشتغلين في حقل الآثار ان أفضل الاستكشافات والمسوحات الآثارية هي ما يتم منها سعياً على الأقدام. إلا أننا يجب أن لا ننسى ما تقدمه الخرائط بأنواعها حديثها وقديمها، وكذلك صور المسح الجوي، من مساعدات قيمة وإيضاحات وافية.

فإن معظم الخرائط الحديثة ذات المقياس الكبير عليها توزيعات

واضحة للمناطق المزروعة والأخرى الخالية من الزرع. تظهر عليها أيضاً بقاع ومرتفعات وطرق ومستوطنات وأنهار وقنوات ومدافن قديمة بالإمكان التثبت منها على الأرض. كما ان الخرائط القديمة التي وضعت في أوائل القرن العشرين، أو نحو ذلك ذات فوائد كبيرة للعمل الآثاري. فهي تظهر ما كانت عليه المنطقة المطلوب دراستها على الطبيعة، والتي تغيرت اليوم بفضل الزراعة والبناء والتطورات الحديثة في مجالات الحياة المختلفة.

لقد ابتُكرت أجهزة آلية عديدة على مرّ السنين صارت ذات نفع كبير للعمل الآثاري الميداني، فهي تقلل من النفقات والجهد وتختصر الزمن أيضاً. إلا أن هذه الأجهزة ومهما بلغت درجة دقتها فانها لا تقوم وحدها بالحفر الواسع، بل تُستخدم فقط لإجراء تنقيب اختباري سريع أو فحص كهربائي أو مغناطيسي لبقع معينة من الأرض أو الموقع الأثري المزمع فحصه أو إجراء دراسات إستطلاعية سريعة فيه أو تحر آثاري أولي قبل البدء بأعمال التنقيب المنظم الواسع وذلك للتعرف على ما تبطنه تلك الأماكن من بقايا بنائية ولقى أثرية والتأكد من كل ذلك قبل القيام بوضع برنامج واسع للتنقيب في ذلك الموقع. ان اقتطاع حفرة التنقيب الإختبارية (Sounding) بالعمل اليدوي المضني الطويل يستغرق وقتاً وجهداً، قد يشغل حيّزاً كبيراً من سطح الموقع بالإمكان التعويض عنه بجهاز آلي على شكل مثقب (Drill) يحمل في مؤخرة سيارة حقلية ويعمل بمولد كهربائي. وهذا الجهاز هو نموذج مصغر لأجهزة التنقيب عن النفط العملاقة. وبإمكان ذراعه الأنبوبية التغلغل في باطن الأرض أو الموقع الأثري إلى عمق يتراوح بين ١٥-٢٠ متراً. ورأس ذراع هذا الجهاز الأنبوبية النازلة في باطن الموقع ينغرز في طيات الموقع المطلوب فحصه ليستخرج في كل مرة حمولته من اللباب الذي

هو عبارة عن كمية من ركام المستوطن ومواده الأثرية المتنوعة. إن عمق المسافة التي ينغرز فيها رأس الجهاز يتحكم فيها الشخص الفاحص (الآثاري) نفسه إذ بالامكان ان يكون عمق كل غرزة قدماً واحدة أو قدمين. وهكذا بتكرار هذه العملية نزولاً إلى أعماق المستوطن أو التل الآثري أو البقعة من الأرض المطلوب فحصها آثارياً يمكن الحصول على صورة واضحة لما تضمه هذه البقعة من دلائل ولقى أثرية. ان مثقب التنقيب (Drilling Machine) هذا ذو فائدة كبيرة في فحص السهول الغرينية الواسعة كسهل وسط وجنوبي العراق الرسوبي ودلتا النيل وحوض نهر السند وذلك للبحث عن مواقع ومخلفات الاستيطان البشري التي قامت في هذه السهول والتي دفنت بقاياها أسفل ترسبات وطمى الأنهار وبعدة أمتار.

هذا وهناك جهازان آخران لهما فائدة كبيرة في العمل الآثاري الميداني أيضاً. يعرف أحدهما بمقياس المقاومة (Resistivity Metre) الذي يستند إلى القاعدة المعروفة بأن الأرض عامل مهم في التوصيل الكهربائي. ولما كانت مكّونات التربة غير متجانسة وما تحويه من مواد كالصخور والتراكمات الاخرى لها توصيل كهربائي مغاير. لذا فعند ربط أي مجس بمقياس وغرزه في الأرض فإن المقياس سيسجل مقداراً معيناً من الموجات الكهربائية في أرض إعتيادية. إلاّ ان هذا المقياس نفسه سوف يسجل قراءة مغايرة إذا ما غرز مجسه في كتلة صلدة من الحجارة أو الطابوق، أو إذا ما غرز في خندق مملوء بتراب هش. إن جهازاً غير معقد كهذا ذو فائدة كبيرة في التعرف إلى امتدادات ونهايات بعض الجدران والأبنية دون الحاجة إلى القيام بالتنقيب.

والجهاز الآخر هو مقياس المغناطيسية (Magneto Metre)، وهو جهاز أكثر تعقيداً من سابقه، وفائدته كبيرة في البحث عن لقى

وآثار من الحديد والمعادن الأخرى تكون مطمورة في المدافن أو في ركام الأبنية. ومقياس المغناطيسية هذا جهاز حساس جداً بإمكانه تسجيل أي شذوذ أو تباين في الحقل المغناطيسي الاعتيادي لمنطقة ما. وحساسية الجهاز العالية هذه قد يكون مبعثها ان القراءات التي يعكسها فيما إذا كان الشخص الذي يعمل عليه يحمل في جيوبه ادوات معدنية كالمفاتيح، أو حتى إذا ما مرّت بالقرب منه سيارة أو قطار، أو كانت هناك أعمدة واسلاك كهربائية في الجوار.

لقد صارت مختبرات أغلب المتاحف والمؤسسات الآثارية في العالم الآن لا تكتفي بمعالجة ظاهر الأثر بل استخدمت كاميرات وأجهزة التصوير الشعاعي للتعرف إلى مادة الأثر ومكوناته وحدود جسمه الأصلي بعيداً عما يحمله من صدأ وتراكمات خارجية وشوائب. وعرفت هذه المختبرات طرقاً مختلفة لتحليل المواد العضوية للوقوف على أزمانها وبالتالي معرفة أزمان الموقع أو الطبقة البنائية التي جاءت منها . ونظراً إلى ان الدراسات المختبرية تؤلّف بحد ذاتها موضوعاً قائماً بذاته قد يطول شرحه هنا. لذا سأقف عند مثلين فقط يوضحان الاستعانة بالعلم في استنطاق المواد الأثرية.

أولهما : تحليل كاربون ١٤ المشع (c14) وهو أكثر أساليب التاريخ المطلق انتشاراً، الا أنه ذو كلفة عالية ويتطلب مختبراً خاصاً به. وتحليل كاربون ١٤ المشع يعتمد على تحليل المواد العضوية المكتشفة خلال عملية التنقيب لمعرفة مقدار ما تبقى من الكاربون المشع في تكوينها بعد توقف الحياة في تلك المادة العضوية في الزمن القديم. والكاربون المشع هذا ينتج من تفاعل الأشعة الكونية مع النتروجين في طبقات الجو العليا وتأخذه النباتات من غاز ثاني اوكسيد الكاربون الذي يدخل جسم الكائن الحي عن طريق الاستهلاك النباتي، ويبقى محافظاً على كميته

في الكائن العضوي ما دام حياً. غير أنه عند موت هذا الكائن العضوي تبدأ كمية الكاربون فيه بالتناقص بسبب عودتها إلى طبيعة. وقد علم بالدراسة ان ذرات الكاربون المشع تصل إلى نصف كميتها في الكائن العضوي الفاقد للحياة بعد ٥٥٦٨ سنة على موته، أي توقف حياته وهكذا. وعلى الآثاري عند جمعه للمواد العضوية من طيات الموقع الآثري بذل عناية خاصة خشية تلوثها وتعرضها طويلاً للمحيط الخارجي، إذ إنها بهذا ستعطي عند تحليلها بطريقة كربون ١٤ المشع قراءات مغايرة للحقيقة. ان المواد العضوية الصالحة للحصول على تاريخ مطلق هي الخشب القديم المتفحم والحبوب والجلود والعظام والقرون والأصداف. كما أن العظام المعرضة لتغيرات كيمياوية أثناء التحجر لا تصلح لهذا الغرض، إذ ان نسبة الكاربون المشع فيها عرضة للتغير، في حين أنه يمكن الإستفادة من العظام المحروقة وتلك التي انطمرت في مكان جاف لم تصله الرطوبة ابداً.

والمثل الثاني : يتلخّص بإجراء تحليلات كيمياوية على العظام لمعرفة مقدار الفلورين المتبقي فيها، إذ ان العظام المطورة تتعرض عادة لتفاعلات كيماوية مع معادن التربة ورطوبتها مما يؤدي إلى تحجر فيها وذلك بان تضاف المواد المعدنية اليها أو تحل محلها بالتدريج. ويتم التحجر بواسطة مادة الفلورين الموجودة في المياه الجوفية. إذ تتفاعل هذه المادة مع بلورات هيدروكسيد الأبتايت التي لا تتأثر بالتآكل أو الامتصاص أو التفاعل مع معدن آخر. هذا وان العظام المدفونة في التربة لمدة طويلة من الزمن تحوي نسبة أعلى من الفلور – ابتايت إذا ما قورنت مع عظام مدفونة في زمن أقصر.

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى ان علم الآثار ككل علم دائب على الاستفادة مما تقدمه التكنولوجيا الجديدة من وسائل علمية، فقد بدأت

مؤخراً تغذية أجهزة الكومبيوتر بالمواد والمعلومات والتوارخ المطلوبة ليستعين بها الآثاري في استخلاص نتائج ومقارنات سريعة عن القضايا الآثارية التي يعالجها ومنها قضايا الكتابات المسمارية وإعطاء قراءات سريعة لبعض نصوصها عند تغذية جهاز الكومبيوتر بالمادة المطلوبة. وكذلك الدراسات الاحصائية لآلاف المواد الصوانية من الآلات الدقيقة في العصور الحجرية واعطاء نتائج سريعة بشأنها. هذا وان المستقبل سيأتي بالمزيد من المبتكرات العلمية التي ستساعد الآثاري كثيراً في بحثه عن حقائق الماضي وتسهل له تقديمها للدارس والمؤرخ بثقة أكبر بعيداً عن التكهن.

٣. التنقيب عن الآثار في العراق في القرن التاسع عشر

إرتبط التنقيب عن الآثار في العراق، وفي بقية أقطار المنطقة العربية، منذ بداياته الأولى، بأطماع الدول الأوربية بثروات المنطقة وموقعها الحيوي، كما ارتبط برغبة تلك الدول في إغناء متاحفها ومجاميعها الفنية بنتاج حضارة العراق والوطن العربي.

لهذا فقد كان في بداياته تلك ضرراً جسيماً أصاب أبرز مواطن الحضارة في العراق وبقية الأقطار العربية. إذ نقل الكثير من نتاجات حضارتنا ورموزها الفنية خلال تلك الفترة إلى أمهات متاحف أوربا والولايات المتحدة الامريكية والدولة العثمانية. الا أنه باستكمال إستقلال العراق وامتلاكه لآمر نفسه، إنتقلت بالتدريج السيطرة على شؤونه الآثارية وعمليات التنقيب فيه إلى أيدٍ وطنية عملت بجد ومعاناة وصبر لتكوين مدرسة عراقية للآثار ذات مفاهيم وتقاليد ومنطلقات وطنية وقومية نجد ثمارها اليوم حيث ملأ أبناء هذه المدرسة من العراقيين متاحف مدننا وجامعاتنا بآثار مخلفات حضارة العراق على مرّ العصور،

كما نجدهم يسهمون بنشاط ومثابرة في إغناء المكتبة الآثارية العربية بالبحوث والدراسات الأصيلة في مختلف فروع المعرفة الآثارية.

في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كانت أطماع وصراعات الدول الإستعمارية وبالأخص الدولتين العظميين آنذاك أنكلترا وفرنسا تتركز على الهند ومنطقة الشرق الأدنى ومصر وبقية الشمال الأفريقي العربي، تلك المنطقة الغنية بمواردها الطبيعية وبموقعها الاستراتيجي حيث يمر عبرها الطريق القصير المؤدي إلى القارة الهندية والشرق الأقصى.

فحاول نابليون احتلال مصر، إلا ان نلسون دمَّر إسطوله في معركة النيل عام ١٧٩٨. وبهذا فشلت الحملة الفرنسية عسكرياً في مصر، لكنها حققت لفرنسا نجاحاً أكثر ديمومة وأكبر أثراً. فقد كانت قد رافقت حملة نابليون إلى مصر بعثة علمية تضمُّ اختصاصات مختلفة كان من أبرز أعمالها دراسة وتوثيق جغرافية وآثار مصر. وكان من بين أعضائها البارزين شامبليون الذي استطاع ان يقدم للعالم مفتاحاً لحل رموز الكتابة الهيروغليفية بواسطة حجر رشيد الذي عثر عليه قرب مدينة الاسكندرية أثناء تشييد ثكنة عسكرية.

وكان هذا الحجر يحمل نصاً واحداً باللغات الاغريقية والقبطية والهيروغليفية. وقد تمخَّضَ عن أعمال البعثة العلمية الفرنسية تلك تأسيس أول معهد بحوث اجنبي يقام على الأرض العربية. وبعد هذا سعت الدولتان، أنكلترا وفرنسا، إلى تحقيق مصالحهما الحيوية في المنطقة بأساليب وطرق بعيدة عن الصدام المسلح. فقامتا بتعيين ممثلين دبلوماسيين وتجاريين لهما في أمهات مدن المنطقة العربية. وكان اختيار هؤلاء الممثلين يتمُّ على أساس الثقافة العالية والإطلاع الواسع على حضارة الشرق وعاداته ولغاته وتاريخه وطوائفه الدينية. كما كانت

شركة الهند الشرقية البريطانية تحتفظ لنفسها بمقيمين دائميين في أبرز مدن الخليج العربي والعراق. فقد عينت أول مقيم لها في بغداد عام ١٨٠٧، وكان هذا شاباً طموحاً يبلغ من العمر أحدى وعشرين سنة، ويدعى كلوديوس جيمس ريج. وكان ريج يتقن اللغات العربية والفارسية والتركية، وقد بقى في منصبه في بغداد حتى وفاته بمرض الكوليرا عام ١٩٢١. مارس ريج هوايته المفضلة في دراسة تاريخ وآثار مدن العراق القديمة كما قام ببعض التنقيبات في مدن آشور وبابل التي أجرى ببعض بقاياها انفاقا عثر فيها على العديد من كسر الطابوق المدون بالخط المسماري كما عثر على عدد من قطع حجرية مزينة بزخارف وعلى ضريح من الخشب، وكانت أبرز أعمال ريج في بابل خارطته الطوبوغرافية للمدينة التاريخية والتي صارت مرجعاً مهماً لمن أعقبه في التعرف إلى البقايا التاريخية الشاخصة لمدينة بابل. وقبل وفاته بسنة واحدة، زار ريج منطقة كردستان في شمال العراق، ومرّ بالموصل واطّلع على بقايا مدينة نينوى الآشورية، واستطاع الحصول على بعض قطع النحت من المرمر وعدد من الطابوق المدون بالخط المسماري أرسلت كلها إلى المتحف البريطاني بعد وفاته، فكانت بهذا أول آثار آشورية تصل أوربا في ذلك الحين.

لم يكتفِ الإنكليز بما كان يقدمه لهم ممثلوهم التجاريون والدبلوماسيون من معلومات عن البلاد وأحوالها، بل كانوا يرغبون في المزيد من التفاصيل الدقيقة عن جميع أنحائها ومدنها ومجاري المياه فيها. فأمر الملك وليام الرابع بقيام بعثة مجهزة بأفضل الوسائل لإجراء مسح شامل لمجرى نهري دجلة والفرات حتى مصبِّهما للتعرف إلى امكانية الملاحة فيهما للوصول إلى الهند، وكذلك لإيجاد أسواق عراقية للبضائع الإنكليزية. وكانت البعثة بقيادة الكولونيل جسني، حيث صارت

تعرف ببعثة جسني. وقد استغرق عملها السنوات (١٨٣٥-١٨٣٧)، وكان من بين أعضائها البارزين الطبيب الجراح إنسورث الذي كان آثارياً هاوياً وخبيراً بالجيولوجيا.

فقد جمع معلومات واسعة عن طوبوغرافية وآثار المناطق التي مرت بها البعثة، كما دوَّن الكثير من الملاحظات التي فسرها في ضوء تضلعه بالتوراة واطّلاعه الواسع على كتابات مؤرِّخي اليونان والرومان والعرب. وكان لكتابات كل من ريج وانسورث وبكنكهام وغيرهم من الرحالة الأوروپيين الأوائل الآثر الكبير في تطلع العديد من الأوساط الأورپية لآثار المنطقة العربية وإقبالها على آثار المنطقة العربية واقتنائها ورصد الأموال لمن يقوم بالتنقيب في مواطن الحضارة فيها.

هذه كانت الخلفية التي أدت إلى قيام المرحلة التالية من أعمال الحفر والنبش والتنقيب السريع وغير العلمي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بأيدي عدد من القناصل والهواة الذين لم تكن لديهم أي معرفة سابقة بطرق التنقيب وأساليبه وأصوله، والتي لم تكن هي الأخرى معروفة آنذاك. وكان أول هؤلاء الفرنسي إميل بوتا (Emile Botta). عمل بوتا في مصر بضع سنوات ثم عين عام ١٨٤٢ نائباً للقنصل الفرنسي في الموصل، وقد كلفته الجمعية الآسيوية في پاريس، عند تعيينه، بالبحث عن بقايا آشورية في تل قوينجق في مدينة نينوى العاصمة الآشورية الشهيرة. غير أنه لم يستطع تحقيق نتائج مشجِّعة في بادىء الآمر بسبب ضخامة التراكمات والأنقاض التي تغطي بقايا القصور والمعابد التي تضم المنحوتات والقطع الفنية التي جاء يبحث عنها. فحوّل اهتمامه إلى خرساباد (دور - شروكين) العاصمة الآشورية الاخرى الكائنة على بضعة كيلومترات إلى الشمال الشرقي من نينوى، وذلك اثر سماعه من عدد من أبناء الموصل عن ظهور منحوتات

من المرمر فيها. وقد كان حظ بوتا هنا أفضل من حظه في نينوى. فكتب إلى الجمعية الآسيوية في باريس في ٥ نيسان من عام ١٨٤٦ قائلاً : أعتقد بأني أول من اكتشف منحوتات يمكن عدها من العصر الذي ازدهرت فيه نينوى . وبهذا ازداد دعم الجمعية الآسيوية لبوتا ليستطيع الإستمرار في عمله في خرساباد ونينوى. كما الحقت به رساماً قديراً يُدعى فلاندن (Flandin) ليعاونه في توثيق ورسم مكتشفاته. وفي عام ١٨٤٦ وصلت فرنسا أول وجبة من المنحوتات الآشورية محملة على ظهر باخرة حربية فرنسية واستقرت في متحف اللوفر في باريس. واستمرت التنقيبات الفرنسية في نينوى وخرساباد للأعوام ١٨٥١-١٨٥٥ من قبل خليفة بوتا في الموصل نائب القنصل فكتور بلاس الذي كان مهندساً معمارياً. وقد ساعده اختصاصه هذا على إعداد مخطط كامل لتفاصيل قصر سرجون الواسع في خرساباد بزقورته وقاعاته الفخمة. واستطاع بوتا وبلاس من نشر مكتشفاتهما بسرعة بفضل الدعم الحكومي الذي تلقياه. فكان مطبوعاً فخماً حوى الكثير من الرسوم والصور والشروح، وقد عكس جهد المنقب والفنان والمهندس المعماري معاً. وكان استقبال هذا الكتاب منقطع النظير في فرنسا وخارجها لكثرة ما ضمَّ من شواهد في حينه. وهكذا كسب اللوفر أجمل مقتنياته من نفائس النحت الآشوري كما ربحت المكتبة الفرنسية أغنى مطبوعاتها وفقدت قصور نينوى وخرساباد أثمن ما كان يزين جدرانها من روائع الفن الإنساني القديم، وتُركت بقاياهما انقاضاً وحفراً لا تنبىء عن عظمة ماضيها ومقدرة ومهارة مشيديها وفنانيها أبناء بلاد الرافدين الخالدة.

لم يرق للإنكليز ترك الفرنسيين وحدهم ينهبون ما شاؤوا من قصور الآشوريين ومعابدهم في نينوى وخرساباد. كما عزّ على المتحف البريطاني ان ينفرد متحف اللوفر وحده بامتلاك قطع النحت المدهشة

التي شغلت العديد من صالاته. فكلف السير ستراتفورد كننك السفير البريطاني في الأستانة آنذاك هنري اوستن لايارد (Henry Austin Layard) بالذهاب إلى الموصل، وزوَّده ببعض المال للقيام بحفريات في المدن الآشورية بحثًا عن المنحوتات والأعمال الفنية البارزة. وكان لايارد في شبابه يتطلع إلى دراسة القانون، وقد بهرته قراءاته الأولى في كتاب ألف ليلة وليلة واطلاعه على كتب الرحالة الأوائل والمعاصرين له، فألهبت شوقه إلى الشرق. وعند فشله في ممارسة المحاماة في لندن، قبلَ عرضاً من عمه للعمل في مزارع الشاي له في سيلان. وبدأ رحلته ماراً بتركيا وفلسطين والعراق وقد وصل الموصل عام ١٨٤٠ وهو في سن الثالثة والعشرين وقابل فيها إنسورث، أحد اعضاء بعثة جسني، كما التقى بنائب القنصل البريطاني فيها كرستيان رسام، وتعرَّف الى أخيه هرمز رسام، الذي صار مساعداً له فيما بعد في حفرياته في نمرود ونينوى وعاونه كثيراً في نهب ما تبقى من منحوتاتها وإرسالها إلى إنكلترا. ثم سافر لايارد إلى بغداد وقام بالعديد من الجولات في وسط وجنوبي العراق واختلط بالعديد من العشائر القاطنة عند الحدود الإيرانية. ثم قفل راجعاً إلى الموصل دون الذهاب إلى سيلان. وفي الموصل، إلتقى بالمنقب الفرنسي بوتا وتعرف إلى أعماله ونشاطاته الآثارية. ومنها سافر إلى اسطنبول حيث نال إعجاب السفير السير كننك بسبب معرفته الواسعة بأحوال العراق ومدنه وعشائره واتقانه لعدد من اللغات المحلية كالعربية والفارسية والتركية. فعينه سكرتيراً له قبل إرساله إلى الموصل في تشرين أول من عام ١٨٤٥ للبدء بأول تنقيباته في العاصمة الآشورية نمرود (كالح).

وفي نمرود، حقق لايارد منذ الأيام الأولى نجاحاً لم يكن متوقعاً، حيث أخذت تظهر للعيان قطع النحت الكبيرة التي كانت تزين قصور

ومعابد المدينة والتي لم تكن بعيدة كثيراً عن سطح الموقع في المرتفع الرئيسي في العاصمة نمرود (كالح). وأرسلت بحراً إلى أنكلترا أولى المكتشفات من الثيران المجنحة والمنحوتات الآدمية والحيوانية الآخرى. وأخذت الحماسة تتصاعد في لندن لأعمال لايرد ومكتشفاته فانهالت عليه الأموال للاستزادة من الحفر وارسال المزيد من قطع النحت الآشورية إلى المتحف البريطاني.

لم يكن لايارد يعير المباني وجدرانها التي انتُزع عنها ما كان يغلّفها من منحوتات أي أهمية، كما لم يلتفت إلى معاثر الآثار واللقى التي اكتشفها. فقد اتبع في عملياته التنقيبية أسلوب حفر الانفاق، وهو أكثر أساليب الحفر تخريباً في ميدان الآثار. وعند نشر نتائج أعماله في نمرود سنة ١٨٤٩، كان يعتقد ان المدينة التي كان ينقب فيها هي نينوى، لذا أطلق على كتابه الأول عنها إسم : نينوى وبقاياها (Ninevah and its Remains). وفي طريق عودته إلى أنكلترا عام ١٨٥١، مرّ بقلعة تلعفر ورسم بقاياها وشاهد من فوق قلعتها العالية عشرات التلول المتناثرة على امتداد السهل جنوباً وغرباً، وقال عنها في حينه انها كلها بقايا المدن الآشورية. وكم كان يتمنى حفرها بأنفاق للتأكد من احتوائها على منحوتات آشورية يأخذها في طريقه إلى لندن.

وترك لايارد مساعده الموصلي هرمز رسام ليكمل استخلاص ما تبقى من منحوتات في قوينجق - نينوى التي أولاها اهتمامه في السنوات الأخيرة قبل مغادرته العراق. واستمر رسام في نمرود وغيرها من مواقع شمال ووسط العراق البارزة حتى عام ١٨٨٢. وقد كان يتبع في حفره أسلوب التنقيب الواسع السريع في عدد من المواقع في وقت واحد حيث كان يضع في كل موقع مجموعة من العمال تعمل لحسابه وتجمع له الآثار المكتشفة وهو ينتقل بينها. وقد يغيب عن بعضها أشهراً ثم يعود لالتقاط

بعض الملاحظات وتسلم الآثار وإرسالها إلى المتحف البريطني في لندن الذي كان رسام يعمل لحسابه. وكانت طريقة عمل هرمز رسام هذه فاتحة لظاهرة التنقيبات غير المشروعة والنبش العشوائي التي عمت البلاد ولسنوات عديدة لاحقة بتشجيع من وكلاء المتاحف الأوربية وهواة جمع التحف في الخارج. وفي عام ١٨٧٧ ظهر منافس آخر لمتاحف أوربا في اقتناء آثار العراق والمنطقة العربية هو عثمان حمدي بك. كان حمدي هذا إبن أحد رؤساء الوزارات السابقين في الدولة العثمانية، وقد عينته الاستانة أول مدير للمتحف الإمبراطوري. درس عثمان حمدي الفنون الجميلة في باريس وعمل بعد تخرجه لفترة قصيرة في السلك الدبلوماسي التركي قبل أن يقع عليه الإختيار لتأسيس المتحف الامبراطوري ويكون أول مدير له.

وقد اختار حمدي لهذا الغرض بناية في حدائق قصر السلطان. ولكي يؤمن له سيلاً لا ينقطع من الآثار واللقى والقطع الفنية، فقد استخدم نفوذه الشخصي لإصدار أول نظام للآثار في أرجاء الإمبراطورية العثمانية. وبهذا صارت مجاميع الآثار تصل إلى المتحف تباعاً عن طريق القسمة مع البعثات الأجنبية العاملة في الاقطار التابعة للدولة. فأصبح متحف الشرق القديم في اسطنبول بهذا واحداً من أغنى متاحف العالم بآثار العراق ومصر وغيرهما من أقطار الوطن العربي.

٤. التنقيب عن الآثار في العراق خلال القرن العشرين

في سنة ١٨٩٨، تأسست في برلين الجمعية الألمانية الشرقية بأمر من القيصر فيلهلم الثاني. وقد كان من أول أعمال تلك الجمعية إرسال بعثة آثارية للتنقيب في مدينة بابل، وكانت البعثة برئاسة المهندس المعماري روبرت كولدفاي. وقد وضعت بعثة كولدفاي لها منذ البداية أهدافاً

محددة للعمل في بابل سعت بجد إلى تحقيقها. ومن هذه الأهداف :

أ : الفحص الدقيق لجميع البقايا البنائية في المدينة التاريخية.

ب : التأكيد على التعاقب الطبقي للتراكمات الأثرية في الموقع لاستنباط الأبعاد الزمنية للأدوار التاريخية التي مرت بها مدينة بابل.

ج : التوصل من كل هذا إلى حقائق عن أوجه مختلفة من تاريخ المدينة وخططها وأبرز معالمها المعمارية.

وكان عمل بعثة كولدفاي في بابل دقيقاً وشاملاً في ميادين التنقيب والتوثيق والتسجيل والرسم. وبالرغم من عدم استطاعتها تحقيق أحد أهدافها الرئيسة لاستظهار طبقات الموقع السفلى، وبالأخص مدينة حمورابي، بسبب ارتفاع مستوى المياه الجوفية وطغيانها على جميع البقايا البنائية الكائنة أسفل مدينة نبوخذ نصر الثاني من مطلع القرن السادس قبل الميلاد، والتي تعود إلى المرحلة التاريخية المعروفة بإسم العصر البابلي الحديث أو الكلدي. إلا انها تمكنت بعملها الدقيق والمتأني على مدى سنين عديدة (١٨٩٩-١٩١٤)، التوصل إلى طريقة مبتكرة في استظهار صفوف اللبن المشيدة بها جدران غالبية مباني المدينة التاريخية، وصارت تلك الطريقة نموذجاً يُحتذى به للعمل الدقيق في مجال التنقيب في المواقع المشيدة أبنيتها بهذه المادة الطينية. وهكذا تمكن عدد من بعثات التنقيب بعدئذ اتّباع هذا الأسلوب الذي اطلق عليه إسم تفريد اللبن (Mud - Brick Articulation) في التنقيب، للتوصل إلى اكتشاف بقايا واسعة لمبانٍ كانت تُعَدُّ من قبل اكواماً من التراب. كان من أبرز معاوني كولدفاي في بابل ثلاثة آثاريين قادوا هم أنفسهم بعدئذ عمليات تنقيب ناجحة في آشور والوركاء هم : فالتر اندريه في آشور (١٩٠٣-١٩١٤)، ويوليوس يوردن ونولدكه في مدينة الوركـــاء (١٩١٢-١٩١٤) ثم في ١٩٢٨ وما بعدها. استطاع اندريه أن

يفحص في آشور بقايا العاصمة الآشورية الأولى بشكل كامل تقريباً. إذ إنه، بعد أن أزاح الركام والأنقاض عن مبانيها الرئيسة في جزئها الشمالي المحاذي لنهر دجلة، قام باقتطاع خنادق متوازية على طول المدينة للتأكد من احتمال وجود بقايا بنائية أو لقى أثرية في الأقسام التي لم تصلها تنقيباته الواسعة والشاملة. ثم اقتطع حفرة عميقة (deep-sounding) نزل فيها عمودياً لفحص أسفل طبقات موقع آشور حتى قاعه حيث اكتشف بقايا من زمن الحضارة السومرية في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد.

وبهذا يكون اندريه أول من مارس من الآثاريين أسلوب فحص الموقع بالعمق بأسلوب الحفر العمودي في تاريخ التنقيب في العراق.

وقد تبعه في ذلك منقبو نينوى (قوينجق) والوركاء وأور وكيش ومن جاء بعدهم من منقبي الأربعينات والسنوات التي تلتها من القرن العشرين. ويجب أن تُعزى إلى اندريه أيضاً اسبقيته في تدريب الفلاحين وأبنائهم من قرى الضفة الشرقية لنهر دجلة المواجهة لموقع آشور، وهي قرى السديرات العليا والوسطى والسفلى، على أعمال الحفر الدقيقة واستظهار الطبقات المتعاقبة لسكنى الموقع والتعرف إلى مواد البناء من اللبن والطين. وقد صار هؤلاء العمال المهرة الأوائل في ميدان التنقيب عن الآثار في العراق يعملون بعدئذ في جميع مواقع التنقيب في البلاد. كما انتقلت خبرتهم هذه إلى أبنائهم وأحفادهم من بعدهم وصاروا يُعرفون بإسم عمال الآثار الشرقاطيين.

وبالرغم من كل التقنيات والتحسينات التي أدخلها المنقبون الألمان في عملهم في العراق، والتي كان من نتائجها العناية بمواقع المدن الآثرية ومبانيها القديمة حتى صار أسلوبهم مثلاً يُحتذى به في أعمال التنقيب اللاحقة، إلا انهم عملوا أيضاً ما عمله غيرهم من المنقبين الأجانب، من

الذين سبقوهم أو عاصروهم، في نقل ما كشفوا عنه من آثار ولقى فنية بارزة من بابل وآشور والوركاء إلى برلين، بعد إجراء القسمة مع المتحف الإمبراطوري في الأستانة. فغادرت العراق مئات الصناديق المملوءة بما كان يزيّن بوابة عشتار وشارع الموكب في بابل وقصر الاواوين في آشور من طابوق ملون ومزجج بأشكال فنية رائعة مع عشرات الآلاف من اللقى الآخرى ورقم الطين المدوَّنة بالخط المسماري، وحلت في متحف بيركامون في برلين .

كان أول المنقبين الذين استأنفوا التنقيب في مواقع العراق القديمة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى من الإنكليز الذين خدموا ضمن الوحدات العسكرية ضباطاً سياسيين أو ضباطاً للاستخبارات. ومن هؤلاء كامبل تومبسن وليونارد وولي، وهما أيضاً من الذين عملوا في أجهزة ما كان يسمى بالمكتب العربي في القاهرة طوال سني الحرب الأربع. بدأ كامبل تومبسن تنقيباته عام ١٩١٨ في أور واريدو على شكل مجسات سريعة لحساب المتحف البريطاني ولفترة قصيرة فقط. أعقبه هول سنة ١٩١٩ موفداً من المتحف نفسه. واستطاع هول بعد عمل قصير في أور ان يحقق نجاحًا أكبر في تل العبيد قرب الناصرية حيث كشف عن بقايا معبد سومري تزيّن واجهتَه مشاهدُ بالالوان لعملية انتاج الالبان. وحين استقر رأي المتحف البريطاني للبدء في عمل واسع في مدينة أور، وقع الاختيار على ليونارد وولي للقيام بذلك في عام ١٩٢٢ بالمشاركة مع جامعة بنسلفانيا الأميركية. وقد دام عمل البعثة المشتركة هذه حتى عام ١٩٣٤. وحقق وولي خلالها الكثير من النجاحات في حقل الكشف الآثاري والنشر العلمي. فقد أثارت مكتشفاته في المقبرة الملكية وموجوداتها من الحلي والآثاث والأسلحة المصنوعة من الذهب واللازورد وغيرها من الأحجار الكريمة ضجة كبيرة في الأوساط العلمية والفنية والمتحفية،

كما أَثارَ اعلانه عن اكتشافه لبقايا آثار الطوفان، والحي الذي سكنه إبراهيم الخليل عليه السلام جدلاً كبيراً في الاوساط الدينية والمؤسسات المعنية بدراسات العهد القديم دام زمناً طويلاً.

وكان المنقبون الألمان قد بدأوا العمل في عاصمة البطل جلجامش عام ١٩١٢. ولكنه توقف بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى. وقد استأنفت بعثة الجمعية الألمانية الشرقية تنقيباتها في الوركاء مجدداً سنة ١٩٢٨.

مارس المنقبون الألمان الأسلوب العلمي الدقيق والمتأني في البحث عن تفاصيل مرافق مباني مدينة الوركاء بأدوارها المتعاقبة والمتداخلة في كثير من الأحيان. وقد حققوا نتيجة لذلك نجاحات بارزة في حقل العمارة التاريخية اكسبت عملهم شهرة واسعة. كما توصلوا إلى نتائج مهمة أدت إلى التعرف إلى الكثير من المظاهر البنائية القديمة في قاطعي المدينة الدينيين إنانا وآنو.

وتحول كامبل تومبسن في سنة ١٩٢٧ بعد عمله القصير في أور واريدو إلى العمل في قلب العاصمة الآشورية نينوى. والتحق به سنة ١٩٣١ الآثاري الإنكليزي الناشىء ماكس ملوان وبصحبته زوجته كاتبة القصص البوليسية المعروفة آجاثا كرستي، التي تعرف إليها في أواخر العشرينات حين عمله مساعداً مع السير ليونارد وولي في أور. لقد كان الغرض من مواصلة التنقيب في تل قوينجق الكشف عن المزيد من التفاصيل في بقايا المباني الآشورية التي اغفلها كل من بوتا ولايارد في حفرياتهم المرتَجَلة السريعة في منتصف القرن التاسع عشر بحثًا عن المنحوتات وقطع الفن الآشوري البارزة.

وقد قام ملوان بإجراء تنقيب عمودي إلى عمق ٢٧م حيث وصل بحفره قاع الموقع في نينوى عند الأرض البكر أسفل مستوى السهل المجاور لنهر الخوصر.

كشف ملوان في حفرة الجس العميقة تلك على بقايا الآثار والفخار من مراحل حسونة وسامراء وحلف في الطبقتين السفليين تعقبهما في الطبقتين الثالثة والرابعة بقايا من عصري العبيد والوركاء، كما حوت الطبقة الخامسة بقايا لمرحلة جديدة تعاصر في قسم منها بعض مراحل عصر فجر السلالات السومرية تميزت بفخارياتها الملونة والمحزَّزة والتي عُرفت في كل مكان وجدت فيه بعد ذلك في شمالي العراق وبلاد الشام وإيران وتركيا بفخاريات نينوى الطبقة الخامسة (Ninevehv).

إنتقل ملوان في عام ١٩٣٢ إلى العمل في الأربجية، وهو موقع صغير يبعد قليلاً إلى الشرق من أسوار نينوى تغطي سطحه وسفوحه كسرات من فخاريات عصر حلف الملونة، حيث كشف عن عدد من طبقاتها التي يتواجد فيها فخار حلف الملون بشكل متسلسل وبتعاقب طبقي منتظم نتيجة لعمليات التنقيبات العلمية المنتظمة التي أجراها ملوان لأكثر من موسم. إن الاكتشاف المميز الذي حققه ملوان لدور حلف بمبانيه المميزة وفخارياته الملونة الجميلة قد القى الضوء على ما أكتشف سابقاً من هذه الفخاريات ممزوجة مع فخاريات سامراء (لما قبل التاريخ) في اسفل حفرة الجس في قوينجق، وقبل ذلك في تل حلف (كوزانا) على الفرات في شمال سوريا من قبل البارون فون أوبنهايم.

في الوقت نفسه الذي كان العمل يجري فيه في نينوى والاربجية كانت بعثة أمريكية من جامعة بنسلفانيا يترأسها سبايزر (Spiser) تعمل في موقع تبه كورة الكائن في قرية الفاضلية قرب العاصمة الآشورية خرساباد حيث كشفت بتنقيباتها الافقية الشاملة عن مساحات واسعة من الموقع تضم دوراً سكنية ومعابد بارزة من عصر الوركاء، كما استطاعت بحفرها العمودي استظهار عشرين طبقة سكنية تضم بقايا عصري حلف والعبيد في أسفلها (الطبقات ٢٠-١٢) تتبعها مرحلتا

الوركاء ونينوى الطبقة الخامسة في (الطبقات ١١-٧). ثم تأتي فوقها البقايا الأثرية من الفترات التاريخية اللاحقة (الأكدية والآشورية).

وساهمت في التنقيب الواسع في فترة ما بين الحربين أيضاً بعثة كبيرة من المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو في الولايات المتحدة الأمريكية استمر عملها عدة مواسم في منطقة ديالى إلى الشرق قليلاً من بغداد في مواقع خفاجي واشجالي وأسمر. وكان من أبرز أعضاء هذه البعثة فرانكفورت وجاكوبسن وسيتن لويد. وعملت في العواصم السومرية الشهيرة في منطقة الغراف بعثة فرنسية ولعدد من السنوات في مدينة تلو تراس العمل فيها في مواسمها الاخيرة الآثاري الفرنسي المعروف اندريه بارو. وفي كيش وجمدة نصر، إلى الشرق من بابل، كانت تعمل في هذه الأثناء بعثة مشتركة من جامعتي اوكسفورد وهارفرد برئاسة ستيفن لانكدن، وقد ساهم في أعمالها مواسم عديدة عالم الأجناس البشرية هنري فيلد والمنقبان مكاي وواتلان. وعملت قرب كركوك (ارابخا) بعثة جامعة هارفرد أيضاً في موقع يورغان تبه الذي يضم بقايا مدينة نوزي الشهيرة في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد برئاسة الآثاري ستار.

وكان هناك عدد آخر من البعثات الأجنبية عملت لفترات قصيرة في بعض مواقع العراق القديمة للفترة ما بين الحربين أيضاً. إلا انهم لم يتوصلوا إلى نتائج كبيرة ومهمة.

بقيام الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩، توقفت أعمال البعثات الآثارية الأجنبية في العراق. إلا ان بعضها عاد مباشرة بعد انتهاء الحرب لاستئناف العمل في المواقع التقليدية السابقة كالوركاء ونفر ونمرود. كما قدمت بعثات آثارية جديدة للبدء في تنقيبات شاملة في مواقع أثرية لم يُنقب فيها من قبل.

فبدأت جامعة طوكيو العمل في تلول الثلاثات قرب تلعفر في محافظة نينوى برئاسة ناميو ايكامي، حضر بدء عملها في ربيع ١٩٥٦ كل من الآمير ميكاسا شقيق امبراطور اليابان والمرحوم الدكتور ناجي الأصيل مدير عام الآثار آنذاك.

وجاء روبرت بريدوود مبعوثا من المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو على رأس فريق من الآثاريين والإختصاصين في الجيولوجيا والبيئة والحيوان والنبات القديمين للبحث في أماكن مختارة من كردستان العراق للتعرف إلى المنطقة النواة التي بدأت فيها الزراعة واستئناس الحيوان خلال المراحل الأولى من العصر الحجري الحديث وختام العصر الحجري الوسيط.

إلا أن أبرز نشاطات سنين الحرب العالمية الثانية في حقل الآثار والتنقيب قامت بها دائرة الآثار العراقية. وقد كان للمرحوم الأستاذ ساطع الحصري مدير الآثار العام لفترة ما قبل الحرب وإبانها دور بارز يجب أن يُذكر باعتزاز في تطوير العمل الآثاري الوطني في العراق حيث قام بمن معه من عدد محدود من عاملين عراقيين آنذاك بافتتاح أعمال التنقيب الواسعة في واسط وسامراء. كما بدأ حملة تأليف ونشر للتعريف بأبرز المواقع والمباني العربية الإسلامية في بغداد وسامراء والأخيضر. وعمل على إرسال البعثات العلمية للتخصص بعلم الآثار واللغات القديمة رغبة منه في تكوين جيل وطني متخصص بهذا الحقل من المعرفة والذي كان مقتصراً على الأجانب فقط.

فحصل العراق نتيجة لذلك على أبرز عالمين في حقل التنقيب والدراسات الآثارية واللغات وتاريخ الحضارات القديمة هما المرحومان الأستاذان طه باقر وفؤاد سفر اللذان قادا التنقيب بنجاح بعد عودتهما من الخارج خلال سني الحرب العالمية الثانية وما بعدها، في واسط

وعقرقوف والدير وتل حرمل والضباعي والعقير وحسونة وأريدو والحضر. كما عملا على نشر نتائج أعمالهما هذه داخل وخارج العراق. وبذلك وضعاً الأسس العلمية الرصينة لما يمكننا ان نطلق عليه اسم المدرسة العراقية للآثار. كما بذلا جهداً إستثنائياً لتأسيس أول معهد لدراسة الآثار والحضارات القديمة في البلاد عام ١٩٥١ بالتعاون مع زملائهما في حقل التعليم العالي آنذاك. وأصبح تلاميذهما الذين تخرجوا على ايديهما في هذا المعهد النواة التي انطلقت منها تشكيلات الهيئة العراقية للآثار التي صارت مسؤولياتها في حقول التنقيب والصيانة الآثرية والتراثية تغطي العراق بأكمله. وقد عظمت واجباتها ومسؤولياتها بتصاعد حركة التنمية في البلاد في السنوات الأخيرة. وبات لزاماً عليها مواكبة هذه الحركة والقيام بعمليات مسح وتنقيب وحفاظ واسعة وشاملة في مواقع المشاريع وأحواض السدود الكبرى في مختلف أنحاء العراق.

٥. مستقبل العمل الآثاري في العراق

يضمُّ العمل الآثاري بمفهومه الواسع واطاره العام بشكل أساس عدداً من الأنشطة والمجالات تتوزع على المحاور التالية :

عمليات الإستكشاف والتحري والتنقيب

- المسح والرسم الهندسي
- التصوير والتوثيق
- المعالجات المختبرية والتحاليل والترميم
- المتحف وأساليب العرض ومناهجه
- الخزن المتحفي والتسجيل
- النشر العلمي بأنواعه وهو يعتمد النشاطات الميدانية والدراسات والبحوث المقارنة.

- المكتبة التي يجب أن تضم مجاميع من المراجع والدوريات والدراسات والتقارير التي تغطي حاجات مجمل النشاطات الآثارية ورفدها باستمرار بما يستجدُّ ويُنشر بالداخل والخارج من مطبوعات لها مساس من قريب أو بعيد بالعمل الآثاري وميادينه وأنشطته المختلفة.

منذ قيام دائرة الآثار العراقية في أواخر الثلاثينات من القرن الماضي والسنوات اللاحقة وحتى الآن، كان هناك ضعف في واحد أو أكثر من هذه النشاطات. ونرى أننا إذا ما أردنا الخروج بتصور فعّال ينقل العملية الآثارية في العراق إلى مستويات علمية مقبولة ترضي الطموح وتوازي المستويات العالمية وربما تفوقها، يجب العناية التامة وبقدر المستطاع بتوفير كل الأساليب اللازمة للقيام بمختلف النشاطات الآثارية ودعم الآثاري نفسه، قائد هذه العملية ومنفذ كل نشاطاتها، ان كان اثناء التحصيل الدراسي الجامعي الأولي أو العالي، أو عند الالتحاق بالعمل في مختلف الأنشطة الآثارية. إن العناية بالآثاري نفسه تتوزع على محورين أو ربما ثلاثة محاور :

* الإهتمام بالمناهج الدراسية عند تأهيله للتخصص أثناء الدراسة الجامعية الأولية، ويجب أن يكون ذلك التأهيل جاداً ومجدياً لتحقيق الفوائد المرجوة من هذا التخصص في الميادين العملية والنظرية والدراسات والبحوث.

* الإستمرار بالإهتمام بالتوجيه العلمي للآثاري الخريج الملتحق بأحد النشاطات الآثارية في دوائر الآثار والمتاحف ومتابعة استزادته من الخبرة في ميادين عمله ودفعه للإسهام في الدورات والحلقات الدراسية لإغناء تحصيله العلمي.

* الإهتمام بالوضع الإقتصادي والمستوى المعاشي للآثاري لتمكينه من التفرغ التام لواجباته سواء أكانت في الحقل أو المتحف أو المكتبة،

وذلك لإبعاده عن الانشغال بهموم معيشته ومعيشة أسرته وكفايته بحدود معقولة بما يحفظ له كرامته وأمانته ويجعله متفرغاً كلياً لمهمّاته.

لقد فضّلنا اعطاء الأولية للإنسان، قائد العملية الآثارية، بسبب أهمية دوره في تنفيذ وإنجاح هذه العملية. إلا اننا يجب أن لا ننسى أيضاً ان الآثاري وحده، دون مستلزمات ومتطلبات العمل، لا يستطيع القيام بدوره بنجاح كامل. لذا وجب علينا قبل ذلك توفير تلك المستلزمات أيضاً. ففي ميدان التحري والإستكشاف والتنقيب من الضروري تهيئة الوسائل لإنجاز هذه النشاطات بجانب توفير الخبرة والكوادر المتمرسة. فالتحري والإستكشاف (Exploration) يتطلبان توفر انواع من الخوارط ومعرفة تامة بها وبقراءتها. كما يتطلبان أدوات يستعين بها الآثاري المكلف بانجاز هذا النشاط، كالآليات والمعدات اللازمة للحركة والمسح وتثبيت المواقع على الخوارط. وحين يتقرر القيام بإجراء تنقيب في مكان معين يجب توفير الكادر العلمي المتخصص بالنشاط التنقيبي على أن يكون رئيس الفريق، وهو القائد الآثاري، ملمًّا إلماماً تاماً بما سيقوم به وبما يتطلبه العمل من دقائق وتفاصيل بكونه منقباً ذا خبرة أيضاً بتاريخ المنطقة التي سيجري العمل فيها، ليتمكن من تقييم نتائج حفرياته ووضعها في إطارها الزمني الصحيح. ويستطيع أيضاً القيام بإجراء ما يقتضي من تقييم لمكتشفاته بالمقارنة والدرس واستخلاص الحقائق التي ستقدم للدارسين والمؤرخين. ولإنجاح عملية التنقيب يجب توفر الكادر الهندسي والفني المسؤول عن وضع المرتسمات والمخططات للمكتشفات البنائية وموجودات الطبقات المتعاقبة ومقاطع حارات التنقيب وحفر الجس (Soundings) وغيره من النتائج التي يتوفر عليها الرسام أو المهندس المتمرس في ميادين التنقيب المختلفة. وإضافة إلى ذلك، يجب تهيئة كادر مختبري يكون مسؤولاً عن معالجة

اللقى والمكتشفات التي تحتاج إلى معالجة مختبرية سريعة تسبق معالجات المركز الدائمة. ويجب أن لا يغيب عن البال توفير أجهزة تصوير مناسبة وكفوءة، لأهمية التصوير في العملية الآثارية. وفي ختام موسم التنقيب، على المركز (دائرة الآثار أو الجامعة أو المتحف) أن يوفر الوقت الكافي لتفرغ المنقب وكادره المختص بعد عودتهم من ميدان التنقيب للإنكباب على استكمال دراسة نتائج عمله الحقلي، كل في اختصاصه، ليتسنى بعدئذ البدء بوضع دراسة متكاملة بنتائج أعمال ذلك الموسم تصلح للنشر العلمي. وقد يطول وقت هذا التفرغ أو يقصر وذلك للمدة التي تتطلب إنجاز الدراسة وإعدادها للنشر. وعند انتهاء المنقب وكادره من إعداد نتائج عملهم، يأتي دور جهاز النشر وكادره ليقوم بدوره بإخراج وطبع تلك النتائج وتقديمها للباحثين والمؤرخين.

إذا ما توفر هذا كله نكون قد حصلنا على المستوى العلمي المطلوب في هذا الميدان. ولكي يتحقق الإنتقال بالعمل الآثاري ليوازي الطموح نؤكّد مجدداً أن تكون البداية من الداخل، أي من البيت، الآثاري نفسه، ونعني بذلك دوائر الآثار والمتاحف ومعاهد الآثار في الجامعات. نرى وجوب إعادة النظر في تشكيلات الدائرة أو الهيئة القائمة على شؤون الآثار، كما تتوجب إعادة النظر في توجهاتها ومفاهيمها للعمل الآثاري وآلياته لتنسجم مع دفع العملية الآثارية بكل نشاطاتها في طريق الإبداع والتطور بما يخدم الطموح وينتقل بهذه العملية إلى الآفاق والمستويات المطلوبة علمياً وعالمياً. وقد يكون في الآراء التي نقدمها أدناه أو بعضها ما يحقق شيئا من ذلك :

الإهتمام الجاد بالعمل الميداني ورفده بكوادر خبيرة وقديرة وراغبة في ان تمتلك الخبرة والقدرة على تطوير قابلياتها وإمكاناتها في العمل الميداني.

* العناية بهذه الكوادر عند توفرها ورعايتها علمياً ومعيشياً.

* تجهيز النشاط الآثاري الميداني بكل المستلزمات الضرورية لإنجاح العملية الآثارية الميدانية.

* منح الآثاريين الميدانيين الوقت الكافي لوضع الدراسات اللائقة للنشر عن نتائج أعمالهم الميدانية.

ولما كانت معاهد وأقسام الآثار في الجامعات هي المكان الطبيعي الذي يتلقى فيها الآثاريون أولى معارفهم ومهاراتهم وتدريباتهم، لذا وجب الإهتمام بها أيضاً عن طريق :

* العناية بمناهج الدراسة وفق تخطيط مدروس يوازن بين الجوانب النظرية والميدانية، كما ينبغي العناية بالطلبة وتوجيههم وفق احدث الطرق المتبعة في معاهد الآثار في الخارج ليكونوا بعد تأهيلهم قادرين على قيادة العملية الآثارية في الميدان والمتحف وعند إعداد البحوث والدراسات.

* العناية أيضاً باختيار الأساتذة الاكفّاء القائمين على تكوين هذه الكوادر الشابة آثارياً في الجانبين النظري والعملي.

* تلقّي الطلبة علومهم الآثارية في قاعات وأماكن مهيأة أصلاً لتدريس مواضيع الآثار (وليس التاريخ) بحيث يكونون دوماً وسط أجواء خاصة بكل مادة او موضوع دراسي .

* توفير فرص كافية للطلبة في مراحلهم المتقدمة للإسهام فعلياً في أعمال ميدانية ولمدد كافية وليس للإطلاع فقط.

إذا ما تحقق هذا كله عندئذ يكون بالإمكان توظيف الآثار والتراث بمختلف أشكالها وأنشطتها لخلق وعي آثاري وتراثي في أوساط المجتمع بمختلف شرائحه، وكذلك الإستفادة منها واستثمارها إقتصادياً، وهذا

يقع في نظرنا في عدد من التوجهات :

* الإهتمام والعناية بمواطن الآثار والمدن التاريخية والأماكن التراثية وصيانتها وتهيئتها للزيارة وتسهيل الوصول إليها بتعبيد الطرق وتوفير وسائل النقل وإيجاد أماكن للراحة ودور للإستراحة وتزويدها بالخدمات اللازمة.

* إصدار الملصقات الجدارية والفولدرات والمطبوعات الميسرة وبلغات متعددة للتعريف إلى مواطن الآثار والتراث وتعميمها بكل الوسائل التي توصلها للمواطن والسائح.

* تعميم الاستفادة من تحويل القطع الأثرية والمواضيع الفنية البارزة إلى مجسمات مصغرة ومطبوعات بهيئة الانتاج الوفير وبطرق صناعية مدروسة يعهد بتنفيذها إلى قطاعات خاصة أو مشتركة أو حكومية. المهم تسهيل تعميم هذه الصناعة.

* الإهتمام بالمردود الاقتصادي من عوائد واجور استخدام وزيارات الأماكن الآثرية والتراثية والمتاحف والمدن والقلاع.

* الإهتمام بالمردود الاقتصادي الذي يكونه إيجار أو تشغيل الفنادق ودور الإستراحة والأكشاك ووسائط النقل في مواطن الآثار والتراث.

وهناك سبل متعددة أخرى بإمكان دوائر الآثار والسياحة البحث عنها للإستفادة من هذا الموروث الضخم من الثروة الآثرية والتراثية والتاريخية التي لا تنضب ولا تعادلها أي ثروة اخرى بقيمتها الحضارية ومردودها الاقتصادي الدائم حينما يُستخدم بالشكل الأمثل.

الفصل الثالث
حضارات قديمة ومدن تاريخية

١. بغداد عطاء دجلة وارث الحضارة

أظهرت البحوث والدراسات الآثارية الميدانية خلال العقود الخمسة الأخيرة ان منطقة العراق الاوسط، حيث يقترب النهران دجلة والفرات الواحد من لآخر، كانت البقعة النواة التي التقت عندها جذور حضارة العراق الأولى في مطلع الألف السادس قبل الميلاد. وكان ذلك بانتقال مكوّنات نواة الحضارة في الزراعة والتدجين ومبادىء العمارة وفنون النحت وعمل الفخار وبذور العقيدة الدينية إلى منطقة السهل الغريني ودلتا بلاد الرافدين في جنوبي العراق.

وفي بقعة الالتقاء الحضاري هذه نشأت مستوطنات وقرى زراعية أولى على أرض بغداد وفي اطرافها، من الشمال والشرق والجنوب والغرب، خطا فيها فلاحو العراق الأوائل أولى خطواتهم في مضمار التمدن، بامتلاكهم مبادىء التقنيات الضرورية لحياة الإستقرار والعمران. يعرف أبرز بعضها اليوم بتلول الصوان والمبدد وخفاجي والضباعي وحرمل ورأس العمية والدير وسبار ومدن أكد وكيش وبابل ونفر وعقرقوف وغيرها كثير ما زال بعيداً عن متناول المنقبين. وبمرور ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة تحول بعض تلك المواطن الزراعية في وسط العراق إلى مدن عامرة وحواضر لدول تعاقبت على السيادة في بلاد الرافدين. كان اقدمها الإمبراطورية الأكدية، أقدم إمبراطورية عرفها التاريخ اقامها سرجون الأكدي في مطلع النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، متّخذا مدينة أكد، التي توجد بقاياها في مكان

ما من السهل الفسيح جنوبي بغداد، عاصمة له، وحين دخل الآموريون من الغرب إلى البلاد في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد في اعقاب انهيار إمبراطورية سرجون ودولة أور الثالثة السومرية، اقاموا لهم خمس دول متفرقة في بلاد الرافدين، كانت اثنتان منها في وسط العراق في منطقة بغداد واطرافها الشرقية والجنوبية. عرفت أولاهما بمملكة أشنونا وقد انحصر نفوذها بين نهر دجلة حيث قامت بغداد العباسية بعدئذ وسهول نهر ديالى إلى الشرق. ومن أبرز مدنها الباقية آثارها على أرض بغداد إلى اليوم : تلول حرمل والضباعي ومحمد وحيدر وخيوط ربوعه وخفاجي، وعدد كبير غيرها في حوض نهر ديالى. وتل حرمل الكائن الآن بين الدور السكنية لأحد احياء بغداد الجديدة يضم بقايا مدينة شادوبم أحد أبرز المراكز العلمية والإدارية لمملكة أشنونا الآمورية في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. واسم المدينة البابلي هذا يعني بيت المال أو ديوان الحسابات.

وقد اقيمت فيها أقدم أكاديمية علمية عرفها التاريخ، كما تؤكّد ذلك النصوص المسمارية المكتشفة في مبانيها والتي اعطت الكثير من المعلومات الثقافية والعلمية والإقتصادية والإجتماعية في هذه الحقبة من تاريخ العراق القديم.

ومن أبرز النصوص المكتشفة في هذا الموقع وثائق علمية ضمت جداول رياضية وقضايا هندسية وجبرية وضعت وحلت بموجب معادلات الدرجة الثانية والثالثة التي عولجت بطرق شبيهة بالطرق التي تعالج بها امثالها في الوقت الحاضر. ومنها المبدأ المشهور باكمال المربع في معادلات الدرجة الثانية. ومن اشهر تلك المسائل قضية هندسية - جبرية تقوم على مبدا تشابه المثلثات القائمة الزاوية المحدثة من انزال عمود من الزاوية القائمة على الوتر. وهي نفس النظرية المنسوبة إلى

الرياضي اليوناني الشهير اقليدس الذي جاء بعد رياضي العراق القديم بأكثر من سبعة عشر قرناً. كما اكتشفت في هذا المركز العلمي في منطقة بغداد أجزاء من شريعة عرفت بين الدارسين بقانون أشنونا وهي تسبق شريعة حمورابي بنحو قرنين، عالجت في موادها التي تزيد على الستين جوانب عديدة من الحياة العائلية والإقتصادية.

وتل الضباعي مركز آخر من مراكز مملكة أشنونا الآمورية يقوم عند قناة الجيش من أراضي بغداد الشرقية. ورد هذا الموقع في النصوص البابلية باسم زارلو التي كانت هي الأخرى مركزاً علمياً وإدارياً واقتصادياً كجارتها شادوبم (تل حرمل). ومن النصوص المسمارية المهمة التي كشف عنها التنقيب في هذا الموقع الواحاً رياضية أبرزها لوح يضم قضية هندسية - جبرية ذات مجهولين تتعلق بإيجاد ابعاد المستطيل إذا ما عرفت مساحته. وقد عرف رياضيو هذا المركز العلمي أيضاً علاقة مربع ضلعي المثلث القائم الزاوية بمربع وتره. وهي النظرية الهندسية نفسها المعروفة والمنسوبة إلى فيثاغورس. وهذا يعني مرة اخرى ان رياضيي بلاد الرافدين قد سبقت معرفتهم بهذه النظرية قبل الرياضي اليوناني بما لا يقل عن خمسة عشر قرناً. وتوضح هذه المسألة معرفة رياضيي العراق القديم بقوانين دساتير أساسية في علم العدد، مثل دستور مربع مجموع عددين ومربع الفرق بين عددين. فضلاً عن ذلك فان رياضي العراق القديم قد فاقوا رياضيي اليونان، بجمعهم بين الشكل والعدد أي بين الهندسة والجبر في حين ان رياضيي اليونان، باعتمادهم على الأساس الهندسي فقط، قد اعاقوا تطور الرياضيات زمناً طويلاً حتى اعاد العرب مسيرتها التطورية ووجهها العلمي الصحيح باهتمامهم بالجبر وجمعهم بين الشكل والعدد مرة أخرى وذلك بايدي نخبة من العلماء العرب المسلمين، وفي مقدمتهم الخوارزمي من القرن التاسع الميلادي.

وخيوط ربوعة موقع آخر من مواقع شرقي بغداد التاريخية، تقوم بقاياه ضمن مدينة الالعاب قرب قناة الجيش، وأبرز اكتشاف جاءنا منه جرة صغيرة من الفخار ارتفاعها لا يزيد على ١٥ سم تحوي في داخلها مجموعة مواد تبين عند دراستها أنها تضم أسطوانة نحاسية ثبت في وسطها قضيب من حديد يبرز قليلاً عند فوهتها، وقد غطيت بطبقة من مادة الاسفلت (القار) كما توجد في قاعدة الاسطوانة النحاسية طبقة من الاسفلت أيضاً، وقد طُلي باطن الجرة كلها بهذه المادة أيضاً. وفي ضوء دراسة محتويات هذا الإناء الفخاري ظهر أنه يكوّن مواداً لبطارية كهربائية جافة، وهو يمثل خلية مبسطة مشابهة لمحتويات بطارية كلفاني المعروفة. هذا وان بطارية خيوط ربوعة إذا ما اضيف إليها نوع من الحامض صارت مقاربة تماماً لبطارية كلفاني آنفة الذكر. يرجع تاريخ بطارية بغداد المكتشفة في موقع خيوط ربوعة إلى قبل نحو ألفي سنة. أي انها تسبق بطارية كلفاني بأكثر من ألف وخمسمائة سنة، وهي تعد أقدم بطارية مكتشفة في العالم.

على هذه البقعة من وسط العراق، حيث تراكمت الخبر والمعارف على مرّ الزمن تاركة بصماتها في طيات الأرض جيلاً بعد جيل، اختار الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور، بفكره الثاقب، ان يقيم عاصمة للدولة العربية الإسلامية المترامية الاطراف. فكانت مدينة المنصور المدورة في غربي دجلة النواة التي قامت حولها وفي جنوبها وشرقها عبر دجلة بعد سنين قليلة أعظم حاضرة شهدها العصر الوسيط، فاضحت بحق وريثة لكل التراكم الحضاري للعراق القديم في ميادين العمارة والفنون والعلوم والآداب. فتأسست فيها المدارس الجامعة ودور العلم وبيوت الترجمة.

فكانت بهذا الوريثة الشرعية لبابل عروس الشرق وعاصمة العالم

القديم، يحجُّ إليها طلاب العلم والمعرفة والأدب والفن من كل حدب وصوب. وبلغت بغداد عصرها الذهبي في زمن الرشيد وابنه المأمون تعمر بشتى الفعاليات وتزخر بمباهج الحياة، رائدها العدل وإرضاء الضمير ودأبها استقصاء الحقائق من علمية وفلسفية ودينية. وانصب إليها نتاج العالم من نفائس البضائع وكنوز الأرض، وبلغها كل جديد من رأي وابتكار. وبلغ العراق قلب الدولة العربية الإسلامية الزاهرة في هذا العصر ما لم يبلغه في تاريخه الطويل الحافل بالامجاد.

بعد هذا كله، ورغم ما حصل، ستعود بغداد من جديد عروساً للدنيا، كما سيعود العراق كحاله دوماً بعد كل كبوة بلداً للحضارة والسلام والمحبة...

٢. منازل إنسان العراق الأولى

عاش إنسان العراق الأول في كهوف المنطقة الجبلية في منطقة كردستان العراق، واستقر حيناً في مقار في العراء وعلى مصاطب نهري دجلة والفرات وتجول في بادية الرطبة والاقسام الغربية الأخرى من وسط العراق وجنوبه في منطقتي الرزازة والأخيضر وأريدو وذلك منذ أكثر من ربع مليون سنة مضت. وكان ذلك الإنسان لا يزال يدرج، كما كانت حال معاصريه في بقاع العالم الأخرى، في مضمار التطور الجسدي والعقلي، إذ كان يختلف عن جنسنا البشري المعاصر. فقد كان ينتمي إلى نوع إنسان النياندرتال المنقرض الذي كشف عن عدد من هياكله العظمية في كهف شانيدار في محافظة أربيل، التي تعاصر مثيلاتها في فلسطين في مغارة الصخول في جبل الكرمل. وكان إنسان الكهوف العراقي بدائياً في شكله وفي طريقة معيشته. وكان يتميز براس ضخم ووجه عريض وحاجبين بارزين وجبهة منحدرة إلى الخلف وذقن صغير

يكاد يكون معدوماً. ومع ان طوله لم يكن يتجاوز الخمسة أقدام إلا قليلاً، غير ان مظهره الغليظ وصدره الواسع واكتافه العريضة كانت تكسبه ملامح خشنة وقاسية.

عاش إنسان النياندرتال في جماعات صغيرة، معتمداً في حياته على جمع والتقاط ما تجود به الطبيعة، كما كان يسعى وحيداً أو في جماعات لمهاجمة واصطياد الحيوانات الضخمة التي كانت تزخر بها بيئته آنذاك. وكان سلاحه فؤوس مدببة من لب الحجارة، بالاضافة إلى هراوات وعصي من أخشاب الاشجار. لقد أثبتت دراسات علم الإنسان المقارن في السنوات الأخيرة ان نوع إنسان النياندرتال الذي سكن كهوف العراق وفلسطين في المراحل الوسطى من العصر الحجري القديم مرّ بمراحل تطورية إحيائية سريعة قبل نحو أربعين ألف سنة، نتج عنها نوع عاقل من الجنس البشري له من الصفات والمظاهر الجسدية والطباع ما يجعله مؤهلاً ليكون السلف المباشر لجنسنا البشري الحاضر في هذه المنطقة من العالم. وإذا ما تذكرنا بان سكنة كهف شانيدار من عراقيي النياندرتال قد عُنوا بدفن موتاهم في أسفل أرضية الكهف، وانهم قد زوَّدوا بعض اولئك الموتى بزهور برية كانت تنمو في منطقة الكهف، عثر على بذورها عند جماجم هياكلهم، وانهم قد عنوا بالمعوقين والكسيحين من أبناء جنسهم، تأكد لدينا التوجه الإنساني والاجتماعي المبكر لاولئك البشر من العراقيين الأوائل، وانهم كانوا في طريقهم لتحقيق الطفرة التطورية الهائلة لبني نوعهم من البشر.

أثبتت التحريات والبحوث الأثارية لمرحلة العصور الحجرية في العراق، ومنذ اواخر العشرينات من القرن العشرين، وجود مخلفات إنسان العراق الأول في أكثر من بقعة من شمالي بلاد الرافدين وغربه خلال العصور الحجرية القديمة بمراحلها المختلفة. فقد عثر على مخلفات

إنسان العصر الحجري القديم، من قسميه الاسفل والاوسط بهيئة آلات وادوات حجرية أبرزها حجارة القطع والفرم وبعض الفؤوس الحجرية الكمثرية الشكل والشظايا والمقاشط والسكاكين والمثاقب وغيرها من الصناعتين الأشولية والموستيرية والتي حدد زمانها بين ثلاثمائة ألف سنة إلى ثمانين ألف سنة قبل الآن في صحراء الرطبة ومنطقة الرزازة - الأخيضر غربي كربلاء وفي الصحراء الكائنة بين غربي منطقة أور - أريدو خارج السهل الرسوبي من جنوب غربي العراق في محافظة ذي قار وعلى طرفي نهر الفرات في منطقة الفحيمي وقرب المصنع في حوض سد الفرات (القادسية)، وعلى طرفي نهر دجلة في حوض سد اسكي موصل وإلى الجنوب من مركز ناحية فايدة في محافظة دهوك على الضفة الشرقية لنهر دجلة واكتاف الوديان المؤدية اليه في أطراف قريتي كرخوش وبابيرة المغمورتين بمياه الحوض الآن. وفي منطقة برده بالكه إلى الشرق قليلاً من مركز قضاء جمجمال في محافظة السليمانية وفي الطبقات السفلى من كهف شانيدار في محافظة أربيل في كردستان العراق، كما عثر على بقايا العصر الحجري القديم الاعلى (٣٠ ألف - ١٢ ألف سنة قبل الآن) لأول مرة في كهفي زرزي وهزار مرد في منطقة السليمانية وفي الطبقات العليا في كهف شانيدار وفي كهف بالي كوره وكهف بيخال في محافظة أربيل وكهف باراك في محافظة نينوى واكتاف وادي الأبيض في منطقة الأخيضر في محافظة كربلاء. وقد أطلق على هذه المرحلة الأخيرة من مراحل العصر الحجري القديم في العراق اسم العصر البرادوستي (Baradostian)، نسبة إلى جبال برادوست التي يقع فيها كهف شانيدار الذي تظهر بعض طبقاته السكنية بقايا مميزة لهذا العصر.

وعند نهايات العصر الحجري القديم الاعلى (في حدود ١٥ الف -

١٢ الف قبل الآن)، وحين بدأ مناخ العالم بالتغير وقارب آخر عصر جليدي على الإنتهاء وبدأت مرحلة الدفء والجفاف النسبي تسود العراق ومنطقة الشرق الاوسط، اخذ العراقيون سكنة الكهوف في منطقة كردستان العراق يهجرون كهوفهم ولفترات طويلة، ولاسيّما في اشهر الصيف باحثين عن مقار ومستوطنات وقتية في العراء غير بعيدة عن أماكن كهوفهم ومغاورهم قرب الينابيع والجداول ومجاري المياه، وينزلونها مع عوائلهم واطفالهم. ومن أبرز تلك المقار الأولى التي حلّ فيها هؤلاء العراقيون بعد خروجهم من الكهوف هي زاوي جمي على ضفة الزاب الاعلى قرب كهف شانيدار وكريم شاهر، واسفل طبقات جرمو، قرب جمجمال، وملفعات على الكتف الغربي لنهر الخازر إلى الشمال قليلاً من طريق الموصل - أربيل العام، ونمريك على ضفة نهر دجلة الشرقية إلى الغرب قليلاً من مركز ناحية فايدة، والمغزلية وقرمز دره إلى الغرب من قلعة تلعفر، وتمرخان إلى الشمال قليلاً من مركز قضاء مندلي في محافظة ديالى. وتل ريحان على الكتف الغربي لنهر نارين في الطرف الغربي من حوض سد حمرين، وعشرات غيرها بانتظار الكشف والتنقيب. وفي هذه المقار والمستوطنات الأولى شبه الدائمية احتاج سكنتها الأوائل إلى مسقفات تحميهم واطفالهم من حر النهار وبرد الليل ومن المطر، كما تطلبت حاجياتهم إلى أماكن لخزنها، فبدأوا ولأول مرة في تاريخ البشرية يخططون أولى منازل سكناهم وكانت اكواخ دائرية بسيطة شيدت أسسها واسافل جدرانها من الحجارة والطين وسقفت بالقصب واغصان الاشجار وجذوعها.

أظهرت الدراسات والمسوحات الأثارية التي اجرتها فرق العمل المساهمة في حملة التنقيبات الانقاذية في حوض سد اسكي موصل في اواسط الثمانينات وجود مخلفات اكيدة لإنسان العراق خلال المراحل

الأولى من العصر الحجري القديم يرجع زمنها إلى ما قبل ثلاثمائة ألف سنة، تشمل ادوات وآلات متناثرة في عدد كبير من المقار الكائنة على مصاطب نهر دجلة الأربع التي كونتها المراحل الجليدية خلال دهر البليوستو سين في المليون سنة الأخيرة من عمر الأرض.

فقد عُثر على ما يقرب من أربعين مستوطناً لإنسان العصر الحجري القديم الاسفل على مصاطب نهر دجلة فوق قرية رفان عليا إلى الجنوب من مركز ناحية زمار في الطرف الغربي من الحوض. كما عُثر على ما يقرب من نصف هذا العدد من مقار ذلك الإنسان على مصاطب دجلة الشرقية واكتاف الوديان المؤدية اليه جنوبي مركز ناحية فايدة. وفي أوائل الثمانينات وجدت اعداد اخرى من مقار إنسان العصر الحجري الاسفل على طرفي نهر الفرات في منطقة الفحيمي قرب المصنع في حوض سد القادسية. وقبل ذلك وفي مطلع الخمسينات على وجه التحديد، عُثر على العديد من مستوطنات هذا الإنسان وادواته الحجرية في صحراء الرطبة غربي العراق.

ووُجدت آلات وادوات إنسان العصر الحجري القديم بقسميه الاسفل والاوسط، في أوائل السبعينات من القرن العشرين، في مقار أبرزها : طار الجمل، وحفنة الأبيض في القسم الغربي من محافظة كربلاء، بين منخفض الرزازة وقصر الأخيضر غير بعيد عن مجموعة كهوف الطار، كما التقطت من أماكن مرتفعة في نفس المنطقة قبل ذلك بعقدين من السنين ادوات وآلات حجرية يعود زمنها إلى القسم الاخير من العصر الحجري القديم. ووُجدت في اواسط الستينات أَعدادٌ من الشظايا والمقاشط الموستيريه من العصر الحجري القديم الاوسط يرجع زمنها إلى ما قبل سبعين ألف سنة، في مستوطن يقوم على الكتف الأيسر لوادي القصير (يدعى أيضاً بشعب القصير) في الصحراء

جنوب غربي منطقة اور – اريدو وخارج السهل الرسوبي.

وفي منطقة كردستان العراق الجبلية عُثر على مواطن إنسان العصر الحجري القديم منذ أواخر العشرينات من القرن الماضي، إذ قد كشف، في مجموعة من كهوف منطقة السليمانية، عن ادوات هذا الإنسان في كهفي زرزي وهزارمرد : الأول كهف صغير في الجبال المقابلة لمركز ناحية سورداش، ويُشاهَد الثاني إلى يمين الطريق العام الذاهب إلى السليمانية بمسافة ثلاثة عشر كيلومترا. كما عثر على آثار إنسان العصر الحجري القديم الاعلى في كهف بالي كوره الكائن في سلسلة جبال قره داغ إلى يسار الطريق الذاهب إلى السليمانية وقبل الوصول إلى تقاطع طاسلوجة ببضعة كيلومترات. وتنتشر حول صخرة برده بالكا، الكائنة على بعد أربعة كيلومترات إلى الشرق من مركز قضاء جمجمال، ادوات وآلات من الصناعة الحجرية الأشولية، يرجع زمنها إلى ما قبل مائة ألف سنة. وفي جبال برادوست، في محافظة أربيل، وعلى ارتفاع ٢١٠٠ قدم فوق سطح البحر، يقع كهف شانيدار ليس بعيداً عن الضفة الشرقية للزاب الاعلى، وهو اوسع الكهوف في منطقة كردستان العراق، ويبلغ عرض فتحته ٨٢ قدماً وارتفاعها ٢٦ قدماً، ويتّسع عرضه من الداخل فيصل إلى ١٧٥ قدماً وعلو سقفه في الوسط ٤٥ قدماً عن أرضيته الحالية ويتلاشى هذا السقف في نهاية الكهف على بعد ١٣٠ قدماً عن فتحته. بدأت أول أعمال الإستكشاف في كهف شانيدار في عام ١٩٥١ واستمرت بمواسم متقطعة حتى نهاية عام ١٩٦٠. وقد كشف عن طبقات للسكن في أرضية الكهف الحالية من احدث العهود إلى اقدم استيطان فيه يرقى إلى العصر الحجري القديم الاوسط المسمى بالدور الموستيري وكانت بدايته قبل نحو سبعين ألف سنة في قاع الكهف على عمق ٤٣ قدماً تعقبه من اعلى المرحلة البرادوستية من العصر الحجري

القديم الاعلى والتي بدأت قبل ما يقرب من ثلاثين ألف سنة، تلي ذلك طبقة تمثل العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) الذي يتميز بآلاته الدقيقة من حجر الصوان الذي يرجع زمنه إلى ما قبل اثني عشر ألف سنة. ثم تختم طبقات السكنى في اعلى أرضية الكهف ببقايا العصر الحجري الحديث الذي كانت بدايته قبل نحو عشرة آلاف سنة. إن أبرز ما كشف عنه التحري الآثاري في قاع أرضية الكهف الهياكل العظمية التي وجدت في الطبقة الموستيرية السفلى. فقد عُثر على سبعة منها تعود إلى إنسان النياندرتال، بينها هيكل لطفل من النوع نفسه. ودلت الدراسات المختلفة في التاريخ الجيولوجي للكهف، وبنتيجة فحص تربته، ان مناخ شمالي العراق كان يختلف عما هو عليه الآن. فقد مرت فترة جيولوجية عمت فيها الرطوبة والحرارة ادت إلى نمو انواع من النخيل في المنطقة. وقد دلَّ على ذلك ما وجُد من غبار طلع النخيل في تربة كهف شانيدار.

٣- أضواء على اثرية (دير مار بهنام وضريحه) [١]

في الشهر الماضي كلمكم الاب الدكتور يوسف حبي . مفتتحاً بذلك اولى ندوات هذا اليوبيل بذكرى الشهيد بهنام ورفاقه الأبرار. عن أصالة الحدث تاريخياً، وبظني انه أجاد في ابراز حقيقة الحدث ونفض عنه الكثير من الاوهام العالقة بالمأثور الشعبي .

في هذا الصباح سنحاول انا وزميلي الاستاذ يوسف ذنون القاء بعض الضوء على حقيقة المخلفات الاثرية والمعمارية في مبنى الدير والضريح (الجب) والمرتفع الاثري الملاصق له سيتكلم زميلي الفاضل عن المعالم المعمارية والفنية في مبنى الضريح والكنيسة والزخارف والكتابات

(١) ألقى المؤلف هذا الحديث في شهر شباط من عام ١٩٨٥ في سلسلة الأحاديث التي ألقيت بمناسبة اليوبيل الألفي لاستشهاد القديس بهنام ورفاقه.

التاريخية في كليهما.

اما حديثي فسيقتصر على تبيان النقاط التاليه بأختصار :

١- المرتفع الأثري وعلاقته بالضريح وكنيسة الدير وبالحدث ككل.

٢- الضريح في حضارة العراق القديم.

٣- حقيقة ما يتناقله المأثور الشعبي حول النفق الذي يصل بين الضريح والعاصمة والآشورية نمرود.

٤- ان ما تقدمه هذه الأدلة مجتمعة هو في الواقع تأكيد على اصالة الحدث وتاريخه.

تل الخضر المجاور لكنيسة دير الشهيد بهنام والذي يقوم ضريحه (الجب) عند قاعدته الشمالية، هو مرتفع أثري لا يتجاوز علوه خمسة امتار، طوله من الغرب الى الشرق بشكل بيضي تقريباً. وهو بهذا الشكل والامتداد كان يوحي للناظر لأول وهلة انه ربما يضم بين طياته بقايا لبناء واحد وواسع مشيد من اللبن قد يكون كنيسة او معبداً وان الاحتمال الأخير (اي كونه كنيسة) كان يقوى عند المتطلع اليه بسبب شكله وامتداده (غرب - شرق) وطبيعة الاحداث التي ارتبطت بالمباني الكائنة قربة خاصة اذا ما علمنا بأن اشكال عمارة الكنائس كانت ولا تزال تأخذ هذا الامتداد في الغالب وبأتجاه الشرق .

ان القطع بهذا الاحتمال كان سيجيب عليه التنقيب فقط وليس غير، إذ ان سطح الموقع وسفوحه خالية تماماً من اية ملتقطات اثرية يمكن ان تدل على مكنوناته بسبب كثرة الزوار الذين يرتادون المنطقة سنوياً وعلى مر الأجيال .

ان مناسبة الاحتفال باليوبيل المئوي السادس عشر لاستشهاد القديس بهنام ورفاقه الأبرار على أيدي الفرس الساسانيين الغزاة في القرن الرابع الميلادي كان فرصة مناسبة للتفكير بشكل جاد بالمخلفات

البنائية في مجمع الدير والضريح ومحاولة البت بالعلاقة التاريخية والأثرية وبينها وبين المرتفع الاثري (ان وجدت) خاصة الضريح والدير بصورة عامة.

من الجلي الآن ان الضريح (الجب) بعمارته الحالية وربما الأقدم من ذلك بكثير قد شيد على بقعة من الارض اقتطعت بالاصل عند القاعدة الشمالية للمرتفع الأثري وغاصت اسفل سطح ارض السهل المجاور بأكثر من ثلاثة امتار تقريباً. ان هذا الاقتطاع من اطراف المرتفع الأثري والبقعة المجاورة شرقاً وفرت لنا مجالاً رحباً لفحص مكونات التل وبعناء قليل استطعنا التعرف على ما يبطنه من قمته وحتى قاعة أسفل الشارع المجاور، وهي تمتد في اعماق الماضي حتى اواسط الألف السادس قبل الميلاد حيث تقوم اول وأقدم طبقة سكنية في هذا المستوطن والتي يرجع زمنها الى المرحلة المعروفة لدى الآثاريين بعصر حسونة (احد اول ادوار الفخار الاولى في مرحلة ما قبل التاريخ حيث بدأ العراقيون الاوائل في شمالي العراق تأسيس قراهم الزراعية) يعقبها من اعلى طبقات حلف والعبيد والوركاء (حيث بدأت أولى مراحل الحضارة العراقية الناضجة والمسماة بالسومرية نسبة للعراقيين الذين تكلموا اللغة السومرية في تلك الفترة). ثم جاءت طبقة سكنية سميكة الى حد ما لتشير الى مرحلة تواجد الاستيطان الأكدي في هذه البقعة من شمالي العراق (وهي زمن اول امبراطورية عربية في التاريخ اسسها العاهل الأكدي سر جون). اعقبتها من أعلى بقايا مراحل تاريخية عُرفت في المنطقة في الألف الثاني قبل الميلاد كالعهود الآشورية القديمة والوسطى والحديثة. كما نشاهد في المستويات العليا للموقع شواهد قليلة على زمن الاحتلال الفرثي والساساني الفارسي للمنطقة.

بهذا نكون قد وقفنا على مكونات المرتفع الاثري المسمى بتل الخضر

محلياً اذ انه بدلاً من ان يضم بقايا بناية واحدة كما كان يظن، ظهر احتواؤه على بقايا لمراحل طويلة من ماضي قطرنا وعلى امتداد اكثر من ستة الاف سنة. وقبل ان نترك الموقع لحاله انتقلنا لفحص قمته (اي سطحه الواسع) وبقليل جهد تمكنا من اقتفاء آثار بقايا لجدار مشيد من الطابوق المربع الشكل (مقاساته ٢٥×٢٥×٧سم) بمادة الجص يقع أسفل سطح التل بعمق لا يتجاوز اربعين سنتمتراً. تأكد لنا عندئذ ان بقايا هذا الجدار يطابوقه المميز يعود لبناء او اكثر من الفترة الاتابكية في اواخر العصر العباسي (القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي). وهذا الزمن يتفق تماماً مع زمن بناء الكنيسة الحالي والضريح. اذ ان اعداداً كبيرة من طابوق بهذا الشكل والمقاس قد استخدم في تشييد اجزاء ظاهرة من كنسية الدير والضريح (الجب). خاصة في جدران الدهليزين المؤديين الى غرفة الضريح ذات القبة . ان هذه الاعداد المميزة من الطابوق الاتابكي الداخلة في تشييد او تجديد أقسام من الكنيسة والضريح قد تكون منقولة من ذلك البناء الذي كان يقوم على سطح التل الاثري عند تجديد الكنيسة والضريح في الفترة نفسها ايضاً. وعلى ما يظهر ان كلا من كنيسة الدير والضريح قد جددا مرة اخرى في الفترة الالخانية اللاحقة (أواخر القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر الميلاديين) اذ ان غالبية الطابوق المشيدة به جدران الكنيسة والضريح هي من فترات لاحقة تعود لهذا العصر.

مما مر اعلاه، يلاحظ ان المرتفع الاثري الملاصق لمبنى الضريح يعود لازمان موغلة في القدم، وانه كان منتصباً بارتفاعه الحالي على الاقل حين وقوع الحدث ربما عند سفوحه الشمالية، حيث اقتطع في تلك البقعة التي حدثت فيها الشهادة قبراً جماعياً يضم رفات الشهيد ورفاقه، يرجع زمانه الى اواخر القرن الرابع الميلادي (وهو زمن وقوع الحدث).

هذا وليس من سبيل للوصول الى ذلك الضريح الاول والتعرف على شكله وطرازه دون التنقيب أسفل او طيات الضريح الحالي المجدد بعدئذ (فيما بعد القرن العاشر الميلادي على أبعد احتمال). مع هذا فباستطاعتنا التكهن الآن بأن ذلك الضريح الاول قد اقتطع وشيد عميقاً في الارض على عادة القبور وأضرحة الفترة الهلنستسية السائدة آنذاك والذي هو اسلوب وعادة عراقية اصيلة وقديمة جداً في حضارة وادي الرافدين.

اذ عرفناها منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد في الوركاء حيث اقتطع العراقيون في زمن جمدة نصر حفرة في الارض جوار معبد الاله انو من المدينة التاريخية وشيدوا ضريحاً مستطيل الشكل من الحجارة المهندمة للآله – الملك دموزي. كما فعل العراقيون القدامى أنفسهم الشيء نفسه في منطقة ديالى ومن نفس العصر ايضاً (جمدة نصر) حيث تشاهد دكة مستطيلة تقريباً مشيدة من اللبن الصلد في مركز بناء دائري مسقوف، وتلف حول دكة الضريح هذه سبعة ممرات دائرية حيث كان يتم الطواف حول رمز الضريح الآله – الملك دموزي ايضاً في تل الكبة عند ملتقى نهر نارين بديالى في اخصب بقعة خضراء من حوض سد حمرين . ولا ننسى المقبرة الملكية في اور الغائرة في الارض في اواسط الالف الثالث قبل الميلاد وكذلك المقبرة الملكية في مدينة آشور والتي ضمت رفات مشاهير الملوك الآشوريين خلال الألف الثاني قبل الميلاد والتي نشاهدها غائرة في الارض هي الأخرى الى الجنوب قليلاً من منطقة الزقورة وقصر الأباء (القصر القديم) في العاصمة الآشورية الاولى. هذا وان المقابر والأضرحة العديدة المنحوتة او المشيدة تحت الأرض والتي كشفت عنها التنقيبات الأثرية على طريق نهر الفرات في منطقة غمر حوض سد القادسية. والتي ترجع بأزمانها الى أواسط

الألف الاول قبل الميلاد وما بعده دليل واضح على استمرار هذه الطريقة من اقامة الاضرحة في قطرنا. وان ضريح الشهيد بهنام ورفاقه الابرار هو استمرار لهذا التقليد الحضاري. غير ان الضريح بشكله الحالي الذي هو عليه الآن بقبته العالية والدهليزين المنحدرين الى غرفة الدفن من جهة الغرب حيث تقوم غرفة عالية تتألف من قسمين : المدخل في المقدمة يعقبه غرفة مربعة حيث تقام شعائر الزيارة ومن هذه الغرفة الاخيرة تنحدر عدد من الدرجات تقود الى الدهليزين .

هذا البناء بأكمله صيغة متأخرة على ما نعتقد للضريح الاول الذي يقوم في مكان ما اسفل البناء الحالي كما اسلفنا أعلاه .

ان الحفرة الغائرة التي ظهرت في العام الماضي اثناء تسوية الارض الكائنة بين غرفة الدفن والمرتفع الاثري تدلنا بشكل أكيد على مدخل الضريح الأقدم (الاول) الذي ان اردنا البحث عنه علينا النزول عميقاً اسفل هذه الحفرة باتجاه القبر .

بسبب وجود فتحة مدخل صغيرة تقود الى فجوة في الحنية الجنوبية لغرفة الدفن معقودة بطابوق صغير الحجم من فترة لاحقة للفترة الاتابكية (زمن تجديد الضريح والكنيسة)، ساد الاعتقاد الشعبي عن وجود نفق تحت الارض يصل بين الضريح والعاصمة الآشورية الثانية نمرود، والكائنة على بعد يزيد عن عشرة كيلومترات غرباً. ان مما يعزز هذا الاعتقاد لدى البعض ما جاء في المأثور الشعبي الذي نسج حول حدث الاستشهاد وربطه بسيدة نمرود في ذلك الزمن، وهي زوجة الحاكم الساساني وأم الشهيدين بهنام واخته سارة وانها كانت تأتي خلسة لزيارة قبر ولديها ورفاقهما عبر ذلك النفق. ان طبيعة المنطقة التي تفصل بين المكانين وتضاريسها والمسافة بينهما لا تسمح باقامة مثل هذا النفق مطلقاً.

ان الصيغة المقبولة في هذه الحالة والتي بسببها على ما نعتقد بني المأثور الشعبي حول وجود النفق هو : ان الضريح الاول الذي انشئ في باطن الارض بعد الحدث ربما بزمن ليس ببعيد، كان ينحدر اليه بمدخل عمودي ضيق تدلنا عليه آثار الحفرة الكائنة وراء الجدار الجنوبي للضريح الحالي، وان هذا المدخل كان يقود في حينه الى مزار او كنيسة صغيرة قريبة من الضريح الاول وربما مكانها في قمة التل، او عند منحدره الشمالي. وعند انتفاء الحاجة لتلك الكنيسة الصغيرة ومن ثم ازالتها وبعد تجديد الضريح بالهيئة التي نشاهده عليها اليوم بحيث تغير مدخله وأصبح الوصول إليه عن طريق الدهليزين بعد المرور بالغرفة المتقدمة للدرج، ظلت صورة المدخل العمودي الذي يقود للكنيسة الصغيرة في الجوار عالقة بالاذهان حيث انتقلت بمرور السنين الى المأثور الشعبي وأصبحت في ذهن البعض حقيقة لا يمكن التخلي عنها وامتزجت بكثير من الاقاصيص والحكايات الشعبية التي تحيط بالحدث الاصلي وظروفه .

مما تقدم نجد بأن هناك من الأدلة الأثرية والأخرى التي تنتظر التنقيب كافية بمجموعها لالقاء الضوء على أصالة الحدث وتاريخيته، مهما علق بهذا الحدث من اقاصيص وحكايات قد تبدو للبعض انها على شئ من الخيال.

٤ - تحامل اليهود على الحضارة العراقية القديمة [٢]

إهلكوا جميع ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ !

"ايشوع"

(٢) أجرى هذا الحوار مع المؤلف الكاتب عادل كامل في مجلة آفاق عربية عدد ١١ (تشرين ثاني) لسنة ١٩٨٥.

تعود معرفة المؤرخ الاثاري د. بهنام ابو الصوف بتاريخ اليهود الى مرحلة الطفولة والمراحل اللاحقة فقد اطلع على بعض نصوص التوراة من خلال دروس الدين الاولى، وازدادت معرفته بهذا التاريخ في المراحل الدراسية اللاحقة، وعلى وجه الخصوص دراسته للتاريخ القديم والاثار والحضارات القديمة. وتعامله مع الموضوع خلال ربع قرن او اكثر وعبر الدراسات المعمقة والقراءات المتكررة لنصوص العهد القديم، وما يماثلها في حضارات العراق والشرق الادنى القديمين فضلاً عن دراستة العلمية الدقيقة للنصوص الاكثر قدماً، والاكثر صلة بجذور حضارات المنطقة العربية توصل الدكتور ابو الصوف الى جملة من الاراء والاستنتاجات المتجردة من التعصب المسبق، وبرؤية مؤرخ شاملة تتوخى وضع الحقائق في مكانها وزمانها الحقيقيين، دون مؤثرات خارجية مهما كان نوعها ودون تعصب يقود الى الضلال والعموميات التي لا تخدم البحث التاريخي لاسيما ونحن في عصر بلغت فيه ادوات البحث ووسائله من العمق والدقة ما لا يدع مجالا لغير الاراء المتجردة من الهوى والمسندة بالحقائق والادلة والموثقة بعناية وبفكر واضح ورؤية فاحصة وواعية لمستلزمات المؤرخ والباحث في عصرنا. ان عملية اعادة كتابة التاريخ، تتطلب هذا المنهج الفاحص، والرؤية الواضحة، والايمان بضرورة اعادة النظر في تاريخ امتنا وحضارتنا الاصيلة وتشذيبها مما علق بها من تشويه وتحريف على مر العصور...

ان هذا الحوار مع المؤرخ الاثاري بهنام ابو الصوف يضعنا في اخطر قضية وهي القضية القديمة – الجديدة التي تواجه امتنا في مرحلة هي غاية في التعقيد .. انها تخص

اولاً: تعاطف الغرب المسيحي مع الحركة الصهيونية المتسربلة بغلاف ديني وتخص.

ثانيـاً: تحامل اليهود على الحضـارة العراقية القديمة في اقوى مــراحلـهــا العسكـرية والسيـاسيـة والفكـرية. كمـا توضـح.

ثالثاً: جوانب تخص ادعاءات اليهود، عبر التاريخ، بكونهم سادة البشرية واصحاب الحضارة والفكر والتشريع. بينما هم ليسوا في الواقع الا ناسخين ومتأثرين بوضوح تام – وفي اسفارهم كلها – وفي كتبهم وتعاليمهم بالفكر والثقافة والفلسفة والتشريع في العراق والشرق الادنى القديمين.

ويمكن ان نعد هذا الحوار خلاصة لآراء هذا الباحث المؤرخ الذي عمل في حقل الاثار والحضارات القديمة اكثر من ثلاثين سنة، قضاها في الدرس والتتبع النظري والميداني، وهي اراء لا تخص عملية اعادة كتابة التاريخ فحسب، بل تجعلنا على وعي عميق بروح حضارتنا وشموليتها الكلية الانسانية، وتمنحنا رؤية فكرية وفلسفية وعقائدية ننطلق منها نحو بناء علاقاتنا الجديدة مع الغرب ومحاولة التأثير في قناعاته المغلوطة ويمكن اعتبار هذا الحوار نقطة بدء لمناقشات اوسع واشمل تخص جوانب عديدة لم نناقشها هنا لضيق المجال .

• في الغرب منذ قرن من الزمان او ما يزيد، ارتفعت اصوات مؤيدة للحركة الصهيونية، تنادي بانشاء الدولة اليهودية العنصرية التي تبناها الكثير من الاوساط والمعاهد والجمعيات التوراتية. وقد انطلت حججها في حينه وما زالت منطلية على البعض في هذا " الغرب "....

رأيكم في الاسباب التاريخية والنفسية التي جعلت الغرب مع هذه الدعوة العرقية ؟

– ظل الغرب قروناً طويلة وما يزال يقرأ ما فرضه عليه كتبة اليهود واحبارهم في اسفارهم، وقد صدق هذا الغرب ما اراد له اليهود والصهيونية ان يصدق، وانطلى التمويه والخداع حتى على الكثير من آباء

الكنيسة، فاستطاع اليهود بهذا تكريس كل المفاهيم والمبالغات القائمة على التحريف والتزوير وزرعها في نفوس شعوب تلك المنطقة التي بدا لها ان تاريخ اليهودية، وآلامها المزعومة عبر القرون هي تاريخ الكنيسة ومعاناتها، وان الاناجيل وما فيها من احداث وحكم وامثال هي امتداد لنبوءات أنبياء بني اسرائيل ورؤاهم، وان اعداء يهود العهد القديم هم أعداء المسيحية، وان الآشوريين والبابليين هم قتلة "شعب الله المختار" وانبيائه، وان نينوى وبابل، مدينتي "الكفر والخطيئة" قد حقت عليهما لعنة الرب (بهوه) ولن تقوم لهما قائمة الى الابد ! إلا انهم (اي احبار اليهود) نسوا او تناسوا ان يخبروا الغرب المسيحي بأن روما قد احرقت القدس وجعلتها طعمة للنيران في عام (٧٠) ميلادية، وانها استأصلت اليهود من جذورهم وشردتهم في الافاق. ونسوا ان يلعنوا روما في أسفارهم ومزاميرهم، رغم ان ما فعلته بهم قريب عهد بالامكان تذكره وادخاله في اسفارهم من جديد، كما فعلوا باحداث ومسائل أخرى حينما دونوا الاسفار الأخيرة من العهد القديم. من الواضح انهم احجموا عن فعل ذلك لأن روما هي عاصمة الحضارة الغربية وفيها مركز الكنيسة وقاعدتها التي تريد اليهودية خداعها وتحريضها. وامعانا في استغفال هذا الغرب وتأجيج حقده وكراهيته على الشرق، وضعوا على لسان احد أقرب تلاميذ المسيح اليه واحبهم الى نفسه (يوحنا الحبيب) جملة من الاقوال والشتائم، ففي "رؤيا يوحنا" التي تتألف من ٢٢ فصلا، ورد في الفصول ١٦-١٧-١٨ من الرؤيا، اقوال ومسائل لا علاقة لها برسالة السيد المسيح والتعاليم والمفاهيم المسيحية الانسانية، بل فيها الكثير من التشفي والشتائم والاستعداء على عاصمتي العالم القديم نينوى وبابل. وهي اقوال لا يمكن لاحد حواريي عيسى (عليه السلام) ان يتلفظ بها، كما انه ليس له ولا لعقيدته الجديدة اية مصلحة للاتيان بمثلها

وتدوينها. وكانت النتيجة مثلما خططوا تماما .. اي عطف مجتمعات الغرب وكنائسه وساسته ومؤرخيه وكسبها كلها الى جانبهم والوقوف بصف مخططاتهم وتآمرهم وشرورهم .

• وهل هناك أسباب أخرى تشترك مع ما ذكرته في تأييد الحركة الصهيونية ودعمها ؟

- بالتأكيد هناك اسباب معروفة للجميع ومنها الاسباب السياسية والاقتصادية والاستراتيجية والتي بحثت كثيرا في مناسبات عديدة ووضعت فيها دراسات ومؤلفات واسعة. وهذه الأسباب حركت اطماع الغرب لخلق موطئ قدم في المنطقة العربية، الا ان الأسباب التاريخية النفسية التي ذكرناها اعلاه، تؤلف القاعدة الشعبية الصلبة التي لعبت دوراً كبيراً في تهيئة أذهان الغرب المسيحي بمختلف شرائحه وطبقاته.

• سنتطرق في حديثنا لاحقاً الى تحامل اليهود على الحضارة العراقية القديمة واسباب هذا التحامل .. لكننا نود ان نتعرف على شيء مما ورد في الفصول (١٦-١٧-١٨) التي ذكرتها في رؤيا (يوحنا الحواري) ؟

- إليك بعضاً من هذه الاقوال التي وضعت على لسان تلميذ السيد المسيح، صاحب احد الأناجيل الأربعة المعروفة .. ومنها:

(وصارت المدينة العظيمة - بابل - ثلاثة أقسام ومدن الأمم سقطت، وبابل العظيمة ذكرت امام الله ليعطيها كأس خمر سخطه وغضبه).

- وقول آخر:

(وعلى جبهتها اسم مكتوب، سر بابل العظيمة، ام الزواني ونجاسات الأرض).

لاحظ اسلوب العهد القديم في هذه التعابير وفي مايلي من اقوال نسبت الى يوحنا الحبيب ايضاً :

(ثم بعد هذا رأيت ملاكاً آخر نازلاً من السماء له سلطان عظيم

واستنارت الأرض من بهائه .. وصرخ بشدة بصوت عظيم قائلاً: سقطت بابل العظيمة وصارت مسكناً للشياطين ومحرساً لكل روح نجس ومحرساً لكل طائر نجس وممقوت).

وفي النص التالي وما يليه كأننا ننصت الى صوت "يهوه" يهدر :

(ثم سمعت صوتاً آخر من السماء قائلاً: اخرجوا منها يا شعبي لئلا تشتركوا في خطاياها ولئلا تأخذوا من ضرباتها لأن خطاياها لحقت السماء وتذكر الله آثامها).

وهنا يأتي انتقام يهوه قاسياً :

(جازوها كما هي ايضاً جازتكم، وضاعفوا لها ضعفاً نظير اعمالها، في الكأس التي مزجت فيها امزجوا لها ضعفاً) ..

(بقدر ما مجدت نفسها وتنعمت بقدر ذلك اعطوها عذاباً وحزناً) ..

والنصوص التالية مملوءة بالتشفي والكراهية :

(وسيبكي وينوح عليها ملوك الارض الذين زنوا وتنعموا معها حينما ينظرون دخان حريقها)

وآخر :

(ويقولون ويل ويل المدينة العظيمة المتسربلة ببز وارجوان وقرمز والمتحلية بذهب وحجر كريم ولؤلؤ) والفرح بسقوطها: (صوت الضاربين بالقيثارة والمزمرين والنافخين بالبوق لن يسمع فيك في ما بعد وصوت عريس وعروس لن يسمع فيك في ما بعد).

• كل هذه النصوص نسبت الى (يوحنا) ؟

- نعم كل هذه النصوص وكثير غيرها ورد في الفصول الثلاثة التي اشرت اليها من رؤياه، والتي لاحظنا من اسلوبها انها تختلف كثيراً عن اسلوبه والفاظه في بقية الرؤيا او في انجيله. ومن الملفت للنظر في هذا الصدد ان رؤيا يوحنا هذه بخاصة ما يتعلق منها ببابل قد لاقت

في الغرب المسيحي رواجاً خاصاً وشهرة واسعة بحيث اقحمت غالبية مواضيعها في اعمال كثير من فناني عصر النهضة وما بعده وانتقلت كذلك الى الادب والقصة والشعر والموسيقى في القرنين الماضيين على وجه الخصوص.

• هذا ما تعرفنا عليه من خلال رؤيا " يوحنا " ويبدو انه قد دون بتأثيرات توارتية (يهودية) .. ترى كيف كانت نظرة التوارة الى حضارة العراق ..؟

- في العراق القديم، وعلى عهد الدولتين الاشورية والبابلية (الكلدية) تتلمذ اليهود في مسائل حضارية وفنية وعقائدية وتشريعية على ايدي العراقيين. ففي نينوى ومن مكتبتها الشهيرة (مكتبة آشور بانيبال) وقفوا على علوم العراق القديم ومعارفه وآدابه وملاحمه وقصصه وأساطيره وفلسفته وحكمته، كما استقوا من المكتبات والمعابد في بابل و(بورسيبا) و(سبار) و(نفر) والعديد من حواضر الدولة البابلية آنذاك الكثير من المعارف والعقائد والامثال والحكم والشرائع والاناشيد، لقد وجدنا اثرها كلها في اسفارهم وكتبهم ومزاميرهم التي دونوها في العراق او خارجه. ان هناك اقتباسات كاملة من نتاجات الحضارة العراقية ومسائل عديدة تظهر بوضوح في اسفار التكوين والاحبار والتشريع والاخبار والملوك والحكمة والامثال ونشيد الانشاد، وبدلاً من ان يعترفوا بفضل حضارة العراق عليهم راحوا يملؤون اسفارهم باللعنة والسباب والتشهير والتشفي بهؤلاء العراقيين، معلميهم، شامتين بسقوط عاصمتي العالم المتمدن آنذاك نينوى وبابل، لا لشيء الا لأن هؤلاء العراقيين ابوا ان يسمحوا لليهود بإضرام الفتن والشغب في المنطقة.

وبسبب هذا جاء تحامل اليهود على الدولتين العراقيتين وعلى لسان عدد من (انبيائهم) ابتداءً بيونان وناحوم وصفنيا الذين صبوا كل حقد

اليهود وشماتتهم على الاشوريين والعاصمة الخالدة نينوى، بينما اختص دانيال واشعيا وايرميا بالدعاء والتشفي بالبابليين وعاصمتهم الشهيرة (بابل) واليك نماذج من كل من هؤلاء كما جاءت في اسفارهم.

(قم اذهب الى نينوى وناد عليها فقد صعد شرها امامي).. (بعد اربعين يوماً تنقلب نينوى) (وبلغ الامر ملك نينوى فقام عن كرسيه وخلع رداءه عنه وتغطى بمسح وجلس على الرماد)

يونان : الفصل الاول والثاني

(ويل لمدينة الدماء! كلها مليئة كذباً. صوت السوط ورعشة البكر وبريق الرمح وكثرة الجرحى ووفرة القتلى.يغترون بجنتهم.سترى الامم عورتك والممالك حزنك. واطرح عليك اوساخاً واهينك واجعلك عبرة لمن يراك. خربت نينوى من يرثى لها)

ناحوم : الفصل الثالث

(اوصى يهوه بأن يختفي اسمك من كل بيت وتقفر معابدك وتنبش قبورك لأنك ملعونة صرت) .. (عيدي يايهوذا واوفي نذورك فزال عدوك ودمر)

ناحوم : الفصل الاول

(هذه كلمة يهوه التي صارت الى صفنيا بن كوش) .. (سوف يبسط يده – يهوه – نحو الشمال ويدمر آشور وسيجعل من نينوى مكاناً مهجوراً وارضاً قاحلة كالصحراء وستصبح ارضاً مرتعاً للبهائم ولكل وحوش الارض. وستنعق البوم والغربان في خرائبها. انظر ما حل بالمدينة السعيدة، المدينة المتباهية المتغطرسة التي كانت تتباهى بأن لا احد يضاهيها. كيف اصبحت صحراء وملجأ لوحوش الحيوانات. من سيمر بها سيلعنها)

صفنيا : الفصل الثاني

• وماذا بصدد بابل والكلديين ؟

– اليك نماذج مما جاء على لسان دانيال واشعيا وايرميا.. واود ان اوضح حقيقة عن دانيال في بابل وما اقترفه هو واليهود المقيمون في المدينة التاريخية بحق الدولة والتآمر مع اعدائها الفرس المتأهبين لغزوها. فقد كان دانيال احد اليهود الذين اسكنهم العاهل البابلي العظيم (نبوخذ نصر) مدينة بابل، حيث اختلط هؤلاء بسكان المدينة ولاقوا معاملة حسنة من الدولة، حتى ان بعضهم اصبح يمتلك الارض والعقار والمال ويدير اعمالاً مصرفية الا انهم بقوا على عدائهم لبابل يكيدون لها ويتآمرون مع اعدائها. فحين كان (كورش) – وهو مؤسس الدولة الاخمينية في فارس – يتأهب لغزو العراق كان على رأس الدولة في بابل في حينه ولي العهد (بيلشاصر) ونائب الملك (نبو نائيد)، الذي كان حينذاك منشغلاً في (تيماء) شمال الجزيرة العربية. ورغم ما ابداه (بيلشاصر) من استعداد للدفاع عن الدولة الا انها سقطت امام الغزو بفعل عوامل عدة، داخلية وخارجية، ابرزها غياب الملك عن العاصمة بابل، والانقسام الداخلي (الديني) وخيانة بعض رجال الدولة ودسائس الطابور الخامس اليهودي القريب من مركز السلطة في العاصمة. ان قصة الاصابع التي اخذت تخط بعض كلمات غريبة امام ناظري (بيلشاصر) ومدعويه في الوليمة الكبرى التي اقامها في قصره في بابل عشية سقوطها والتي يصورها الفصل الخامس من سفر (دانيال) هي احدى حلقات الحرب النفسية التي كان يمارسها زعماء اليهود في بابل.

وفي مايلي مقتطفات من هذه القصة كما جاءت على لسان دانيال في نبوءته :

(بيلشاصر الملك صنع وليمة عظيمة وشرب خمراً .. في تلك الساعة ظهرت اصابع يد انسان وكتبت على الحائط والملك ينظر .. فتغيرت هيئته وافزعته افكاره وطلب ادخال السحرة والحكماء فلم يستطيعوا قراءة الكتابة او تفسيرها)

ثم ادخل دانيال على الملك باقتراح من زوجة (بيلشاصر) فأخذ يقرأ الكتابة كما يلي :

(منا منا تقيل وفرسين) وتفسيرها الآتي :

(منا تعني : احصى الرب ملكك وانهاه. ثقيل تعني : وزن "ملكك" فوجده ناقصاً. فرسين تعني : قسمت مملكتك فأعطيت الى مادي وفارس)

وتستمر القصة لتخبرنا بأن نبوءة دانيال قد تحققت. ففي تلك الليلة بالذات دخل الفرس بابل. وهذا ما ورد في الفصل الخامس من "سفر دانيال" ولقاء خدمات دانيال ورهطه من اليهود لكورش وتعاونه مع قواته الغازية فقد لقى اليهود من كورش معاملة حسنة وسمح لبعضهم بالعودة الى فلسطين.

ولتكريم دانيال لقاء خدماته الكبيرة للفرس الغزاة فقد نصبه كورش واحداً من وزرائه الثلاثة في بابل.

دانيال الفصل السادس

• وماذا عن سفر اشعيا ؟

- تنسب الى اشعيا ثلاث مجاميع من النبوءات (الفصلان ١٣ - ١٤) المجموعة الاولى تنقل ما جرى من احداث في عهده. والمجموعة الثانية خاصة بأيام الاقامة في بابل والثالثة تتكلم عن المستقبل.

ومن اقواله في بابل ما يلي :

(وستسقط بابل غداً وسيذهب الغالب بهذه الاوثان محمولة على الدواب)

(... ها آنذا اهيج عليهم الماديين الذين لا يعتدّون بالفضة ولا يسرّون بالذهب)
(وتصير بابل، بهاء الممالك وفخر الكلدانيين، خراباً يباباً)
(لا تعمر الى الابد ولا تسكن)
(لا يخيم هناك اعرابي ولا يربض هناك رعاة)
تملأها وحوش القفر، والبوم يملأ بيوتهم)
وتصيح بنات آوى في قصورهم وترعى الذئاب في هياكلهم)

اشعيا : الفصل الثالث عشر

(واقطع من بابل اسماً ونسلاً وذرية واكنسها بمكنسة الهلاك)

اشعيا : الفصل الرابع عشر

ان اشعيا – كما نعلم – قد عاش في القرن الثامن ق.م. وان احداث بابل وسقوطها قد حدثت في النصف الثاني من القرن السادس ق.م. ما الموقف الموضوعي من هذا ..؟

قلت في البداية ان هناك ثلاث مجاميع من النبوءات تنسب الى اشعيا، اذ ان هذا النبي توفي حوالي (٧٠٠) ق.م. اذن فالسفر الذي يحمل اسمه قد نسب اليه وقد دوّن بعد وفاته بأكثر من مائتي سنة.

• وماذا عن ايرميا ؟

– ولد ايرميا حوالي (٦٤٥) ق.م. في الريف الفلسطيني، فهو في اسلوبه واستعاراته متأثر بالوسط الريفي واجواء الحقول، وقد نشأ في عائلة كهنوتية وشاهد سقوط يهوذا بيد (نبوخذ نصر) وسمح له بالذهاب الى مصر حيث مات وهو شيخ في السبعين من العمر. ونقرأ في سفره في الفصلين (٥٠ – ٥١) تنبؤات عديدة عن بابل وسقوطها والتشفي بخرابها ونهايتها:

(هكذا قال يهوه ان اسوار بابل العظيمة تدمر تدميراً وابوابها الشامخة تحرق بالنار)

(سقطت بابل بغتة وتحطمت)
(انظر كيف صارت بابل خربة بين الشعوب)
بابل خزي بيل. انسحق مردوخ. خربت اوثانها. طلعت عليها امة من الشمال. هي تجعل ارضها خراباً فلا يكون فيها ساكن من انسان او حيوان)
(وتكون ارض الكلدانيين غنيمة)
كل مار ببابل يتعجب ويصفر بسبب كل ضرباتها)
اصطفوا على بابل وحواليها يا جميع الذين ينزعون بالقوس ارموا عليها لا توفروا السهام لأنها قد اخطأت الى يهوه)

• ترى ما سبب كل هذا العداء والتحامل والشماتة.. بالرغم من ان اليهود قد اخذوا الكثير من تراث العراق القديم وحضارته وفلسفته كما ذكرتم سابقاً ..؟

- يكمن السبب في تحامل اليهود وانبيائهم وتجنيهم على الآشوريين ومن بعدهم البابليين (الكلديين) في حقيقته ان الدولتين الآشورية والبابلية اتجهتا وبالتعاقب ومنذ النصف الثاني من القرن الثامن ق.م. وخلال القرنين التاليين الى اجتثاث اسباب الشغب من ارض فلسطين كيما يستتب الامن والاستقرار في المنطقة. فقد كان ذلك الكيان المغتصب لأجزاء من ارض فلسطين، بعد ازاحة سكانها الاصليين من الفلسطينيين والكنعانيين خلال تلك الفترة، مصدراً للفتن والدسائس والتحريض على الدولة الآشورية وزرع الفرقة بينها وبين دويلات المدن في بلاد الشام من جهة وبينها وبين مصر من جهة اخرى. لذا فقد قام الآشوريون ومنذ عهد (شلمنصر) الخامس ٧٢٧ – ٧٢١ ق.م. مروراً بسرجون الآشوري ٧٢١ – ٧٠٥ ق.م. الذي ازال كيانهم من القسم الشمالي من فلسطين ودمر حاضرتهم (السامرة) في ٧٢١ ق.م. ثم

سنحاريب ٧٠٥ – ٦٨١ ق.م. بعدد من العمليات العسكرية انهوا من خلالها نفوذ اليهود في البلاد واتوا بأعداد من الاسرى الى القسم الشمالي من العراق حيث اسكنوهم في نينوى واطرافها. وعندما دبت عوامل الضعف في جسد الدولة الآشورية بعد ان دال حكم آخر عاهل آشوري قوي (آشور بانيبال ٦٦٩ – ٦٢٩ ق.م.) وتحرك الحلف الميدي – الكلدي من الجنوب والشرق نحو العاصمة نينوى، كان اليهود القاطنون في قلب الامبراطورية الآشورية وعند مدنها الرئيسة آنذاك عاملاً اضافياً في تعجيل سقوط الدولة، فقد بذلوا جهدهم لدعم القوات المتقدمة لإسقاط العاصمة، باثين روح الاحباط والانهيار في صفوف المدافعين حتى اذا سقطت العاصمة نينوى واحرقت عن بكرة ابيها اعلنوا تشفيهم وفرحهم بما حل بها. وتكررت الحالة نفسها مع العاهل البابلي العظيم نبوخذ نصر ٦٠٤ – ٥٦٢ ق.م الذي ما ان استتب الامر له في العراق حتى اتجه نحو الخارج لتأمين حدود امبراطوريته وطرق تجارتها واتصالاتها مع الشمال والغرب، فاصطدم هو الآخر ببقايا الكيان اليهودي في جنوب فلسطين الذي كان قد بدأ يستعيد بعض قواه اثر انهيار الدولة الآشورية، فكان لا بد للعاهل البابلي من اجتثاث بقايا هذا الكيان مرة اخرى والقضاء على مصدر الفتنة في فلسطين. وقد تم له ذلك بثلاث حملات موفقة كان آخرها في عام (٥٨١ ق.م.) عندما ازال وجودهم من فلسطين واتى بأعداد كبيرة منهم اسرى الى بابل وضواحيها ومدن الفرات آنذاك. اذن هذا هو السبب المباشر الذي دفع باليهود واخبارهم وكتبتهم الذين دونوا اسفارة التوراة بعدئذ الى ملء بعض هذه الاسفار بالشتيمة والدعاء والشماتة بدولتي العراق القديم العظيمتين.

• اود ان تحدثنا عن الزمن الذي دونت فيه التوراة .. هل هو من زمن

واحد ام يعود الى أزمنة وأوقات متباينة ؟

- يتألف العهد القديم من مجموعة من الكتب او الاسفار دونت على عدة مراحل وبأيد عديدة. فقد اسهمت في تأليفها مجموعة متباينة من الاحبار والكتبة، لهذا لا نجد في اسفار العهد القديم اسلوباً واحداً متجانساً، فقد تكوّن هذا الكتاب خلال زمن طويل دام بضعة قرون وقد ختم يهوديّ ذو ثقافة يونانية مجموعة العهد القديم في عام (٨٠) ق.م. في الاسكندرية بكتاب اخير، هو كتاب (الحكمة) وابرز ما فيه موقف اليهودية من الوثنية. ويتألف العهد القديم من خمسة واربعين كتاباً تنقسم حسب نوعها وموضوعها كما يلي :

اولاً : كتب الناموس :

وعددها خمسة، وهي الاسفار الاولى من العهد القديم، وتدعى بالتوارة، وتضم اسفار التكوين، الخروج، الاحبار (طقوس العبادة)، العدد، تثنية الاشتراع (ويغلب عليه الطابع التشريعي).

ثانياً : كتب التاريخ :

وعددها ستة عشر وهي : ايشرع بن نون، القضاة، راعوث، صموئيل الاول، صموئيل الثاني، الملوك الاول، الملوك الثاني، اخبار الايام الاولى، اخبار الايام الثانية، عزرا ونحميا، طوبيا، يهوديت، استير، المكابين الاول والثاني ...

ثالثاً : كتب الانبياء :

وعددها سبعة عشر وهي : ايشعيا، ايرميا، باروك، حزقيال، دانيال، هوشع، يوئيل، عوبديا، يونان، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفنيا، حجاي، ملاخي .. الخ

رابعاً : كتب الحكمة :

وعددها سبعة .. وهي : ايوب، المزامير، الامثال، الجامعة، نشيد

الانشاد، الحكمة، يشوع بن سيراخ ..

وقد كتب معظم اسفار العهد القديم باللغة العبرية ما عدا سفر الحكمة والمكابيين الاول والثاني فإنها دوّنت باليونانية .. هذا واقدم نص بالعبرية (عثر عليه في عام ١٩٤٧ بالقرب من البحر الميت) هو ملف من الرق عليه النص الكامل بالعبرية لسفر اشعيا ويرجع زمانه الى القرن الاول للميلاد. ما عدا هذا فإن اقدم ما انحدر الينا من مخطوطان كاملة لأسفار العهد القديم بالعبرية يرجع الى القرن التاسع الميلادي وما بعده، الا انه وصلتنا ثلاث مخطوطات مشهورة باليونانية من هذا الكتاب. اولها محفوظة في مكتبة الفاتيكان منذ عام ١٤٨١ م ويرجع تاريخها الى القرن الرابع الميلادي. والثانية مخطوطة اكتشفت في دير القديسة كاترينا في صحراء سيناء من القرن الرابع الميلادي ايضاً وقد اقتناها المتحف البريطاني عام ١٩٣٣. والثالثة محفوظة في (لندرا) منذ عام ١٨٢٦ وقد كانت من بين كنوز وتحف بطريركية الاسكندرية ويرجع زمانها الى القرن الخامس الميلادي.

ويهوه في الاسفار الاولى من التوراة هو آله الجو والصواعق والغيوم (تماماً كالآله ادد في حضارة وادي الرافدين ومنذ الالف الثالث ق.م.) ثم تحول الى آله الجنود – الصباووت – (يقابله في العراق القديم الآله ننورتا لدى الآشوريين في اوائل الالف الاول ق.م.) والحرب، وهو آله عبوس جبار منتقم وقاس. وانه آله اسرائيل القومي كما كان مردوخ وآشور آلهي البابليين والآشوريين القوميين، وقد كان يهوه لا يشبع من القرابين والدماء والضحايا، حتى البشرية منها.

• هل هناك مثل على حب يهوه للدماء والقرابين ؟

– هناك مثل من زمن الملك سليمان الذي جلس اسبوعاً كاملاً في الهيكل وامامه تنحر الذبائح من العجول والخرفان قرباناً ليهوه،

الاسبوع بكامله، حتى بلغ عدد ضحاياه من النوعين عشرات الالوف. وعن قسوة يهوه وانتقامه نقرأ في سفر ايشوع ما يلي :

(اهلكوا جميع ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف .. واحرقوا المدينة وجميع ما فيها بالنار) !!

وهذا النص يكشف لنا عن قسوة اليهود وتعطشهم للدماء إبان هجومهم على فلسطين واستلاب اجزاء منها قديماً.

٥- شيء من تاريخ الاردن وحضارته في العصور القديمة

يؤلف الاردن الاجزاء الجنوبية الشرقية من بلاد الشام، تجاوره سوريا من الشمال والعراق والسعودية من الشرق، كما تنتهي حدوده الجنوبية عند اراضي الجزيرة العربية، وتجاوره من الغرب فلسطين. وكان للموقع الجغرافي هذا وطبيعة مناخ الاردن اثر واضح في تاريخه الطويل منذ اقدم العصور وحتى الوقت الحاضر.

هذا وان قيام المستوطنات البشرية على أرضه منذ عصوره الحجرية وخاصة تلك التي مارست الزراعة الديمية الاولى وتدجين الحيوان وتأسيس اقدم القرى الزراعية في مطلع العصر الحجري الحديث والتي كانت النواة الاولى للحضارة الناضجة ونشأة المدن وقيام الدول المتعاقبة في اقسامه الشمالية والوسطى والجنوبية ومنها العمونية والمؤابية والادومية. وتكّون البادية الاردنية ما يقرب من ثلاثة ارباع مساحة الاردن، وتقع الى الشرق من منطقة المرتفعات الجبلية، وهي تخلو من الانهار، ارضها قاحلة ومناخها صحراوي، وكمية الامطار التي تسقط فيها قليلة جداً. هذا وتتوجد المستوطنات البشرية الاولى في الاردن والتي مارس اهلها الزراعة وتدجين الحيوان بالقرب من مصادر المياه الدائمة، ومن ابرزها عين غزال على وادي الزرقاء ووادي شعيب

والصفية على وادي الموجب وعين الجمام بالقرب من وادي الجمام[٣].

قامت الممالك الثلاث العمونية والمؤابية والادومية في الاردن في اواخر الالف الثاني قبل الميلاد وقد بلغت اوج قوتها وازدهارها في القرن التاسع قبل الميلاد، او بعده بقليل، الا انها اخذت بالضعف والانحلال التدريجي بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد حيث حلت محلها الدولة النبطية العربية وعاصمتها البتراء، والتي امتد نفوذها ايام قوتها حتى دمشق في الشمال والعلا في الحجاز في الجنوب. واكثر الاراء قبولاً حول قيام هذه الدول الثلاث، وذلك تبعاً للمصادر الكتابية المصرية والاشورية والبابلية الحديثة (الكلدية) انها طورت وجودها وكياناتها محلياً، وان سكانها قد وجدوا اصلاً في المناطق الجبلية والسهلية من الاردن. ولا صحة للرأي القائل الذي يعزي وجودها الى تغلغل هجرات وغزوات من الخارج.

هذا وقد شغلت مملكة عمون المنطقة الممتدة بين وادي الزرقاء في الشمال والموجب في الجنوب، كما كانت اراضي مملكة مؤاب محصورة بين وادي الموجب شمالاً والحسا جنوباً، واستقر سكان مملكة ادوم بين وادي الحسا شمالاً وخليج العقبة جنوباً.

اتخذ العمونيون من ربة عمون (جبل القلعة في عمان) عاصمة لهم، وقد ازدهرت مملكتهم من أواخر الألف الثاني حتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد.

ويرى البعض ان العمونيين كانوا قد بدأوا بالاستقرار في مناطق عمان والبقعة وتل العميري وتل جاوة وحسبان ومادبا في حدود عام ١٢٠٠ قبل الميلاد. دوّن العمونيون نصوصهم الكتابية ووثائقهم على

(٣) اعتمد الكاتب في اعداد هذه الفقرة على كتاب : تاريخ الاردن وآثاره في العصور القديمة، تأليف الدكتور زيدان كفافي . دار النشر/المقتبس - عمان - الاردن عام ٢٠٠٦

الحجارة والحجارة الكريمة والمعادن والفخار. واغلب الكتابات العمونية المكتشفة محفورة على اختام مؤرخة بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، كما عثر على بعضها الآخر منقوشاً على آثار عمارية وتماثيل ومنها تمثال الملك العموني (يرح – عازر) الذي يرجع الى القرن الثامن قبل الميلاد. لقد وجدت ايضاً بعض الكتابات مدونة على عدد من الاواني المعدنية مثل قارورة تل سيدان وطاسة ام اذينة، كما وجد غيرها مدوناً على كسر فخارية عثر عليها في مواقع تل المزار وتل دير علا في غور الاردن، وام دنانير وسحاب وتل العميدي وحسبان في منطقة المرتفعات الجبلية. وكان ازدهار مملكة عمون وقوتها خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد.

هناك عدد من التفسيرات لإسم مؤاب، منها قد تعني ارض الغروب، او قد يشير الاسم الى قبيلة بدوية عاشت في الصحراء. وقد حاول البعض الربط بين اسم مؤاب وبعض اسماء الأماكن الواردة في النصوص المصرية، خاصة من عهد الفرعون رعمسيس الثاني. غير ان البعض الآخر يؤكد ان اسم مملكة مؤاب يشير الى بقعة جغرافية لا غير.

كانت الأراضي التي تشغلها مملكة مؤاب تقع في المنطقة الكائنة الى الشرق من البحر الميت والتي يحدها من الشمال وادي الموجب الدائم الجريان ومن الجنوب وادي الحسا، وهي تحوي على عدد قليل من الينابيع.

سكن الادوميون في المنطقة الواقعة الى الجنوب من وادي الحسا على جانبي وادي عربا. وكلمة أدوم سامية الجذر وتعني اللون الاحمر نسبة الى صخور تلك المنطقة، وقد حدد البعض حدود مملكة أدوم في البقعة الكائنة بين وادي الحسا شمالاً ووادي الحسمي جنوباً،

ووادي عربة غرباً، والصحراء في الشرق. وما يعرف عن هذه المملكة وبالاخص عن قيامها وفترة ازدهارها جاء معظمه من المصادر الفرعونية والاشورية والبابلية الحديثة (الكلدية) اضافة الى ما قدمته المكتشفات الاثرية وبعض نصوص العهد القديم. فقد ورد اقدم ذكر لمملكة أدوم في الكتابات الاشورية من عهد الملك الاشوري أدد-نراري الثالث (٨١٠ - ٧٨٣ ق.م)، كما يرد اسم مملكة أدوم واسماء عدد من ملوكها في المصادر الاشورية. كما عثر في تنقيبات ام البيارة على طبعة ختم للملك الادومي (قوس جبار) مطبوعة على غطاء طيني وفيه ذكر لملك أدوم. وقد اطلق اسم أدوميا على مكان قيام الدولة الادومية خلال العصر الهلنستي (بعد عام ٣٣٢ قبل الميلاد). ومهما يكن من امر فإنه ابتداءً من القرن الرابع قبل الميلاد او قبل ذلك بقليل بدأ العرب الانباط بالظهور في منطقة آدوم وخاصة في شرقي وادي عربة. وقد اخذ الانباط عن الادوميين الكثير من صفاتهم وطبيعة تعاملهم مع الارض التي استقروا فيها. كما استفادوا من مخلفات من سبقهم في المنطقة في مجال العمارة والتحصينات الدفاعية ووسعوا حدود منطقتهم شرقاً كما قاموا بتشييد تحصينات اضافية وجعلوا من البتراء الحصينة عاصمة لهم. تشير نتائج التنقيبات والبحوث الاثارية الى ان الانباط قد استقروا في جنوبي الاردن، كما وسعوا من نفوذهم بحيث اصبحت دولتهم تضم منطقة النّقب في فلسطين وبصرى وسعيا والسويداء في جنوبي سوريا، ووصلوا جنوباً حتى شمال الحجاز، وامتدوا شرقاً الى ما وراء نهر الاردن. ترك الانباط وراءهم ما يدل على تقدمهم الحضاري في التشييد والعمران واقامة المدن والقلاع ومنها البتراء وسلع وخربة التنور ومدائن صالح وام الجمال. ومعظم منشآتهم العمرانية البارزة تشاهد في عاصمتهم البتراء كالقبور والمعابد (اشهرها الخزنة)،

والمسارح والقنوات والسدود وصهاريج الماء.

ومن اشهر ملوك الانباط الحارث الاول والثاني والثالث. والاخير كان اشهرهم على الاطلاق وقد تمتعت الدولة في عهده بأزها عصورها وقد حكم في الفترة ٨٧ – ٦٢ ق.م. لقد كان للدين اثر بارز في حياة الانباط فشيدوا الكثير من المعابد.

وعبدوا آلهة متعددة منها اللات والعزى ومناة وذي الشري، سقطت البتراء عام ١٠٦ ميلادي بيد الرومان الذين خلفوا السلوقيين في بلاد الشام.

سمو الأمير رعد بن زيد بين المؤلف والدكتور محمد مظفر الأدهمي. المؤلف زامل سموه في مطلع الستينات من القرن المنصرم في جامعة كمبردج بانكلترا.

(الصورة في مكتب سموه في اتحاد المعاقين في شباط ٢٠٠٩)

الفصل الرابع
إطلالة على تاريخ اليمن وحضارته

١. مدخل تاريخي

أثبتت المكتشفات والمسوحات الآثارية في بلاد اليمن إستيطان الإنسان في هذا الجزء من الوطن العربي خلال العصور الحجرية الأولى (Lower Palaeithic) قبل أكثر من ربع مليون سنة. كما تدل الصناعات الحجرية المبكرة واشكالها على صلات بشرية قامت في تلك الحقب السحيقة من العصر الحجري بين هذا الركن من البلاد العربية وبين مواطن الإنسان الأولى في شرقي أفريقيا عبر جسور أرضية في منطقة باب المندب آنذاك. واستمرت اليمن القديمة في تطوير أدواتها الحجرية التي تألفت من فؤوس يدوية معمولة من لب الحجارة. ثم تحول إنتاجها إلى أنواع من المقاشط والسكاكين ورؤوس السهام من الشظايا، وذلك خلال المراحل المتقدمة من العصر الحجري القديم وأوائل العصر الحجري الحديث (Neolithic). إلا ان حضارة العصر الحجري الحديث لم تستكمل شروطها في هذا الجزء من الوطن العربي مبكراً، كما كانت الحال عليه في بلاد الرافدين وبلاد الشام حيث ظهرت فيهما أولى بواكير التدجين والزراعة قبل أكثر من عشرة آلاف سنة، بينما تأخرت في الظهور في اليمن حتى مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. وتأخرت كذلك إقامة أولى القرى الزراعية وقيام مشاريع الري حتى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، كما هي عليه الحال في موقع هجر بن حميد في وادي بيحان الذي تقع عنده مدينة تمنع عاصمة مملكة قتبان القديمة.

يجمع الباحثون في الدراسات اليمنية القديمة على ان بداية ظهور الحضارة اليمنية القديمة كان خلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد. وقد كان أبرز مظاهرها مشاريع الري الواسعة والمنظمة التي صارت بالتالي السمة الأساسية لحضارة جنوب الجزيرة العربية وبلاد اليمن السعيدة. لقد تمركزت المستوطنات الزراعية الأولى في بلاد اليمن في اطراف الوديان الرئيسة وبخاصة وادي بيجان ووادي حضر موت وغيرهما من الوديان. وقد ادت أعمال السيطرة على تنظيم المياه وادامة مشاريع الري إلى ظهور الحاجة إلى قيام تنظيمات اجتماعية ودينية وسياسية.

فشهدت بلاد اليمن بهذا تطورات بشرية أملتها الظروف الإقتصادية، فقامت زعامات محلية ومشيخات صغيرة في حدود مجموعة قرى تعتمد مورداً مائياً معيناً أدت إلى مصالح متداخلة لمجاميع من القرى تنتشر في مساحة جغرافية واسعة. وانتهت المصالح الزراعية المشتركة والتبادل التجاري إلى نوع من الروابط الجماعية تبلورت في سلطات دينية - دنيوية بزعامة المكاربة (جمع مكرب وهو الكاهن الاعظم)، وهي كثيرة الشبه بسلطات السيد أو الحاكم (ان En أو أنسي Ensi) المزدوجة (دينية - دنيوية) في العراق القديم قبل ظهور الملكية في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد. ولما تحققت للمكاربة ارباح طائلة من تجارة البخور والطيب، وصارت منتوجاتهم هذه تصل إلى عواصم العالم القديم آنذاك، إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر واليونان، أخذت مكانتهم السياسية بالتبدل. فتحول المكرب من كاهن أعظم إلى ملك له السلطة الدنيوية المطلقة، مع حق الاشراف على شؤون الآلهة والمعابد، كما كانت الحال عليه في معظم حضارات العالم القديم الأخرى. وعند ذلك شهدت بلاد اليمن قيام الدول والممالك المعظمة، وكان أبرزها

ست دول معروفة دامت نحو ألف وخمسمائة سنة، وقد تفاوتت زمنياً في ظهورها، كما عاصرت بعضها البعض وضُمتَّ أحداها إلى الأخرى وكَّونَت في الآخر دولة يمنية مركزية واحدة. وقد قامت دول اليمن هذه في الأقسام الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية في المنطقة المحصورة بين البحر الأحمر غرباً، وخليج عدن وساحل حضرموت جنوباً، ونجران واطراف الربع الخالي(الدهماء) شمالاً. إلا ان المؤثرات اليمنية، بما فيها المستوطنات والمحطات التجارية، قد انتشرت في رقعة واسعة خارج هذه الحدود. فقد انتقل اليمانيون قديماً بلغتهم وكتاباتهم إلى الحبشة والصومال كما انتشروا شمالاً في مدن وواحات الحجاز ومحطاته التجارية.

ولإظهار المزيد من الإطار التاريخي لبلاد اليمن، نرى من المفيد اعطاء خلاصة موجزة عن كل دولة من دول اليمن الست، مبتدئين بأقدمها واشهرها، وهي دولة سبأ التي ظهرت في مطلع القرن العاشر قبل الميلاد وانتهى نفوذها السياسي في القرن الثالث الميلادي. وكانت عاصمة سبأ الأولى صرواح ثم صارت بعدئذ مأرب التي ما زالت آثارها ظاهرة للعيان، قرب سد مأرب الشهير الذي شُيِّد في مطلع القرن السابع قبل الميلاد، بجانب عدد اخر من المستوطنات والمواقع الأثرية المنتشرة في رقعة واسعة من بلاد اليمن. ودولة حضرموت التي برز نفوذها أيضاً خلال القرن العاشر قبل الميلاد وخبا بريقها خلال القرن الثالث الميلادي، وهي أحدى أقوى دول اليمن القديمة التي مرّت بفترات ازدهار ورقي حضاري كبير تشهد عليه بقاياها الغنية التي كشفت عنها التنقيبات والاستكشافات الآثارية في محافظتي شبوه وحضرموت. وفي بداية قيام هذه الدولة (حضرموت) اتَّخذت من مدينة ميفعة عاصمة لها، ثم صارت شبوه بعدئذ العاصمة الرئيسة لحضرموت ومركز النشاط

التجاري البارز للدولة. كانت التجارة أبرز مظهر اقتصادي للدولة. ومما زاد في مكانتها الإقتصادية قيام مدينة ظفار الشهيرة بانتاج البخور واللبان في أراضيها. وقد تطلب هذا إيجاد موانىء متعددة على الساحل من أبرزها قنا وسمهرم. وكانت حضرموت تصدر وتستقبل الكثير من السلع عبر الموانىء. وقد ضمت دولة حضرموت إليها في عام٢١٠ م دولة قتبان، غير انها دخلت بدورها، في أواخر القرن الثالث الميلادي، في إطار الدولة المركزية الحميرية. وقامت قتبان في القرن الثامن قبل الميلاد في وادي بيحان الخصب واتخذت من مدينة تمنع عاصمة لها، وتدعى بقاياها اليوم حجر كحلان، وتقع في محافظة شبوه. وعندما أحرقتها قوات حضرموت، انتقلت العاصمة إلى مكان اخر تُعرَف بقاياه اليوم بـ هجر بن حميد في منطقة بيحان أيضاً.

اشتهرت دولة قتبان بنشاطها التجاري كغيرها من دول اليمن المعاصرة لها، وقد تركت مخلفات وشواهد أثرية وتاريخية عديدة تنبىء بعظمة ورقي تلك الدولة، من أبرزها وثيقة قانونية مهمة بالخط المسند عُرفت بين المهتمين بالدراسات اليمنية باسم القانون التجاري ونُظمت بموجبه تجارة الدولة مع التجار الاخرين. وانتهت دولة قتبان ككيان سياسي في عام ٢١٠ م، بعد حرب طاحنة مع مملكة حضرموت التي ضمتها إليها نتيجة تلك الحرب. برزت دولة معَيّن في القرن الثامن قبل الميلاد في منطقة الجوف واتخذت من قرنا وعاصمة لها. ومن أبرز مدنها: نشن ونشق ونجران. تعد معين من أشهر دول اليمن القديمة على الاطلاق، وذلك بسبب دورها التجاري البارز مع العالم الخارجي. فقد عثر على نقوش (كتابات) معينية في جزيرة ديلوس في اليونان وفي مصر وريدان (العلا الحالية) في الحجاز وكانت محطة تجارية على طريق القوافل بين اليمن وسواحل البحر الأبيض المتوسط.

واختفت دولة معين من المسرح السياسي في القرن الثاني قبل الميلاد عندما ضمَّتها دولة سبأ إليها. وقامت في القرن السابع قبل الميلاد واحدة من أقوى دول اليمن القديمة وعرفت بدولة اوسان. إلاّ انها لم تدم طويلاً، إذ قضى على استقلالها الحلف المتكوّن من دول سبأ وحضرموت وقتبان في عام ٤١٠ قبل الميلاد، كما قضى على معظم مدنها، حتى ان عاصمتها لا تُعرف على وجه الدقة. وربما كانت في الموضع الذي يعرف الان باسم هجرالناب. لقد استطاعت دولة اوسان أيام عزها وقوتها السيطرة على أهم مينائين في اليمن القديمة وهما : عدن وقنا، كما سيطرت على عدد من المناطق التابعة لدولتي قتبان وسبأ. والكثير من اثار هذه الدولة تشاهد الان في متحف مدينة عدن.

في القرن الثالث الميلادي، استطاعت قبيلة حِمْيَر بقيادة ياسر يهنعم، وفيما بعد إبنه شمريهرعش، توحيد بلاد اليمن بدولة مركزية واحدة عرفت في النقوش (الكتابات) اليمنية بدولة سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت، واتَّخذت من مدينة ظفار عاصمة لها. وفي القرن الخامس الميلادي، وعلى عهد ملكها اسعد كرب ضمت إليها المناطق الواقعة شمالاً وحتى اواسط شبه الجزيرة العربية وصارت تعرف بدولة سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت واعرابهم في الجبال والتهائم. وفي مطلع القرن السادس الميلادي انتابت بوادر الضعف هذه الدولة اليمنية المركزية بسبب توالي الغزو الأجنبي لليمن وبالأخص الاكسوميين الاحباش الذين شنوا حملات متواصلة على اليمن في هذا القرن أبرزها حملة عام ٥١٦ م وحملة عام ٥٢٥ م التي انتهت بسقوط الدولة اليمنية واحتلال اليمن من قبل الاحباش. وقد تصدى اليمنيون لهذه الغزوات بقيادة ذي نؤاس الذي خاض نضالاً إسطورياً ضد الغزاة، إلا انه لقي حتفه في معركة عام ٥٢٥م. واستمر احتلال الاحباش لليمن حتى عام ٥٧٨ م. وحدثت خلال تلك المدة

انتفاضات عديدة ضد الوجود الاجنبي، أبرزها ثورة سيف بن ذي يزن، وزال في اعقابها احتلال الحبشة لليمن. إلا ان الفرس الساسانيين حلوا محل الاحباش في احتلاله عام ٥٩٨ م. ولم ينته احتلالهم لهذا الجزء من الوطن العربي حتى جاء التحرير العربي الإسلامي في أواخر حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

٢. أبرز مظاهر الحضارة اليمنية

قامت الحضارة اليمنية على أُسس اقتصادية متينة قوامها تجارة دولية مزدهرة فضلاً عن مواردها الزراعية المستندة إلى نظام ري دقيق متقن. اشتهرت العطور العربية بشكل خاص في انحاء العالم القديم، فقد كانت تصدر بحراً وعن طريق القوافل إلى بلاد الرافدين وبلاد الشامٍ ومصر وبلاد اليونان وروما. وكانت بلاد اليمن مركزا تجارياً مهماً لتبادل السلع بين الهند وبلاد الشام ومصر وجزر بحر إيجة، وذلك بسبب موقعها الجغرافي الخاص. فقد أقام السبئيون موانىء مهمة في سواحل الهند وأفريقيا اتاحت لهم السيطرة على تجارة الذهب والبخور والمر واخشاب الزينة التي تصدرها تلك المناطق إلى دول الشمال.

اعتمدت زراعة اليمن على الري وتنظيمه، كما اعتمدت على تشييد السدود في مضايق الوديان البارزة. وأكثر ما اشتهرت به اليمن القديمة من هذه السدود سد مأرب الذي شيدته الدولة السبأية في مطلع القرن السابع قبل الميلاد، أو قبل ذلك بقليل، واتّخذت مدينة مأرب عاصمة لها، وذلك في أواخر حكم المكاربة الكهنة العظام. وقد شُيّدَ هذا السد للتحكم في مصادر المياه في وادي اذنه وخزنها لاغراض الري. وشُيّد سد مأرب من التراب بارتفاع أربعة أمتار فوق مستوى عقيق الوادي وغلفت جوانبه بحجارة كبيرة مهندمة، إلا ان أرتفاع بقاياه الان تزيد عن أربعة

عشر متراً وهذا ناجم بالطبع عما اضيف إلى بدنه من زيادات اقتضتها طبيعة التراكمات التي كانت تزيد في مستوى ارتفاع قاع الوادي. وتُشاهَد على بعض حجارة السد كتابات تشير إلى عدد أعمال الترميم التي اجريت في بدنه في مختلف الازمنة. وكان أحد هذه الترميمات قد تم عام ٤٥٠ ميلادية وأجراه الملك شرحبيل بن يعفر. وهناك إشارات إلى ترميم آخر تم في ٥٤٢ ميلادية أيام الاحتلال الحبشي لليمن. وتحمل قاعدة السد كتابات تشير إلى زمن المباشرة بتشييده. وربما يُعزى انهيار سد مأرب في أواخر حكم الأحباش لليمن إلى ضعف السلطة المركزية وانتشار الفوضى واهمال أعمال الصيانة في اقسام السد المختلفة. ويعزو الأخباريون العرب تشتت السبئيين (تفرق أيدي سبأ) إلى انهيار سد مأرب، وهم يلمحون بذلك إلى آحد أسباب اندثار حضارة اليمن القديمة.

إن غنى جزيرة العرب بالحجارة، وبحجر الجرانيت المناسب للبناء بشكل خاص، جعل اليمانيين يعتمدونها في البناء بصورة واسعة بالاخص في عمائرهم الدينية ومدافن عظمائهم وقصورهم وقلاعهم. كما اعتمدوا أيضاً الاخشاب التي كانت توفرها الغابات في تلك الأزمان. واستخدم اليمنيون في سقوف مبانيهم وتيجان أعمدتهم الطابوق باشكال مختلفة. كما برعوا في نحت وهندسة الحجارة التي تدخل في تشييد واجهات المباني واعمدتها. وبذلوا عناية كبيرة في تزيين تلك الجدران والأعمدة بفصوص من الذهب وغيره من المعادن التي كانت بلاد اليمن غنية بها. إستخدم اليمنيون في عماراتهم الاعمدة بكثرة بنوعيها المربعة والإسطوانية. كما نحتوا انصاباً عالية زينوها بنقوش كتابية. وشيدوا معابدهم باشكال بيضوية أو مربعة. ومعبد مدينة مأرب البيضوي الكبير خير مثال على النوع الأول من عمارة اليمن القديمة.

وقد كشفت التنقيبات عن سوره البيضوي الشكل أيضاً. تزين واجهة معبد مدينة مأرب الكبير ثمانية أعمدة مربعة الشكل. ومدخله الرئيس مكون من ثلاثة أبواب متلاصقة تؤدي إلى الرواق. وفي هذا الرواق منفذ واحد يقود إلى فناء المعبد الواسع. ومن الأمثلة الجيدة على طراز المعابد المربعة في جنوبي الجزيرة العربية الذي أظهرته الحفريات أخيراً معبد خور روري الكائن حالياً في سلطنة عُمان. وجدران هذا المعبد بالغة السمك، إذ يبلغ سمكها أكثر من عشرة أقدام. ولهذا المعبد مدخل واحد ضيق أقيم في جداره الشرقي. وفي بناء المعبد مذبحان وبئر يتصل بها صهريج للماء. وكشف في اليمن أيضًا عن عدد من القلاع المشيَّدة بعدة طوابق، كما كشف عن ابراج واسوار مدافن شيدت جميعها من الحجارة المهندمة أو الطابوق. كان بناء السدود في اليمن القديمة نوعاً من الفن المعماري الدنيوي له اهميته الخاصة. وقد اظهرت التنقيبات في منطقة تمنع عاصمة دولة قتبان، عن شبكة كاملة من السدود تتصل بها قنوات وصهاريج لتوفير مياه الري لرقعة واسعة من البلاد. وكانت ابنية المدافن موضع عناية خاصة عند اليمانيين، وقد كشفت عن غرف دفن واضرحة وانصاب تزينها في الغالب صورة المتوفى ونقش (كتابة) تذكاري، كما كشفت في تمنع عن مدافن نحتت في الصخر تضم أثاثاً ولوازم لاحتياجات المتوفى لرحلته إلى العالم الاخر. كما كشف فيها العديد من النقوش (الكتابات) التذكارية.

لم يبلغ فن النحت في اليمن ما بلغته العمارة فيها من رقيّ وازدهار. وكان النمط السائد في النحت تماثيل صغيرة لأشخاص توضع عادة في المعابد قرابين ونذور. وقد عثر على عدد من التماثيل البرونزية الجميلة لنساء ورجال، كما كشف عن أنواع من تماثيل لحيوانات اليفة من البرونز أبرزها الحصان. يغلب على فن النحت اليمني القديم شيء من

البدائية والغلظة. فنجد في أشكال البشر المنحوتة عامة ان الجسم في وضعية المواجهة (امامية) بينما القدمان في وضع جانبي. كما ان الوجوه ضعيفة الاداء وتعبّر عن موقع ومكانة الاشخاص باختلاف الحجوم، كما هي الحال في منحوتات من العراق القديم. ولم يستطع فنانو اليمن من التغلب على موضوع الابعاد. فاكتفوا بترتيب الاشياء بعضها فوق البعض الاخر، أو وضعها بازاء بعضها. إلا اننا مع هذا نشاهد ان الفنان اليمني كان أكثر توفيقاً وأكثر ابداعاً في نحته، لاشكال الحيوانات والازهار والاكاليل والرسوم الهندسية، كمنحوتة الجمل البالغة الروعة مثلاً، التي هي في المتحف البريطاني حالياً. وأبدعوا كثيرا في انتاج قطع فنية صغيرة تغنى الكتاب اليونان والرومان بروعتها وجمالها كالكؤوس والاوعية التي عملها السبئيون من الذهب والفضة. كما عمل اليمنيون دبابيس وفصوصاً واختاماً من البرونز عليها مواضيع لمعارك بين آلهة وحيوانات مفترسة تذكر باختام العراق القديم الإسطوانية بمواضيعها العقائدية والرمزية.

وتفنن صناع الحلي اليمنيون بانتاج قطع جميلة من الحلي الذهبية بالغة القيمة التاريخية والفنية. وضربت النقود من الذهب والفضة اقتداءً بالعالم اليوناني آنذاك.

وتشمل النقوش (الكتابات) العربية الجنوبية طائفة كبيرة من أسماء الالهة والقابها، مما يؤكد وجود نظام للآلهة بالغ التعقيد في معتقدات اليمنيين القدامى. فقد كانت الآلهة الرئيسة للبلاد تتمثل بثالوث كوني، كما كانت الحال عليه في معتقدات العراق القديم، وهو مؤلف من آلهة نجمة الصباح والقمر والشمس. وكانت بقية الالهة على كثرتها مظاهر ثانوية لهذا الثالوث. وإلَه نجمة الصباح اليمني معروف في الشرق الادنى القديم بهيئة مؤنثة فهو عشتار لدى الأكديين والبابليين

والآشوريين وعشتروت عند الكنعانيين. إلا انه الاله الذكر عشتر عند أهل الجنوب العربي. أما الها القمر والشمس فلهما أسماء مختلفة : فاله القمر اسمه ود عند المعينيين والمقه عند السبئيين، وهو الإله عم عند قتبان. وسن، كما في بلاد الرافدين في حضرموت. أما إله الشمس، وهو إله مؤنث لدى اليمنيين، فيدعى شمس أو شمش في قتبان وحضرموت إلى جانب أسماء أخرى، كما كانت عليه الحال في العراق القديم. وإلى جانب هذه الالهة المشتركة كانت هناك طائفة من الالهة الخاصة تحمي بعض الأماكن أو القبائل والاسر، ويشار إليها غالباً باسم بعل، كما هي عليه الحال لدى الكنعانيين في بلاد الشام، ومعناه الصاحب أو السيد. وبين آلهة العرب الجنوبيين عدد من الالهة لا أسماء لها يبتهل إليها فرادى أو جماعات باسم آلهة مكان أو جماعة أو شعب. كما ان هناك عددًا من أسماء الأعلام تدخل في تركيبها أسماء إلهية اعتاد عرب الجنوب اطلاقها على الآلهة في ابتهالاتهم، من اشهرها : الأب والرّب والملك العزيز والعادل والأمين.

وكانت جميع منجزات اليمنيين العمرانية والقانونية كالمعابد والسدود والقنوات وانصاب المدافن والمسلات توضع في رعاية الآلهة، ومن ينتهك حرمتها أو يعبث بها أو يدنسها، فستقع عليه لعنة آلالهة وغضبها وانتقامها. كما كانت للمعابد وللقائمين عليها من كهنة ومسؤولين مكانة بارزة ومهمة. فخصصت لهم العشور كما رتبت لهم مصادر لدخل ثابت لتوفير الاموال اللازمة لتعهد المعابد وادامتها. وآمن سكان اليمن القدماء بحياة ثانية بعد الموت فزودوا مدافن وقبور موتاهم بالعديد من الحلي والكؤوس والاختام وغيرها من لوازم مختلفة يحتاجها المتوفى في حياته الثانية تلك.

كتب العرب الجنوبيون بأبجدية مؤلفة من ٢٩ حرفاً على غرار حروف الابجدية العربية الشمالية وسابقتها الكنعانية. وتُقرأ نصوص كتاباتهم

من اليسار إلى اليمين، خاصة القديمة منها المدَّونة قبل القرن السابع قبل الميلاد، على غرار الكتابات السومرية والأكدية والبابلية والآشورية. وتمتاز حروف الابجدية اليمنية في مراحلها الأولى بإستقامتها وبخلوها من الحركات إلا ما ندر. غير انها أخذت تميل بمرور الزمن إلى الانحناء، والخاصية الأخيرة صارت دليلاً مفيداً لقارئ النصوص اليمنية للتمييز بين تلك النصوص وأزمانها. تعرف الكتابات العربية الجنوبية بين الدارسين بمصطلح النقوش وذلك لمظهرها الزخرفي والجمالي. كما يطلق عليها اسم الخط المسند أيضاً. وغالبية النصوص المكتشفة في انحاء اليمن لحد الان كتابات قصيرة نذرية وتذكارية من بينها اعداد كثيرة من نقوش المدافن وبعض النقوش التي تصف عمليات البناء والتشييد للمعابد والقصور والسدود. أما النصوص الطويلة أو الكتابات التاريخية فقليلة بين ما اكتشف لحد الآن من هذه النقوش. مع هذا فان للنصوص المكتشفة والمقروءة منها إلى الآن فائدة عظيمة لتاريخ اليمن وحضارته. إذ انها قد القت الكثير من الضوء على معتقدات اليمنيين القديمة وآلهتهم بجانب الطقوس والمراسيم المرافقة لتلك المعتقدات. وقد جاءتنا من بين تلك النصوص قوائم كاملة باسماء ملوك دول اليمن القديمة وجوانب من النظم الإدارية وشكل الحكم وبعض النشاطات السياسية والعسكرية.

تكلم سكنة اليمن القدماء، وعرب الجنوب بشكل عام لغة تتصل بنسبها واصلها بمجموعة لغات الجزيرة العربية وبلاد الرافدين وبلاد الشام. وكان يطلق عليها قديما المصطلح التوراتي مجموعة اللغات السامية. ولغة أهل اليمن القدماء كثيرة الشبه بشقيقتها الأكدية، لغة العراق القديم التالية للغة السومرية والتي تفرعت عنها البابلية والآشورية، كما لا تبعد كثيراً عن اللغة العربية الشمالية، لغة القرآن الكريم. وبسبب العديد من الخصائص المكانية والزمانية، تفرعت عن

اللغة العربية الجنوبية أربع لهجات محلية رئيسية نسبت إلى الممالك اليمنية الأربع البارزة : سبأ ومعين وقتبان وحضرموت. وقد احتفظت بعض مناطق اليمن إلى اليوم بلهجة أو أكثر من تلك اللهجات القديمة وخاصة في مناطق المهرة وشحرى وجزيرة سوقطرة. ولكي يقف القارىء على نموذج من الكتابات (النقوش) العربية الجنوبية من الخط المسند وطبيعتها نقدم ادناه أحد أمثلتها البارزة بلغته الاصلية منقولاً إلى العربية الفصحى الحالية. والنص يمثل صورة من الأدب الديني اليمني القديم موجَّهاً إلى إلهة الشمس (مؤنث) وهي في الوقت نفسه إلهة المطر، منقوشاً على صخرة عثر عليها الدكتور يوسف محمد عبد اللّه أحد الآثاريين اليمنيين المعروفين والمتخصص بعلم النقوش (الكتابات) اليمنية القديمة، في عام ١٩٧٧، في أحد إستطلاعاته الآثارية في وادي قانية بناحية السوادية في محافظة البيضاء وعُرف في النشريات اليمنية بعدئذ بنقش ضاحة الجذمة، وضاحة بمعنى مرتفع بلهجة أهل اليمن. وقد استغرقت دراسة النص ومحاولة التوصل إلى قراته الصحيحة، بسبب عدم وضوح بعض اقسامه وتهشم البعض الآخر وغرابته، أكثر من عشر سنوات. ولعله يرجع إلى القرون الثلاثة الأولى للميلاد. وفيما يلي النص منقولاً بلغة أهل اليمن القديمة. وقد اطلق عليه مكتشفه وقارئه في نقش القصيدة الحميرية، أو ترنيمة الشمس :

نشرن خير كمهذ هقحك بصيد خنون
مأث نحك وقرنو شعب ذقد
قسحك ولب علهن ذيحر فقحك
وعيلت أأدب صلع فذحك
وعين مشفر هنجر وصحك
ومن ضرم وتدا هسلحك

ومهسع يخن احجين كشحك
ونوى تغض ذكن ربجك
وصرف الغذ دام ذو ضحك
وجهنللت هنصنق فتحك
وذي تصخب هحسمك برحك
وين مزركن كشقحك
ورسل لثم ورم فسحك
وسن صحح دأم هصححك
وكل يرسس عرب فشحك
وكل اخوت ذقد هبصحك
ولليث شظم دام تصحك
وكل عدو عبرت توحك
وكل هنحظي املك ربحك
واك ذتعكر ار اكفقحك
ومن شعيب عر ان هلجحك
وجب يذكر كلن ميحك
حمدن خير عسيك توحك
هنشمك هندام واك صلحك
هود اكن شمس واك تنضحك
تبهل عد ايس مشحك
ومعنى القصيدة بالعربية الحالية كما يلي :
نستنجد بك يا خير، فكل ما يحدث هو مما صنعت
بموسم صيد خنوان مائة اضحية سفحت
وراس قبيلة ذي قسد رفعت

وصدر علهان ذي يحير شرحت
والفقراء في المأدب خبزاً اطعمت
والعين من اعلى الوادي اجريت
وفي الحرب والشدة قويت
ومن يحكم بالباطل محقت
وغدير تفيض لما نقص زيدت
ولبان العز دائماً ما بيضت
وسحر اللآت ان اشتد ظلامة بلجت
ومن يجأر ذاكراً بنعمك رزقت
والكرم صار خمراً لما ان سطعت
وللابل المراعي الوافرة وسعت
والشرع القويم صحيحاً ابقيت
وكل من يحفظ العهد اسعدت
وكل احلاف ذي قد ابرمت
والليالي الغدر بالاصباح جليت
وكل من اعتدى علينا اهلكت
وكل من يطلب الحظ مالا كسبت
ورضى من تعثر حظه بما قسمت
وفي الشعيب الخصيب ازجيت
وبئر يذكر حتى الجمام ملأت
الحمد يا خير على نعماك قدرت
وعدك الذي وعدت به اصلحت
اغنيتنا يا شمس ان انت امطرت
نتضرع اليك فحتى بالناس ضحيت.

الفصل الخامس

حضارات المايا والأزتيك والانكا
في أمريكا الوسطى والجنوبية

يرى دارسو حضارات أمريكا الوسطى واساطيرها القديمة ان واحداً من أبرز أسباب الانهيار الفجائي والسريع لامبراطورية الأزتيك، إحدى أقوى إمبراطوريات شعوب الناهواتل الهندية التي قامت في وادي المكسيك في القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، أيام الغزاة الاسبان في المدة (١٥١٨-١٥٢٢)، يعود إلى اسطورة الإله كوتزا كواتل، إله الحكمة والفنون، الذي انحدر من السماء، وعاش على الأرض بين الناس، وبدأ يعلمّهم الحكمة والفنون، وبقي يحكمهم ويدير شؤونهم اجيالاً عديدة، حتى تمكَّنَ السحرة من إيقاعه في الخطيئة والانتصار عليه. فهجر شعبه الذي يحبه، واتّجَهَ شرقاً في المحيط، بزورق مصنوع من جلد الثعبان. وقبل ذهابه وعد شعبه بالعودة حيث سيشهد عصراً ذهبياً جديداً. بقت شعوب الناهواتل تتوق إلى عودته وتنتظر بشوق ظهوره بينهم من جديد.

هكذا قال الشيوخ في العصور القديمة
حقاً ان كوتزا كواتل ما يزال حياً
إذ انه لم يمت وسوف يعود يوماً ليحكم

وكان هذا الإلَه يُصوَّر في مآثرهم وفنونهم بهيئة رجل أبيض ملتح. وحين أَقبل القائد الاسباني هرناندو كورتيز مع رجاله الأربعمائة إلى شواطئهم ظنه الأزتيك ذلك الإلَه العائد إليهم من البحر فبهتوا واسقط في أيديهم وأَلقَوا باسلحتهم أمـامه. فدخل كورتيز ومن معه العاصمة دون مقاومة، والقى القبض على ملكهم مونتزوما (Montezuma) واحتفظ به رهينة. وسواء صح هذا التفسير كسبب مباشر في انهيار دولة الأزتيك أم لم يصح، فان طلائع الغزاة الاسبان بقيادة كورتيز قد تمت لهم السيطرة التامة على شعب الأزتيك والقبائل الخاضعة لحكمهم بوقت قصير.

واخذوا ينهبون كنوز البلاد وثرواتها الفنية والذهبية. وقد نقلوا الكثير منها إلى اسبانيا، كما نقلوا هم ومن جاء بعدهم من ارساليات التبشير العديد من المخطوطات المدونة باللغات المحلية والتي تضم الكثير من معتقدات واساطير وآداب وعلوم شعوب أمريكا الوسطى والجنوبية. ولا يزال الكثير منها يُشاهَد في متاحف ومكتبات أوربا والولايات المتحدة الأمريكية.

قامت في بقاع محدودة من أمريكا الوسطى والجنوبية العديد من الحضارات الزراعية الأولى ممثَّلة بعدد من قرى ومستوطنات العصرالحجري الحديث قوامها زراعة الذرة التي بدأ المستوطنون الهنود لهذه الاصقاع من الدنيا الجديدة يكثرون زراعتها في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، رافقتها معارف أولى في العمارة والنحت وعمل الفخار. لقد تعرف الرعاة جامعو القوت إلى نبات الذرة الذي كان ينمو برياً في هذه الاصقاع من العالم الجديد في منتصف الأَلف الثالث قبل الميلاد، تماماً كما تعرف طلائع فلاحي مرتفعات منطقتنا في بلاد الرافدين وبلاد الشام إلى نباتي الحنطة والشعير البريين في حدود

عشرة آلاف سنة قبل الميلاد، وبدأوا بتدجينها وزراعتها في حقولهم الأولى بعد ذلك بنحو ألفي سنة. يخلو السجل الآثاري لمناطق أمريكا الوسطى والجنوبية إلى الآن من تعاقب حضاري مستمر لمعالم بارزة لمدنيات تسبق حضارات المنطقة الشهيرة الثلاث المايا والأزتيك والانكا التي خلفت وراءها ثروة هائلة من المعالم العمرانية والفنية والمعارف والآداب والاساطير والمعتقدات التي نُسِجَ حولها العديد من القصص والروايات داخلها الشيء الكثير من الخيال والمبالغة. مع هذا فإن نضج هذه الحضارات الثلاث وبلوغها قمة التطور والرقي كان متأخراً إذا ما قورن بحضارات العالم القديم وبالاخص حضارة بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر وغيرها. وانها كانت لا تزال في اوج إزدهارها عند وصول الغزاة الاسبان إلى أمريكا الوسطى في مطلع القرن السادس عشر الميلادي.

حضارة المايا

كانت الأرض المنخفضة على شواطىء أمريكا الوسطى موطنًا لحضارة المايا (Maya)، أبرز وأعظم حضارات الأراضي المنخفضة في نصف الكرة الأرضية الغربي. لقد كان شعب المايا معزولاً عن بقية مستوطني شبه جزيرة المكسيك. فقد كانت المياه تحيط بهم من جهات ثلاث والجبال العالية تعزلهم من جهة الغرب. لذا فقد نمت حضارتهم وتطورت مستقلة عما عاصرها في تلك الاصقاع. لقد اعتمدت حياة المايا الإقتصادية على زراعة الذرة والبقول والبطاطا والكاكاو والتبغ. وقد زودتهم الغابات بالاخشاب التي استخدموها في البناء والوقود وصناعة الزوارق. كما ان حجر الكلس الموجود بكثرة في أراضيهم قد وفر لهم المادة الأساسية لاقامة الابنية الدينية والاحتفالية. كما وفر لهم مادة

الجص اللازمة للبناء. وتشاهد بقايا ابنيتهم الدينية الشهيرة اليوم في مواقع أوكسمال وبيتين وشيشين إتزا.

اشتهرت حضارة المايا باعمال النحت بانواعه، ومعابدهم تزخر بالمشاهد المنحوتة في الحجر للآلهة وبعدد كبير من شعائرهم الدينية وطقوسهم وانتصارات ملوكهم. وفي العديد من قطع النحت مشاهد للطيور والحيوانات والافاعي. وقد اشتهرت مدينة بالنك، أبرز مدن الإمبراطورية القديمة، بعدد من أعمال النحت البارزة التي يرجع تاريخها إلى القرن السابع الميلادي. استخدم شعب المايا الكتابة الصورية التي كانت علاماتها ترمز إلى معانٍ معيّنة. كما كان لديهم عدد من العلوم والمعارف. ومع ان حضارة المايا كانت في مراحلها الأخيرة عند غزو الاسبان، في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، إلا ان الكهنة والطبقة الحاكمة كانت تحتفظ بالمعرفة العلمية وبفن الكتابة. وبدافع الجهل والتعصب الديني عمل الغزاة الاسبان على محو الكثير من تراث ومعارف المايا. فقد قاموا باحراق العديد من مخطوطاتهم في التراث والتاريخ والفلك والرياضيات. ولم ينجُ إلا القليل الذي أُرسل إلى أوربا كتحف نادرة. وهناك مخطوطة في مدينة درسدن تُعَدّ أبرز ما سلم من كتب المايا.

وتضم هذه المخطوطة معلومات على قدر كبير من الاهمية في الرياضيات والفلك، فقد دونوا فيها أوقات كسوف الشمس وخسوف القمر وغيرها من الظواهر الكونية. تقع الأماكن التي ازدهرت فيها حضارة المايا في يوكاتان وهندوراس وغواتيمالا. وأبرز مواطن تلك الحضارة التي تشاهد فيها بقاياها اليوم هي: اوكساكتون وتيكال وكوبان وبالنك.

حضارة الأزتيك

أسس الأزتيك (Aztec) أولى مدنهم في المكان الذي تقوم فيه اليوم مدينة المكسيك الحالية، وذلك بعد وصولهم إلى وادي المكسيك في اواسط القرن الثالث عشر الميلادي. وبعد ذلك، في أواسط القرن الخامس عشر، تمكنت قبائل الأزتيك وعدد من القبائل المتحالفة معها من الهنود الناهواتل من توسيع نفوذها وإنشاء إمبراطورية شملت هضبة المكسيك كلها، وصار نفوذها يغطي جميع المناطق الكائنة بين شواطئ المحيط الاطلسي في الشرق وشواطىء المحيط الهادي في الغرب، وذلك في حدود النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي. كان مجتمع الأزتيك أرستقراطياً تتمتع فيه الطبقات العليا من النبلاء والكهنة وقادة المقاتلين بحياة باذخة، ولها امتيازات واسعة، وعلى راسها ملك يستمد قدسية مركزه الوراثي من سلطة الآلهة. عبد الأزتيك إلهاً مكرساً للحرب، واقاموا له معبداً فخماً فوق مصطبة عالية مشيَّدة من الحجارة المهندمة شبيهة باهرامات مصر وزقورات بلاد الرافدين، ترتفع فوق مباني المدينة لتكون موضعاً متميزاً يليق بضحايا إله الحرب هويتز بلو بوشتلي. كانت تقوم أمام معابد الاهرامات تلك ساحات واسعة يتجمع فيها الأزتيك لمشاهدة الطقوس التي تراق فيها دماء الضحايا فوق درج المعبد.

كان للأزتيك نظام قضائي متشدد في معاقبة الذين يخلّون بأمن المجتمع وسلامته. فكانت عقوبة السرقة مثلاً الاعدام. وللأزتيك نوعان من المدارس. مدارس يتلقى فيها التلاميذ دروساً في الوطنية والحرب والتاريخ، ويطلق عليها اسم بيوت الشباب. أما المدارس الملحقة بالمعابد فكانت تخرج كهنة متضلعين بشؤون العبادات والطقوس الدينية. وكان التلاميذ فيها يتلقون أصول الكتابة الصورية ورموزها التي كانت

تُستخدَم بشكل خاص لتدوين القوانين والوثائق التجارية. كما كان على تلاميذ المعابد ان يحفظوا اعداداً كبيرة من التراتيل الدينية، والأناشيد والأغاني. وقد حفظت لنا تلك التراتيل والأغاني العديد من الاساطير وآداب ومعتقدات الأزتيك. لقد تمسك حكماء الناهواتل من الأزتيك بمعتقداتهم وطرائق عبادتهم رغم العنف الذي مارسه الغزاة الاسبان وبعثات التبشير معهم لحملهم على ترك ديانتهم القديمة واعتناق المسيحية. وقد احتفظت بعض المكتبات في أوربا بشيء من ردود حكماء وكهنة الأزتيك على أولئك المبشرين :

تقولون إننا لا نعرف سيد كل مكان خالق السماوات والأرض.

تقولون ان آلهتنا ليست الآلهة الحقة

تلك كلمات غريبة تلك التي تقولون

لقد اضطربنا لسماعها لأن أجدادنا الذين كانوا هنا

أولئك الذين عاشوا على هذه الأرض لم يتكلموا كذلك

لقد اعطونا وصايا الحياة التي اعتبروها حقاً

وقدموا الإجلال لها، لقد عبدوا الآلهة

والحوا علينا بكل صور الإحترام

وبكل أسباب العبادة

ولكن إذا كانت آلهتنا كما تحدثوننا عنها قد ماتت

فدعونا نحن أيضاً نموت الآن

دعونا نهلك الآن

لآن آلهتنا قد ماتت كما تقولون.

إمبراطورية الأنكا

الأنكا (Inca) بالأصل قبيلة تدعى كوجوا كانت تقطن أحد وديان هضبة بيرو على ارتفاع عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر. كان افراد تلك القبيلة يعملون بزراعة الذرة والبطاطا وبعدد اخر من المحصولات انبتوها في مدرجات عُنوا عناية فائقة بتقوية جدرانها بالحجارة ولا تزال بقاياها تشاهد إلى الآن في منعطفات التلال وسفوحها. توسعت قوة قبيلة الأنكا وامتد نفوذها ليشمل جميع هضبة الأنديز والمناطق الأخرى المحاذية لشواطئ المحيط الهادي في كولومبيا والإكوادور وبيرو وبوليفيا وشيلي في الجنوب حتى غدت في الاعوام (١٤٣٨-١٥٣٢ م) اشهر وأعظم إمبراطوريات الهنود في أمريكا الجنوبية. ويشير اسم الأنكا إلى القبيلة التي كانت تحكم هذه الإمبراطورية الواسعة. كما أُطلق هذا الاسم أيضاً على منصب الإمبراطور أو الملك الوراثي الذي كان يدّعي أنه من سلالة إله الشمس.

كانت إمبراطورية الأنكا مقسمة إلى أربع مناطق، يحكم كلاً منها نائب للإمبراطور ويقيم في قسم خاص به من العاصمة كوزكو. برز الأنكا في فن العمارة وهندسة البناء وقد شيدوا معابدهم وحصنوها بكتل ضخمة من الحجارة المهندمة التي عُنوا عناية كبيرة بنحتها وصقل جوانبها وزواياها. كما اهتموا بشقّ الطرق وتسويتها لتيسير الاتصال بين أجزاء إمبراطوريتهم الواسعة. وقد عملوا على جعلها صالحة للإستخدام في فصول السنة المختلفة وفي جميع الظروف المناخية. برع صناع المعادن من الأنكا في صناعة الأدوات والأواني النحاسية والبرونزية والفضية والذهبية مستخدمين طرق الصب والطَرق والتطعيم. وكان الذهب متوفرا لديهم بكثرة حتى انهم زينوا قصر الأنكا (الإمبراطور) بافاريز من الذهب الخالص كما عملت جميع أواني وأدوات قصره من

الذهب أيضاً. وحين وصل القائد الاسباني بيزارو عاصمة الأنكا في عام ١٥٣٢ م كان هناك نزاع على العرش بين ورثة الإمبراطور اتاهولبا. فاستغلَّ الاسبان هذا النزاع لصالحهم وقاموا بتصفية المتنازعين واحداً بعد الآخر وبذلك اجهزوا تماماً على عائلة الأنكا الملكية وأتباعها المقربين. انهمك الاسبان بعدئذ بنهب ثروات البلاد والحصول على الذهب واهملوا العناية بأنظمة الري التي كانت عماد الزراعة في أنحاء الإمبراطورية. فتردت الحالة الاقتصادية والمعاشية للسكان، وتفشت بينهم الأوبئة التي فتكت باعداد كبيرة منهم. وبالرغم من فقدان تراث الأنكا الأدبي والعلمي بسبب قضاء الاسبان على حكمائهم وكهنتهم وحرقهم لمؤلفاتهم ومخطوطاتهم، إلا أننا لا نزال نجد بين هنود منطقة الانديز بعض السمات والممارسات والمظاهر الفولكلورية التي تذكّر ببعض جوانب الحياة التي قامت على أساسها حضارة الأنكا وإمبراطوريتهم الشهيرة.

كان الاعتقاد السائد بين الدارسين لحضارات العالم الجديد القديمة في العقود الأولى من القرن العشرين انها نشأت وتطورت محليًا وبعزلة تامة عن أي تأثير خارجي. إلا انه بتتابع الإكتشافات وتراكم المعلومات التي وفرتها التنقيبات والدراسات المقارنة صار بالامكان الاشارة باطمئنان إلى ان اصحاب حضارات أمريكا الوسطى القديمة وبالاخص المايا والأزتيك قد طوروا معارفهم في البناء والكتابة وبعض العلوم والمعتقدات، بعد احتكاكهم ببعض حَمَلة حضارة الشرق الادنى القديم. ويتأكد هذا الرأي أكثر إذا ما علمنا ان البدء بتشييد المصاطب المخروطية العالية من الحجارة والتي تقوم فوقها معابد صغيرة للآلهة كان بعد عام ٨٠٠ قبل الميلاد أي بعد احتكاك اصحاب تلك الحضارات بمجاميع من التجار والبحارة الكنعانيين القادمين من بلاد فينيقيا

(لبنان حالياً) الذين وصلوا سواحل أمريكا الوسطى في مطلع الألف الأول قبل الميلاد. كما تشير إلى ذلك كتابة فينيقية على حجر عثر عليه في أحدى غابات البرازيل.

ان النظرة الفاحصة للمصاطب العالية هرمية الشكل للمايا والأزتيك تجعل المرء يتجه بفكره على الفور إلى بلاد الرافدين وزقوراته العالية ومعابد الآلهة الصغيرة التي يعلو بعضها وما يكمن وراءها من فكر ديني وطقوسي. لهذا كله اظن ان باستطاعتنا ان نشير باطمئنان إلى التأثر الواضح لاصحاب حضارات أمريكا الوسطى بحضارات الشرق الادنى القديم وبالذات حضارة بلاد الرافدين.

بعض المراجع المفيدة لهذا الموضوع

١- اساطير العالم القديم. مترجم. القاهرة ١٩٧٥.
٢- عصور ما قبل التاريخ: د. تقي الدباغ و د. وليد الجادر ١٩٨٣. مطبعة جامعة بغداد.
٣- Lost world : L.Cottrell. 1962
٤- the Adventure of Archaeology : 1988 National Geographic Society .Washinton D.c
٥- Builders of the Ancient World.1986 National Geographic Society. Washinton D.c.

الفصل السادس

دلمون Delmun
جنة السومريين وأرض الخلود لديهم

١. توطئة :

عند السواحل الشرقية لشبه جزيرة العرب يقوم منخفض الخليج العربي الذي يبلغ طوله ثمانمائة وخمسين كيلومتراً، من شواطىء العراق شمالاً حتى مضيق هرمز جنوباً، حيث يتصل عنده بخليج عمان ثم بالبحر العربي والمحيط الهندي. كما يتراوح عرضه بين خمسين إلى أربعمائة كيلومتر، ويكون عرضه على اقصاه عند جنوب شبه جزيرة قطر. وعمق مياه الخليج يتراوح بين عشرة أمتار إلى مائة متر، ويزداد هذا العمق كلما اتجهنا جنوباً وشرقاً نحو سواحل إيران. غير ان حالة مياه الخليج العربي لم تكن على ما نجدها عليه اليوم، بخاصة في المراحل الأخيرة من العصور الجليدية التي مرت على الكرة الأرضية في المليون سنة الأخيرة. وتشير الدراسات الجيولوجية التي اجريت في قاع الخليج في مطلع السبعينات من القرن العشرين ان مياهه قد انخفضت إلى مادون مائة متر في حدود خمسة عشر ألف سنة قبل الميلاد، أي قاعه قد

اصبح آنذاك أرضاً يابسة. ويعتقد ان نهري دجلة والفرات كانا يجريان في هذه الأرض منفصلين ويصبان في خليج عمان. وعند انقضاء رابع واخر موجة جليدية، أخذت مناسيب المياه ترتفع في البحار والمحيطات في اعقاب ذوبان كتل هائلة من الجليد. فنال حوض الخليج العربي منها حصته حتى بلغ مستوى المياه كما هو عليه الان، أي مائة متر. وقد اثبتت سفينة الابحاث الجيولوجية الالمانية التي درست قاع الخليج أن ثلاثة شطآن تظهر بوضوح في هذا القاع نتيجة لتدرج امتلاء حوض الخليج بالمياه في ثلاث مراحل. وهذه الشطآن تشاهد عند الاعماق ٣٠ متراً و٥٠ متراً و٦٢ متر على التوالي، وحسب امتلاء قاع الخليج تبعا للكميات المستلمة من المياه. ففي سنة ٧٧٠٠ قبل الميلاد، كانت مياه الخليج العربي أقل منها على ما هي عليه اليوم بثلاثين متراً. وفي عام ٤٩٠٠ قبل الميلاد، أصبحت تقل بمستواها عنها الآن بأربعة أمتار. واخيراً وصلت إلى ما هي عليه في الوقت الحاضر عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد.

تتألف دلمون من ثلاث وثلاثين جزيرة منتشرة وسط الخليج العربي بمحاذاة الساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب، وتبعد عنه مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً. وتؤلف هذه المسافة طريقاً بحرياً نشيطاً للحركة التجارية والصلات الحضارية عبر مختلف العصور القديمة. وأبرز الجزر هي البحرين والمحرق وسترة وأم النعسان والبني صالح. واغلب صخور جزيرة البحرين جيرية والمياه التي تحيط بها ضحلة. وتكثر في الجزيرة العيون والينابيع أبرزها أم المهور قرب المحرق والكوكب عند خورقشت. وفي جزيرة المنامة توجد آبار خالد وأم غويفة. واظهرت الدراسات البيئية ان مناخ دلمون وغيره من اقطار الخليج العربي كان رطباً غزير الامطار قبل نحو عشرة آلاف سنة.

٢. دلمون في العصور القديمة

من أبرز نتائج الإستكشاف والتنقيب في البحرين خلال عدد من العقود الماضية من السنين التوصل إلى رأي مقبول بشان مملكة دلمون البحرية (تلمون في النصوص المسمارية) التي ورد ذكرها في الكتابات والملاحم العراقية القديمة، والتي عرفت بعلاقاتها الحضارية والتجارية والسياسية مع بلاد الرافدين في عصورها التاريخية المختلفة. وتصف عدد من الوثائق والنصوص المسمارية الاقتصادية رحلات بحرية انطلقت من مدن العراق القديم الجنوبية أور ولارسا ولجش ونفر وأكد، متجهة إلى موانىء مملكة دلمون في الساحل الغربي للخليج العربي. وجاءت أقدم هذه الوثائق من زمن أحد ملوك سلالة لجش الأولى في حدود سنة ٢٥٢٠ قبل الميلاد يذكر فيها ان سفناً من دلمون محملة بالخشب وصلت إلى مدينته (لجش) قادمة من البلدان الأجنبية (مدن حوض نهر السند خرابا وموهنجدارو). كما يذكر سرجون الأكدي (القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد) ان سفناً من دلمون ترسو في ميناء عاصمته أكد. وهناك احتمال كبير ان آثار الحريق التي شوهدت في بقايا مدينة الطبقة السفلى من قلعة البحرين قد تكون نتيجة لحملة سرجون أو حفيده نرام سين على عاصمة مملكة دلمون في مطلع القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد. وهناك نص آخر للعاهل السومري كوديا ٢٢٢٥ قبل.الميلاد، حاكم لجش، يذكر فيه ان زوجته أرسلت إلى دلمون الحبوب (الحنطة والشعير) والجبن مقايضة بمعدن النحاس، الذي كان يجلب من إقليم مكان (عمان). وهناك أيضاً نصوص مسمارية اكتُشفت في مدينة أور والتي يرجع تاريخها إلى الربع الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد، تذكر عقوداً تجارية أُبرمت بين تجار مدينة أورِ من السومريين وتجار من إقليم دلمون البحري، وان هناك عدداً من الأَدِلّة

تشير إلى الاوزان والمكاييل التي كانت في التعامل من قبل تجار أور ودلمون. واستمرت الصلات التجارية بين بلاد الرافدين ومملكة دلمون خلال العصرين البابلي القديم والكشي في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد واواسطه، بدليل العثور على عدد من رقم الطين مدوَّنة بالخط المسماري تذكر الصفقات التجارية التي عُقدت بين أمهات مدن العراق القديم ومدن مملكة دلمون واقليمي مكان وملوخا (عمان وحوض وادي نهر السند). ويشير أحد هذه النصوص إلى استيراد التمر من دلمون. وقد استمر التبادل التجاري والحضاري بين مملكة دلمون وبلاد الرافدين طيلة النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. إذ يذكر ملوك العصر الآشوري الحديث انهم كانوا على علاقات ودية مع مملكة دلمون البحرية وان ملوك دلمون كانوا يرسلون الهدايا إلى البلاط الآشوري باستمرار. هذا وان اخر نص مسماري اكتُشف في بلاد الرافدين فيه ذكر لدلمون يعود إلى عام ٥٤٤ قبل الميلاد.

وكان هنري رولنصون أول من ربط بين البحرين ودلمون مشيراً إلى احتمال ان تكون جزر البحرين في الخليج العربي هي موقع دلمون القديمة، أو عاصمتها على الأقل. وقد استند رولنصون في رأيه هذا إلى كتابة مسمارية كان قد عثر عليها الكابتن ديوراند في البحرين عام ١٨٧٩، وهذه الكتابة تتألف من ثلاثة اسطر بالخط المسماري وباللغة السومرية جاءت على حجر بشكل قدم إنسان وترجمتها :

قصر ريموم

خادم الإله انزاك

من (قبيلة) اكاروم

ولقد ورد ذكر الإله انزاك في قائمة الآلهة في بلاد الرافدين على أنه كبير آلهة دلمون. كما عرف في جميع عهود العراق القديم الحضارية

بأنه حامي جزيرة (أو جزر) دلمون والمناطق الساحلية. وقد جاء وصف لدلمون في الكتابات المسمارية من بلاد الرافدين بأنها جزر فيها الكثير من المياه العذبة، تبعد عن بلاد الرافدين مسافة يومين بطريق البحر إذا صاحبتها ريح طيبة. وهناك ترتيلة سومرية يرجع تاريخها إلى نحو ألفي سنة قبل الميلاد تحكي :

ان دلمون أرض مقدسة باركها إلآله انكي، إله المياه العذبة، ومنحها الماء بطلب من إلهة دلمون نن - سيكال. وإذ يستجيب انكي إلى طلبها وببركة اوتو إله الشمس يصل الماء العذب إلى دلمون وتختتم الترتيلة بهذه الكلمات :

مدينتها تشرب الماء الوفير
دلمون تشرب ماء الرخاء
آبارها ذات الماء المر انظروا
تراها قد صارت مياهها عذبة
حقولها انتجت الغلة والقمح
دلمون صارت داراً للشواطىء
ومراسي الأرض
يا أرض دلمون الطاهرة
يا أرض دلمون المقدسة
يا أرض دلمون النقية
لا ينعب الغراب في دلمون
والاسد لا يفترس
والذئب لا ينتهش الحمل
والكلب المسعور لا يفترس الأطفال

ولا تقول المرأة المسنة (في أرض دلمون)
أنا امرأة طاعنة في السن
ولا يقول الشيخ الكبير (في أرض دلمون)
أنا طاعن في السن

ويضم نص الترتيلة تعيين الاله انكي ابنته لتكون الإلهة الحامية لدلمون:
ويجيب الاله انكي ابنته نن - سيكال :

ليقم اوتو (اله الشمس) المستقر في السماء باحضار المياه الحلوة من الأرض، من مصادر المياه من الأرض، دعيه يجعل دلمون تشرب المياه بوفرة، فلتنتج اطيانك وحقولك قمحها ولتتحول مدينتك إلى مرفأ الأرض.

وفي قصة الطوفان السومرية إشارة إلى ان الناجي الوحيد من تلك الكارثة المروعة قد كوفئ بمنحه الخلود واسكن في دلمون. كما ان البطل جلجامش قد سعى إلى دلمون حيث يقيم جده اوتونايشتم بحثاً عن الخلود.

هذا وان إكتشاف القدم الحجرية التي تحمل الاسطر الثلاثة بالخط المسماري وباللغة السومرية في بقايا أثرية مؤكّدة وواضحة في قلعة البحرين يدعم الرأي الذي يذهب إلى ان موقع دلمون القديمة هو جزر البحرين أو انها كانت في الأقل حاضرة لذلك القطر البحري الذي جاء ذكره في المصادر المسمارية على أنه مملكة دلمون وان حدوده الشمالية تبدأ عند جزيرة فيلكا في الكويت، وان الإله انزاك كان الإله الحامي لتلك المملكة البحرية التي كانت لها علاقات إقتصادية وحضارية بارزة ولفترات طويلة من التاريخ القديم مع بلاد الرافدين.

٣. البقايا الأثرية والعمرانية في دلمون

تقع مملكة دلمون في منتصف المسافة بين رأس الخليج العربي في الشمال ونهايته الجنوبية عند مضيق هرمز. وجزيرة البحرين الرئيسية صغيرة نسبيًا، يقع طرفها العريض في الشمال حيث تقوم معظم المدافن الصغيرة وتضيق الجزيرة في طرفها الجنوبي الذي تغطيه الرمال. وفي منتصف الساحل الشمالي حيث تقوم العاصمة منامة تقع قلعة البحرين ممثَّلة بتل كبير طوله ٤٥٠ متراً وعرضه ٢٠٠ متراً، وعلى قمته تنهض بقايا القلعة التي شيدها البرتغاليون في حدود عام ١٥٢٢ والتي تعرف بالقلعة البرتغالية أو قلعة البحرين، يحيط بها خندق بعمق عشرة أمتار. واستخدم البرتغاليون هذه القلعة نحو ثمانين سنة، وقد جرى ترميمها بعد ذلك واتُّخذت مكانًا للسجن في مطلع القرن العشرين.

كشفت تنقيبات البعثة الدانماركية، خلال الخمسينات من القرن المنصرم، عن بقايا لخمس طبقات سكنية أو بقايا لخمس مدن متعاقبة، أقدمها، أي اسفلها، يرجع إلى مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، أي بداية ما يسمى بالعصر البزنزي، واحدثها أي اعلاها يعود إلى الفترة الهلنستية (القرن الثالث قبل الميلاد).

لقد شوهدت آثار حريق ودمار بين بقايا تراكمات الطبقة السفلى قد يكون سببها الهجوم الأكدي الذي تعرضت له في حدود ٢٣٠٠ قبل الميلاد. وتقوم معظم بقايا الطبقة السفلى بمحاذاة البحر حيث دور للسكنى صغيرة ومتواضعة، وقد غطتها البقايا البنائية الفخمة لمدينة الطبقة التالية (الرابعة)، ومنها أجزاء من سور ضخم تتخلله فتحة لبوابة المدينة. يعود زمن تاسيس المدينة الرابعة هذه في قلعة البحرين إلى ما بعد عام ٢٣٠٠ قبل الميلاد. أي في أعقاب خراب المدينة السفلى (الخامسة) بايدي الأكديين. دامت المدينة الرابعة زمناً طويلاً يربو

على ٥٠٠ عام. ومن المحتمل ان اصحابها كانوا قد أقاموا آلاف المقابر المنتشرة وسط الجزيرة وكانوا المسؤولين عن تشييد معبد باربار (Barbar) بادواره الثلاثة. وقد سمي المعبد هكذا نسبة لإسم القرية المجاورة التي تدعى باربار. ويشبه المعبد في تخطيطه البنائي عمارة وتخطيط المعابد السومرية في بلاد الرافدين من أواخر عصر فجر السلالات (منتصف الألف الثالث قبل الميلاد). وقد احيط المعبد بجدار ضخم بيضوي الشكل ويقوم على مصطبة بيضوية الشكل أيضاً. وهو بهذا يشبه نظيره المعبد السومري في تل خفاجي في منطقة ديالى في وسط العراق. وعثر بين بقايا الطبقة الرابعة أيضاً على عدد من الاختام والاوزان مصدرها على ما يظهر مواقع حضارة وادي نهر السند، شمال غربي القارة الهندية، وهي شبيهة بتلك التي عثر عليها في عدد من أمهات المدن السومرية، بلاد الرافدين.

وهذه اشارة واضحة إلى سعة التبادل التجاري لسكنة دلمون في هذه الفترة من التاريخ القديم مع الشرق (حوض نهر السند) والشمال (بلاد الرافدين). ومن المعتقد بعد هذا ان مدينة الطبقة الرابعة في قلعة البحرين كانت أحدى أبرز مدن مملكة دلمون التي ورد ذكرها في نصوص العراق القديم المسمارية في هذه الفترة بالذات. يرجع زمن مدينة الطبقة الثالثة في قلعة البحرين إلى حدود الاعوام (١٧٠٠-١٢٠٠ قبل الميلاد)، إذ ان الكثير من بقاياها الفخارية مشابهة لمثيلاتها من العصر البابلي القديم والكاشي في العراق القديم. وقد كشف عن أجزاء بنائية واسعة بين ركام هذه الطبقة إلى الجنوب من القلعة البرتغالية مباشرة. وتعاصر مدينة الطبقة الثانية زمن الإمبراطورية الآشورية الحديثة (٩١١-٦١٢ قبل الميلاد) في بلاد الرافدين.

وقد أشار عدد من الملوك الآشوريين في هذه الفترة إلى علاقاتهم مع

مملكة دلمون وعاصمتها بالذات. هذا ومن الملاحظ ان بقايا التراكمات الأثرية لمدينة الطبقة العليا (الأولى) ضئيلة جداً سوى عدد من دور السكنى، وقد كان تأسيس هذه المدينة في عصر الاسكندر المقدوني وخلفائه من السلوقيين. إذ كشف عن مجاميع من فخاريات ودمى الطين اليونانية التي تشير بوضوح إلى علاقات تجارية وحضارية مع السلوقيين في بلاد الرافدين وبلاد الشام.

٤. مدافن دلمون

في دلمون ما يقرب من مائة ألف قبر تحتل مساحة قدرها عشرون ميلاً من الطرف الشمالي من أكبر جزر البحرين، مكوّنةً بذلك أضخم مقبرة عرفها العالم القديم. وتغطي أرض المقبرة الواسعة المنطقة الممتدة بين قرية عالي وطريق الهملة مارة بالبساتين المحيطة بقرية دستان وكرزكان والمالكية.

جرت أول محاولة للتنقيب في تلول المقابر هذه في الاعوام (١٩٠٦-١٩٠٨). فقد قام الميجر بريدوكس، المعتمد البريطاني في البحرين، خلال هذه الفترة بالكشف عن خمسة وثلاثين تلاً من تلول المقابر الصغيرة. وقام بعده في عام ١٩٢٤ الآثاري المعروف ارنست مكاي بالحفر في تل آخر من تلول المقابر. ثم اعقبه بيتر كورنوول بأعمال مماثلة نشر نتائجها في عامي (١٩٤٠-١٩٤١). واعقبته البعثة الدانماركية خلال الخمسينات حيث قامت بفحص أكثر من خمسين تلاً من هذه المقابر في عدد من مواسمها التي أنجزتها في البحرين. واخيراً تولت دائرة الآثار التي أسستها حكومة البحرين التنقيب في تلول المقابر بكوادرها الوطنية التي تخصصت بعلوم الآثار والمتاحف.

يرجع زمن مقابر دلمون في الغالب إلى مطلع العصر البرونزي، في

بداية الألف الثالث قبل الميلاد. وقد اظهرت التنقيبات التي تمت في عدد كبير منها ان لصوص الآثار قد نبشوا معظمها وعبثوا به في حقب مختلفة، وان مجاميع كبيرة من محتوياتها قد سرقت وتسربت إلى الخارج. ومدافن دلمون هذه على نوعين:

القبر أو المدفن المفرد Single chamber tomb

والمدفن المزدوج، أي قبر ذي غرفتين Double chamber tomb

النوع الأول : أي المدفن المفرد ، يُعَدُّ النموذج الشائع لقبور العصر البرونزي. ويتألف هذا المدفن من غرفة دفن واحدة تتَّجه من الشرق إلى الغرب، ويقع مدخلها في الطرف الغربي من القبر ويميز بجدارين بارزين بعض الشيء عن الضلع الكائنة فيه. تغطي غرفة الدفن عادة قطع حجرية كبيرة مكونة بذلك سقف المدفن وتشيد جدران المدفن عادة بعدد من سوف الحجر ترصف بجانب بعضها بدون ملاط. كما ترصف أرضية المدفن بالحجارة أيضاً. إلا انها تغطي بطبقة من الرمل. عند الشروع بدفن الموتى، يوضع المتوفى عادة على جنبه الأيمن وركبتاه مثنيتان وقدماه باتجاه مدخل القبر واليدان مشبكتان على الصدر بوضع يجعلهما متجهتين إلى الوجه.

ومن أبرز اثاث الدفن في قبور هذا النوع جرار فخارية كمثرية الشكل في الغالب بعنق طويل تزين اجسامها حزوز دائرية غائرة، وهي معمولة بالدولاب من طينة حمراء واحجامها مختلفة يتراوح ارتفاع بعضها من ٦-١٠ انجات. وبعض الجرار الصغيرة الحجم تكون كروية الشكل تغطي اجسامها قشرة حمراء. ومع المتوفى يوضع في هذه القبور طعام لرحلة الذهاب إلى العالم الآخر، يتكون عادة من لحوم حيوانات أليفة كالغزلان والخراف والجمال أحياناً. ويكون الطعام مطبوخاً عادة. وكُشف في عدد من المدافن عن بعض هياكل عظمية لكلاب وضعت عند قدمي المتوفى،

وفي بعضها الآخر أكوام من التمر. كما عثر في قسم منها على كميات من قشور بيض النعام المصبوغة باللون الأحمر الفاتح، وكانت هذه تعد أكوابًا للماء ترافق المتوفى. أما مدافن الرجال فتزود عادة بأسلحة المتوفى من سيوف ورؤوس حراب وخناجر تلقى على أرضية المدفن بجوار المتوفى أو تُغَمد في جدران غرفة الدفن.

والنوع الثاني : من المدافن، أي المدافن المزدوجة، يكشف عنها عادة في التلال الكبيرة والمرتفعة في الطرف الشمالي الغربي من البحرين على مقربة من قرى الجنينة والقرية وسار. ويتألف المدفن المزدوج في العادة من غرفتين إحداهما فوق الأخرى. ويبلغ قطر هذا النوع من المدافن في الغالب عشرين مترًا وإرتفاعه ٤ و ٦ أمتار، ويحاط عادة بدائرة من الحجارة الضخمة. وتفرش أرضية غرفة المدفن السفلى بالحجارة والتربة العذراء ويكون في جدارها الايمن (بالنسبة للداخل) فتحتان تخلو منهما جدران الغرفة العليا.

وتغطى أرضية غرفة المدفن العليا بكسر من الحصى وتربة نقية من الرمل وهذا يشير إلى ان القوم كانوا يرغبون بدفن موتاهم على أرض نظيفة وتربة عذراء إعتقادا منهم بمسألة الخلق، أي العودة بعد الموت إلى الأرض العذراء والتربة النقية التي خُلقوا منها. ولقد تعرضت المدافن المزدوجة أكثر من غيرها إلى النبش والنهب، حتى ان من نقب فيها لم يجد أية قطعة من الاثاث الجنائزي، وان هياكل الموتى في بعضها وجدت مبعثرة من جراء عبث اللصوص ونبشهم.

٥. **مدافن عالي العملاقة** Giant Tumuli of Aale

تنتشر هذه المدافن العملاقة حول قرية عالي وهي من أكبر واضخم مدافن دلمون، تعلو الضخمة منها فوق أشجار النخيل في المنطقة.

وقد بلغ ارتفاع أحدها أكثر من خمسة وعشرين متراً، كما بلغ ارتفاع تسعة منها عشرين متراً لكل منها، بينما يكون علو خمسة أخرى أكثر من خمسة عشر متراً عن الأرض المجاورة. يتألف المدفن العملاق من غرفتين أحداهما فوق الاخرى، شكل كل منها مستطيل باتجاه شرق - غرب. وتضم زاويتا الغرفة الشرقيتان حنايا، تتوجد مثلها أحياناً في الزاويتين الغربيتين لكل غرفة. والمدافن هذه مشيدة بالحجارة وجدرانها الداخلية مغطاة بالملاط، وسقوفها تتألف من حجارة ضخمة من الكلس، ومداخلها تكون عادة في اسفل جدارها الغربي وهي تغلق بإحكام بعد ختام مراسم الدفن، ثم تهال عليها أكوام من الحجارة والرمال منعًا من محاولة اختراقها والعبث بمحتوياتها، ومع هذا كله فقد وجد بعضها منهوباً.

أول من بدأ التحري في قبور عالي العملاقة من المنقبين الكابتن ديوراند، مساعد المقيم البريطاني في البحرين، عام ١٨٧٩. وقد انجز في حينه مسحاً وتنقيباً في أحدها لحساب حكومة الهند آنذاك. ومع ضخامة المدفن فقد وجده خالياً تماماً. واعقبه في هذا المسعى المنقب بينيت وزوجته. وبعد انقضاء عشر سنوات في هذا العمل إستطاعا فتح مدفنين وجدا في أحدهما بقايا عظمية بشرية وبعض لقى، منها تمثال صغير من العاج مع ساق لثور من العاج وصناديق صغيرة من العاج أيضاً، وعثر في غرفة المدفن السفلى، صحبة بقايا المتوفى العظمية، على كمية من الملابس المتهرئة. وفي عام ١٩٠٣، قام البلجيكي جوانين بمحاولة فتح مدفن آخر من المدافن العملاقة غير أنه وجده خالياً من أي بقايا. هذا وان أبرز أعمال التنقيب في هذه المدافن قام بها الميجر بريدوكس في عام ١٩٠٦ حيث فتح تسعة مدافن وأنجز رسم مخططاتها موضحاً بذلك أسلوب تشييدها وطبيعة عمارتها. غير أنه لم يعثر في أي

منها على بقايا هامة ما عدا كسرة عاج لساق لثور في أحدها وعلى خاتم من الذهب في آخر. وبالرغم من ذلك فان الدراسة الوافية التي وضعها بريدوكس عن مدافن عالي العملاقة صارت مرجعاً مفيداً للدارسين لما تتضمنه من ملاحظات ميدانية وخرائط ومخططات مدعومة بالأرقام والقياسات لهذه المدافن.

أعقب بريدوكس في العمل في مدافن عالي الآثاري ارنست مكاي في السنوات ١٩٢٤-١٩٢٥، فنقب في عدد كبير منها، كان بعضها من المدافن المزدوجة. وقد كشف مكاي عن عدد من اللقى بينها صناديق مهشمة من العاج وتمثال فاقد الراس من العاج أيضاً وعدد من رؤوس حراب من البرونز ومجاميع من الأواني الفخارية وأعداد كبيرة من بيض النعام.

وقامت بعد ذلك، خلال الخمسينات والستينات من القرن المنصرم، البعثة الدانماركية التي تمكنت من الدخول إلى اثنين وأربعين مدفناً وجد معظمها مسروقاً ومخرباً. إلا انها جمعت اعدادا من اللقى الهامة بينها أواني من حجر مرمر شمعي وهياكل عظمية لكلاب واعداد كبيرة من أقداح من بيض النعام ورؤوس حراب من البرونز ومجاميع من الأواني الفخارية شبيهة لمثيلاتها في معبد باربار، وحلقة ذهبية حلزونية الشكل وأختام معمولة من محار بحري. ونتيجة الدراسة المقارنة التي اجريت لهذا كله تبين ان مدافن عالي العملاقة ترجع بزمنها إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد.

وقرب قرية الحجر في البحرين كشفت دائرة الآثار البحرينية، في مطلع السبعينات من القرن المنصرم عن عدد من المدافن الجماعية تعقب في زمنها مقابر عالي العملاقة، يضمُّ القبر الواحد من مقابر الحجر هذه عدداً من غرف الدفن تتصل ببعضها بممرات ومداخل

وسلالم من الحجر تسهل الدخول إليها والخروج منها. ومن الملاحظ ان عدداً كبيراً من قبور الحجر قد أعيد فيه الدفن مرات عديدة وخلال ازمان متعاقبة.

وجدت دائرة آثار البحرين العديد من اللقى في مدافن الحجر على جانب كبير من الأهمية نظراً إلى مشابهتها لمثيلاتها في حضارة العراق القديم من العصر البابلي القديم في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، كالاختام الاسطوانية وأواني فخارية وأواني من حجر الستيتايت تشبه ما يعاصرها من الفترة الآشورية الحديثة في مطلع الألف الأول قبل الميلاد، واخرى مشابهة لمثيلاتها من العصر البابلي الحديث (الكلدي) مع أواني فخارية واختام اسطوانية وسيف من الحديد. كما وجدت في قبور أخرى في مدافن الحجر أواني زجاجية جميلة من العصر السلوقي (مطلع المائة الثالثة قبل الميلاد). وعثر في بعضها الآخر على عدد من الفخاريات والاختام القرصية الدلمونية.

مراجع مفيدة للبحث

١- رضا جواد الهاشمي : المدخل لآثار الخليج العربي، بغداد ١٩٨٠.

٢- رضا جواد الهاشمي : آثار الخليج العربي والجزيرة العربية، بغداد ١٩٨٤.

٣- د. منير يوسف طه : دلمون فردوس السومريين، آفاق عربية أيلول ١٩٩٢.

٤- د. منير يوسف طه : مكان وشبه جزيرة عمان، آفاق عربية شباط ١٩٩٣.

٥- د. اكرم عبد كسار : وحدة حضارة وادي الرافدين والخليج العربي في ضوء المكتشفات الأثرية، آفاق عربية، تشرين الأول ١٩٩٢.

٦. الكهوف والملاجىء الصخرية وتكّوّنها

الكهوف والملاجىء الصخرية (Caves and Rock shellers) هي منازل الإنسان الطبيعية، وتوجد عادة في المناطق الجبلية والهضاب والمرتفعات، وسكنها الإنسان منذ أقدم العصور الحجرية في الليل خاصة وفي الفصول المطيرة والباردة من السنة. وقد تستمر سكنى بعض الكهوف لعصور متعاقبة تالية للعصور الحجرية حيث تكون عادة سكنى وقتية لأناس جبليين ورعاة يقصدونها في بعض مواسم السنة الشديدة البرودة والامطار.

وقد خلف لنا الإنسان بقاياه في هذه الكهوف والملاجىء الصخرية بهيأة طبقات متعاقبة في أرضية الكهف تتراكم فوق بعضها البعض حيث تنتشر في طياتها آلاته من الحجارة والصوان والعظم مع بقاياه العظمية. كما قد يترك أيضاً آثاره الفنية ورسومه على جدران الكهوف أو سقوفها كما في كهوف اسبانيا وفرنسا وشمالي أفريقيا.

وتكّونت الكهوف والملاجئ الصخرية، كبيرها وصغيرها، بفعل عوامل جيولوجية وأخرى طبيعية. وان العامل الرئيسي في تكوّنها المياه الجوفية المتدفقة باستمرار في باطن الجبال والوديان. وان أي كهف من الكهوف المعروفة هو عبارة عن حوض أو قاع لنهر جوفي، وان اختفاء هذا النهر أو الجدول الجوفي حالياً من هكذا كهوف سببه ان النهر الذي كونها خلال آلاف من السنين قد وجد له مجرى آخر في مستوى آخر ادنى (أعمق) واختفى عن الانظار.

ويرافق المياه الجوفية الجارية في حفر أنفاق لها خلال جريانها عاملان أحدهما كيميائي والآخر ميكانيكي.

ان مياه الأمطار تحوي في سقوطها دوماً كميات لا يستهان بها من حامض الكربونيك (Carbonic Acid) ناتج عن إتحاد ثاني اكسيد

الكربون الموجود في الهواء مع بخار الماء في الجو. وكما هو معروف ان الحوامض تعمل على تآكل الكربونات، ولما كانت معظم الصخور الجبلية حيث تتواجد الكهوف عبارة عن كاربونات الكالسيوم أي الكلس أو الجبس أو مزيج من كاربونات منغنيز الكالسيوم، لذا فإن سطوح هذه الصخور تتآكل بالترسب الطبيعي مكوّنة بذلك البيكاربونات التي تكون بدورها قابلة للذوبان بالماء. وبتكرار هذه العملية على مرّ العصور تحدث فجوات في الصخور تنفد من خلالها المياه الجوفية المتدفقة. ومع العامل الكيميائي يعمل الفعل الميانيكي عن طريق الماء المتدفق الذي يجرف في طريقه الصخور والتربة التي تعمل بدورها في تآكل وصقل السطوح التي تمر من خلالها. وبهذا يأتي تفسير سبب وجود الكهوف في الأراضي والمناطق الكلسية وليس في تلك التي حجارتها جرانيتية .

إن تكوّن أعمدة الستلكتايت (Stalactites) والستلكمايت هي نتيجة طبيعية للعملية أعلاه. إذ حينما ينفذ الماء الذي يحوي بيكاربونات ذائبة إلى أحد الكهوف وعند تبخره داخل الكهف تتخلف عنه كاربونات الكالسيوم بهيأة ترسبات تأخذ بالتراكم باستمرار عملية الترشيح لآلاف السنين، مكوّنة بذلك أعمدة جميلة ذات حجوم مختلفة تبهر انظار من يشاهدها. ان إستمرار البحث العلمي للكشف عن عدد السنين أو القرون التي تحتاجها أعمدة الستلكتايت والستلكمايت حتى تتكون لم يصل إلى نتيجة مؤكدة إلى الآن، لأن تكوين تلك الأعمدة في الواقع هو وليد الصدفة في أغلب الاحيان، اذ يعتمد على كمية المياه وما تحويه من أملاح معدنية، وعلى نوع التربة التي تنفذ خلالها واتجاه تيارات المياه المتدفقة.

الفصل السابع
تنقيبات وأعمال ميدانية

مقدمة :

فيما يلي مجموعة من البحوث والدراسات الاثارية هي نتائج تنقيبات واعمال ميدانية قام بها الكاتب بنفسه، او اشرف ميدانياً وعلمياً على بعضها (تنقيبات انقاذية شاملة في حوضي سدي حمرين في منطقة ديالى شرقي بغداد، واسكي موصل في محافظتي نينوي ودهوك)، بين الأعوام ١٩٥٦ وحتى مطلع ربيع ١٩٨٦ عند تقاعده من العمل الوظيفي. والبدء بموضوع مواطن الآثار في حوض سد دوكان والتنقيب في موقع باسموسيان (الرقم ١) كان بسبب انجازه عند بداية التحاق الكاتب بالعمل في مؤسسة الآثار في أواخر تموز ١٩٥٥ بعد تخرجه مباشرة في قسم الآثار والحضارة في كلية الآداب. فقد ذهب صحبة المرحوم الاثاري محمد علي مصطفى الى منطقة الحوض في سهل بتوين في شهر ايلول من نفس العام، حيث قاما بمسح آثاري شامل للمواقع التي ستغمرها مياه الحوض بعد الانتهاء من تشييد السد. لقد انجز هذا المسح أما مشيا على الاقدام او على ظهور الخيل عند توفرها، وعلى طريق نهر الزاب الاسفل، وخلال اسبوعين تم احصاء ما لا يقل عن اربعين موقعاً اثرياً معرضة للغمر يشار الى وصف مختصر لغالبيتها في ثنايا هذا البحث. وقد اوصينا، في التقرير الذي اعددناه بنتائج المسح هذا، التنقيب في عدد كبير من التلول في منطقة الغمر كان من بينها تل باسموسيان،

الذي كان العمل فيه من حصة الكاتب مع عدد من الزملاء من منتسبي مؤسسة الآثار في صيف عام ١٩٥٦ وتعرض نتائجه ايضاً ضمن هذا البحث. كانت عمليات التنقيب في باسموسيان تجربة الكاتب الاولى في اعمال التنقيب إثر تخرجه من الكلية، الا انها كانت تجربة غنية بحلوها ومرها. وقد استطاع الكاتب رغم صغر سنه وحداثته في العمل الميداني آنذاك من تحقيق نتائج جيدة وذلك بفضل تعاون زملاءه اعضاء فريق العمل، ومنهم بالذات الكوادر العمالية (الاسطوات) وبالاخص المرحومين عيسى الطعمة ومحمد الاحمد الحميضة، وبقية الاسطوات الشرقاطيين الذين منحوه وبسخاء خبرتهم وتجربتهم الطويلة في اعمال الحفر والتنقيب عن الآثار وذلك للهفته على التعلم منهم والجلوس اليهم في خنادق التنقيب طويلاً والاستماع بجد الى شروحاتهم وملاحظاتهم. وكان لهذا كله جوانب ايجابية مجزية بقت تلازمه وترافق تنقيباته في كل موقع او منطقة عمل فيها حتى نهايات عمله الميداني في الآثار في أواخر الثمانينات من القرن المنصرم. اقمنا مخيم هيئة التنقيب قرب شاطئ الزاب الصغير الغربية حيث يقوم موقع باسميان على مسافة نصف كيلومتر باتجاه مغيب الشمس والذي تغطى سفوحه الشرقية قرية باسموسيان الكردية ورئيسها الشيخ كاكه حمه والذي كان لتعاونه معنا الاثر الكبير في نجاح مهمتنا العلمية خلال موسم التنقيب. ورغم اشهر الصيف الحارة الا ان مناخ المنطقة كان معتدلاً عدا ما كان يعكر هذا الاعتدال الرياح لشرقية اللاهبة والتي يطلقون عليها محلياً اسم الرشبه (اي الهواء الاسود). وكانت هذه الرياح تحيل حتى ليالي الصيف الباردة نسبياً الى فرن لاهب. فكنا نقدم على التخفف من ملابسنا والغطس في مياه نهر الزاب لتفادي سموم الرشبة.واحدى موجات هذه الرشبة اثارت حريقاً، في أواخر شهر تموز، صار يتقدم نحو المخيم ليحيق به

من جهاته الثلاث فصرنا كلنا ومعنا العمال الشرقاطيين وسكنة القرية نكافح لاطفاء النار محاولين ابعادها عن المخيم وذلك بالضرب على حافات اللهب بأوراق التبغ الخضراء التي نزعناها من مزارع التبغ القريبة. ومن مجموعة بحوث تنقيبات تل الصوان، قرب سامراء في وسط العراق، أقدم نتائج تنقيبات الموسم الرابع (الرقم ٢). لقد كان الهدف وراء اختيار هذا الموقع لعلميات تنقيب شاملة في حينه سببان كما هو موضح في مقدمة البحث عن نتائج اعمال هذا الموسم : اولهما الكشف في هذه المنطقة من وسط العراق الى ما قد يشير الى احتمال العثور على بقعة التلاقي الحضاري بين الشمال والجنوب في أواخر العصر الحجري الحديث (الألف السادس ق.م) وثانيهما التعرف على المزيد من بقايا عصر سامراء لما قبل التاريخ اضافة لفخار ياته المعروفة سابقاً في مواقع الشمال وفي عدد من القبور وجدها هرتزفيلد في مطلع القرن العشرين في مكان ما اسفل بقايا قصر الخليفة في سامراء عند الحافة الشرقية لنهر دجلة. وقد جاءت نتائج تنقيبات الموسم الاول وما اعقبها من اعمال (نتائج تنقيبات الموسم الخامس في ادناه – الرقم ٣) مصداقاً لكل التوقعات إضافة للكشف عن بقايا عمارية وأدلة دفاعية ولقى وتماثيل من الحجر الشمعي التي يكشف عنها لأول مرة في هذه البقعة من بلاد الرافدين او الشرق الادنى القديم.

ان مجموعة مواسم التحري والتنقيب في تل قالينج اغا الكائن وسط المنطقة السكنية في مدينة أربيل، جنوبي قلعتها وعلى يسار الطريق العام الذاهب الى كركوك، كان بسبب عائديته مع ما يحيط به من أراضي لاحدى عوائل اربيل والتي اعلنت عن رغبتها بتقسيم هذه الاراضي بما فيها الموقع الاثري وبيعها للمواطنين للبناء، مما دفع مؤسسة الاثار الى استملاكها بأكملها، بعدان تأكد لاجهزتها العلمية، نتيجة لموسمين من

اعمال السبر والتحري قصيرين (كان الاول لمدة ثمانية من ٢٩ كانون ثاني- شباط ١٩٦٧، والثاني للمدة من ٤-٣١ آذار ١٩٦٧)، اعقب ذلك كله تنقيبات شاملة في صيف ١٩٦٨ (١٧حزيران - ٥ أيلول) نشرت نتائجها كاملة بالعربية والانكليزية في سومر المجلد ١٥ سنة ١٩٦٩ (الرقم ٤). وقد اظهرت كل هذه الاسبار والتنقيبات الشاملة عن ادلة تؤكد ان تل قالبنج آغا قد سكن لأزمان متعاقبة خلال الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد في ادوار حلف والعبيد والوركاء، وربما كان السكن قد انقطع فيه في مطلع الالف الثالث قبل الميلاد. اضافة الى العدد الكبير من اللقى الاثرية المكتشفة خلال اعمال التنقيبات الشاملة في صيف عام ١٩٦٨، بما فيها الفخاريات والدمى الطين والحرز والخرز والقلادة الكاملة من الذهب ورؤس العجول ذات القرون من الطين واشكال آلهة العيون الكبيرة العدد من الطين (Eye-Idols) وغيرها. كما ان الطبقة الثالثة في الموقع والتي يعود تاريخها الى عصر الوركاء كانت غنية ايضا بالبقايا العمارية. وقد كشف فيها عن حيين سكنيين يفصل بينهما شارع ينحدر نحو الغرب وينتهي عند سطح التل قرب مسار الشارع المحاذي الذاهب الى كركوك. يتوسط كل من هذين الحيين معبد ثلاثي التخطيط البنائي (Tri - partite) يقوم كل منهما على مسطبة من اللبن، قد تكون هي ومثيلاتها في تل العقير في وسط العراق البدايات الاولى لمباني الزقورات اللاحقة التي تميزت بها عمارة الالف الثالث ق.م وما بعده في بلاد الرافدين. هذا وأن جدران غرفة المصلى في معبد الحي الغربي في قالينج أغا الداخلية كانت مصبوغة بطلاء ابيض، كما وجدت على اسفل الجدار الشرقي لهذه الغرفة بقايا افريزمنقوش باللونين الاحمر والاسود على الارضية (الطلاء) البيضاء باشكال معينات.

في البحث رقم ٥ كلام مقتضب للكاتب بنتائج التنقيبات الانقاذية

الشاملة في حوض سد حمرين في منطقة ديالى شرقي بغداد والتي انجزت من قبل بعثات تنقيب عراقية، بما فيها بعثتي جامعتي بغداد والموصل، وبعثة عربية لمنظمة التحرير الفلسطينية برئاسة المرحوم الدكتور برامكي رئيس قسم الآثار في الجامعة الامريكية في بيروت وعضوية الدكتور ابراهيم ابو غوش مسؤول الآثار في المنظمة مع لفيف من طلبة وطالبات الجامعة. بالاضافة الى عدد كبير من بعثات التنقيب الاجنبية اوروبية وامريكية وكندية ويابانية، وذلك للاعوام ١٩٧٧ - ١٩٨٠ وقد كان الكاتب مشرفاً علمياً وادارياً على كامل اعمال التنقيب في الحوض. وضم المقال رقم ٦ خلاصة بأعمال التنقيبات الانقاذية الواسعة في حوض سد اسكي موصل في شمال العراق، للبعثات العراقية والاجنبية للاعوام ١٩٨٠ - ١٩٨٦ فقد كان الكاتب ايضاً مشرفاً علمياً على هذه الاعمال اضافة الى عمله مديراً عاماً لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية في حينه. والبحث رقم ٧ والذي عنوانه : تاريخ منطقة الموصل القديم والذي كان قد نشر ضمن بحوث موسوعة الموصل الحضارية الذي اصدرته جامعة الموصل. والموضوع يضم خلاصة بتاريخ وحضارة منطقة الموصل وقلعتها بالذات المكونة من تل واسع مرتفع يؤلف مركز مدينة الموصل العتيقة المطلة على نهر جلة في جزءها الشرقي لقد كان هذا التل المرتفع، والذي يطلق عليه محلياً اسم قليعات، حصنا او قلعة اشورية، واحداً من عدد كبير من القلاع الاشورية الدفاعية الى الغرب من العاصمة نينوى عبر نهر دجلة خلال تواجد الاشوريين في المنطقة منذ اواخر الالف الثالث ق.م وحتى سقوط العاصمة نينوى في العام ٦١٢ ق.م على ايدي التحالف الكلدي الميدي. واكتشاف منشآت ري بابلية محاذية لنهر دجلة في منطقة خضر الياس في جانب الكرخ من بغداد هو البحث الاخير ذو الرقم ٨ في هذه المجموعة من بحوث نتائج الاعمال

الميدانية للكاتب والذي يلخص نتائج اعمال الحفر والاستكشاف التي رأسها الكاتب خلال صيف عام ١٩٧٥ حين كان العمل جارياً في تشييد جسر باب المعظم ومقترباته في جانب الكرخ، حيث اصطدمت اعمال الحفر لا نزال اساطين الجسر في هذه الناحية من الشاطئ، في جانب الكرخ ببقايا جدران من الطابوق مربع الشكل وبأحجام كبيرة، مما هو معروف في ابنية مدينة بابل التاريخية على ايام العاهل الكلدي - البابلي نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ -٥٦٢ ق.م) وفي غيرها من أمهات مدن بلاد الرافدين التي امتدت اعماله العمرانية اليها. وقد جاءت نتائج اعمال الحفر الميدانية والدراسة المقارنة للمعطيات التاريخية والنصوص المسمارية، كما طرحها الكاتب مرجحة لاكثر من احتمال عن ما هية هذه المنشأت بكونها شاذروانا او مسناة او سوراً (وهذا الارجح) شيده نبوخد نصر بدايته فوق مدينة اوبس على دجلة ونهايته عند سبار (ابو حبة) على الفرات لصد احتمال هجوم اعداءه الميدين على العاصمة بابل ولهذا يدعوه البعض باسم السور الميدي.

١ - مواطن الآثار في حوض دوكان

والتنقيب في تل باسموسيان - الموسم الاول ١٩٦٥ -

أ. مقـــدمـة :

حين اتجهت نية الحكومة العراقية لانشاء سد دوكان على الزاب الاسفل الى الجنوب من مركز ناحية مرزة رستم قررت مديرية الآثار العامة القيام بمسح اثري شامل لمنطقة الحوض التي ستغمرها المياه المتجمعة وراء السد بشكل خزان هائل على هيئة بحيرة واسعة ضمن خط الارتفاع ٥٢٠ م فوق سطح البحر واسندت انجاز هذا المشروع بهيئة فنية مؤلفة من السادة محمد علي مصطفى ومظفر الشيخ قادر وكاتب هذا

المقال وقد اكملت الهيئة عملها خلال شهر ايلول من سنة ١٩٥٥ [٤].

لقد كان الغرض من هذا المسح الشامل هو كشف وتثبيت جميع التلول والمواقع الاثرية الكائنة في منطقة الحوض ودراسة ملتقطاتها السطحية للتعرف على إزمانها الحضارية بقدر الامكان ومن ثم انتخاب أهمها لاجراء أعمال السبر والتنقيب لانقاذ اكبر كمية ممكنة من الآثار واللقى المطمورة في طياتها قبل ان تغمرها مياه الحوض نهائياً، سيما وان حفر اثري لم يجر سابقا في هذه المنطقة من شمال العراق .

واستناداً الى تقارير المسح الاثري التي وضعتها هيئة ١٩٥٥ وتوصياتها بهذا الشأن فقد اقرت مديرية الآثار العامة خطة واسعة للمباشرة بعمليات الجس والتنقيب في بعض تلول سهل بتوين منها : كمريان، الديم، قورة شينه، شمشارة، وباسموسيان. وقد وضعت بعض الدراسات والبحوث الأثرية عن نتائج تنقيبات بعض تلك المواقع في مجلة سومر يمكن الرجوع اليها[٥]، وفي القسم الثالث من هذا البحث

(٤) كان السيد صبري شكري من مفتشي مديرية الاثار العراقية السابقين قد قام في سنة ١٩٥٠ بتثبيت المواقع الاثرية في منطقتي رانية ومرزة رستم كجزء من المنهاج العام لمديرية الآثار العامة في احصاء المواقع الاثرية في جميع انحاء القطر قبل انجاز اعمال تسوية حقوق الاراضي من قبل مديرية التسوية العامة .

(٥) عبد القادر التكريتي : سومر مجلد ١٦ (١٩٦٠) ص ٩٣-١٦٠ .

هارولد انكلولت : سومر مجلد ١٣ (١٩٥٧) ص ٢١٤-٢١٥ .

يون لاسو : سومر مجلد ١٥ (١٩٥٩) ١٥-١٨ .

يون لاسو : سومر مجلد ١٦ (١٩٦٠) ص ١٢-١٩ .

بيدر مورتنسن : سومر مجلد ١٨ (١٩٦٢) ص ٧٦-٨٠ .

بيدر مورتنستن : سومر مجلد ٢٠ (١٩٦٤) ص ٢٨-٣٦ .

بهنام ابو الصوف : سومر مجلد ٢٠ (١٩٦٤) ص ٣٧-٤٢ .

سأورد موجزا بنتائج تنقيبات الموسم الاول في تل باسموسيان، اكبر وأهم التلول الأثرية في حوض دوكان .

ب. وصف موجز لتلول حوض دوكان :

يتناول هذا القسم من البحث وصفاً موجزاً لمعظم التلول التي تمت دراسة ملتقطاتها السطحية وان ادوارها وتواريخها المثبتة تعتمد بالدرجة الاولى على نتائج تلك الدراسة وبخاصة كسرات الفخار المنتشرة عليها. فأزمان هذه التلول تتراوح بصورة عامة بين اوائل الألف السادس ق.م وحتى الوقت الحاضر. كما ان تسميات بعض عصور تاريخية ترد في المتن كالعصر الاكدي والخوري والميدي تمثل بطبيعة الحال حقباً زمنية معينة تمتد من النصف الثاني من الألف الثالث ق.م واوائل الألف الثاني ومنتصفه وحتى ما بعد الفترة الآشورية الحديثة .

١- كرد بور :

تلان يبعدان عن بعضهما مسافة ٤٠٠م تقريباً، ويفصل بينهما وادي تجري فيه مياه الامطار شتاء. التل الشمالي دائري الشكل تقريباً محيطه ٥٠٠م وارتفاعه ٣م والجنوبي، الذي يقوم على نشز مرتفع من الارض، قطره ١٠٠م وارتفاعه ٤م ازمان التلين : عصر الوركاء وما قبله بقليل (ربما العبيد ايضا) ، الخوري والاشوري الحديث .

٢- ملا عمر :

تل دائري الشكل يقوم على الكتف الغربي للزاب الاسفل. محيطه ٢٠٠م وقطره عند القمة ١٥م حيث توجد بقايا اسس ظاهرة من الجص. ازمانه : الخوري، الاشوري الحديث، الميدي، الفرثي .

٣- كمريان :

تل عالي مخروطي الشكل ، قطره ٧٠م وارتفاعه ١٢م . يقوم عل الكتف الشرقي لنهر الزاب. أزمانه : سامراء، حلف، العبيد، الوركاء،

الاكدي، الخوري، الآشوري الوسيط، الميدي.

٤- بواتان :

تل واسع مستطيل الشكل تقريباً طوله ١٥٠م عرضه ٧٠م وارتفاعه يتراوح بين ٦-٨ م. يقع قرب الضفة الشرقية لنهر الزاب. أزمانه : حلف (وربما ما قبله) ، الخوري، الاشوري، الميدي.

٥- تل الديم :

تل نصف كروي تقريباً ، قطره ٧٠م وارتفاعه ١٢م. تنتشر على قمته وسفوحه اعداد غفيرة من حصى كبير الحجم.أزمانه: العبيد ، الوركاء ، الاكدي، الاشوري، الخوري، الميدي .

٦- كَله :

تل بيضوي الشكل تقريباً، يقع قرب الضفة الشرقية لنهر الزاب. طول قاعدته حوالي ١٠٠م وقطر قمته ٧٠م، وارتفاعه ٢٠م. ازمانه: الآشوري، الخوري، الميداني، الفرني واوائل العصر الاسلامي.

٧- تنكيجة :

مستوطن قليل الارتفاع يقوم فوق مرتفع من الأرض طوله ١٥٠م وعرضه ١٠٠م والاتفاعه ٣م. ازمانه : عصور ما قبل التاريخ، اشوري، ميدي .

٨- كله كاوي :

مستوطن قليل الارتفاع، طوله ٢٥٠م يقع الى الشرق من ناحية مرزة رستم في وادي سي ناجيان. طوله ٢٠٠م وعرضه ٧٠م بارتفاع ٧م. ازمانه : االعبيد ، الوركاء ، الآشوري، الميدي .

٩- قره قاج :

مستوطن قليل الارتفاع، طوله ٢٥٠م وعرضه ١٥٠م. ازمانه: الآشوري، الميدي، كما تكثر على سفوحه انواع متعددة من فخاريات

محلية حديثة الصنع.

١٠- ملاشل :

تلان يقعان على الكتف الشرقي لنهر الزاب. التل الشمالي طوله ١٥٠م والجنوبي ٢٠٠م. ازمانه : عصور ما قبل التاريخ الآشوري، الميدي.

١١- هيز :

مستوطن واسع قطر قاعدته حوالي ١٥٠م ارتفاعه ١٥م. ازمانه : عصور ما قبل التاريخ الخوري، الاشوري، الميدي .

١٢- بابو كوران :

تلان تفصل بينهما مسافة ٣٠٠م، قطر قاعدة اكبرهما ٢٠٠م وارتفاعه ٨ م، وقطر قاعدة الآخر ١٠٠م ، ارتفاعه ٦م . ازمانهما متشابهة وترجع الى : عصور ما قبل التاريخ والعصرين الآشوري والميدي .

١٣- ما مند :

مستوطن واسع قطر قاعدته ١٥٠م وارتفاعه ٥م. ازمانه : عصور ما قبل التاريخ، الاشوري، ميدي .

١٤- تبه كوران :

تلان، اوطأهما طوله ١٥٠م وعرضه ٥٠م والآخر بطول ٢٥٠م وارتفاعه ٣م. تظهر على قمة الاول بعض بقايا أسس من الطابوق لأبنية آشورية. أزمانهما آشوري حديث، ميدي، ساساني، اسلامي.

١٥- شمشارة :

تل عالي مخروطي الشكل يطل على نهر الزاب، ارتفاعه ٢٥م قطر قاعدته تزيد عن ٥٠م، وقطر قمته يقرب من ٢٠م.ازمانه : عصور ما قبل التاريخ، آشوري، ميدي، اسلامي.

١٦- كولاك :

تل منتظم الشكل، نصف كروي تقريباً قطر قاعدته ١٠٠م وارتفاعه ٨ م. أزمانه : عصور ما قبل التاريخ، اشوري، ميدي، اسلامي.

١٧- باره بوست :

تلان صغيرون طولهما معا ٢٠٠م، بعرض ٧٠م يتراوح ارتفاعها بين ٢-٣ م. أزمانهما : عصور ما قبل التاريخ، آشوري حديث، ميدي، ساساني.

١٨- باسمو سيان :

اكبر التلول في سهل بتوين، يقع على مسافة ١٢كم الى الجنوب من قضاء رانية، يقرب محيط قاعدته من ١٥٠٠م وارتفاعه ٢٣م. ازمانه : عصور ما قبل التاريخ، آشوري، خوري، ميدي، ساساني، اسلامي.

١٩- قوره شينه :

مستوطن واسع، قطر قاعدته نحو من ٧٠م وارتفاعه ٢٠م تقريباً. ازمانه عصور ما قبل التاريخ (خاصة عصر الوركاء، حيث تكثر هنا فخارياته المميزة) آشوري، ميدي.

٢٠- سرخمة :

تل واسع يقع في وادي باسلان، احد فروع نهر الزاب الغربية. قطر قاعدته ٢٠٠م، وقطر قمته نحو من ١٠٠م وارتفاعه ٢٠م.

ازمانه : عصور ما قبل التاريخ، آشوري.

٢١- بوسكين :

تل واسع قطر قاعدته نحو من ٢٠٠م وارتفاعه ٢٠م تقريباً. ازمانه : عصور ما قبل التاريخ، آشوري، ميدي .

٢٢- كولان :

طوله ١٥٠م، عرضه ١٠٠م وارتفاعه ١٠م. ازمانه : سامراء، حلف،

العبيد، آشوري حديث، ميدي.

٢٣- كامه م :

قطر قاعدته ٢٥٠م، ارتفاعه ١٥م. أزمانه : عصور ما قبل التاريخ، آشوري، ميدي، ساساني، اسلامي.

٢٤- كندو :

محيط قاعدته ٣٠٠م، ارتفاعه ١٢م ازمانه : حسونة، سامراء، العبيد، آشوري، خوري، ميدي.

٢٥- قوراله الشمالي :

بيضوي الشكل تقريباً، طوله ٢٠٠م وعرضه ٥٠م بارتفاع ١٠م، ازمانه : العبيد، الوركاء، آشوري، ميدي.

٢٦- قوراله الجنوبي :

بيضوي الشكل تقريباً، طوله ٢٥٠م وعرضه ١٠٠م وارتفاعه ٢٠م، ازمانه : العبيد، الوركاء، آشوري حديث، ميدي.

٢٧- محمود هباس :

طوله ٢٠٠م، ارتفاعه ١٠م، ازمانه : اشوري حديث، ميدي، اسلامي.

٢٨- غزنة :

طوله ٢٠٠م تقريباً، وارتفاعه ٢١م، ازمانه : اشوري، ميدي، اسلامي.

٢٩- عربان :

طوله ٢٥٠م تقريباً، وارتفاعه ٢٠م، أزمانه : آشوري، ميدي، اسلامي.

٣٠- قره تبه كون :

طوله٣٠٠م، ارتفاعه ٢٠م، ازمانه : عصور ما قبل التاريخ، آشوري

وسيط وحديث، ساساني، اسلامي.

٣١- كردل :

طوله ٢٠٠م، وارتفاعه ١٠م، يقع على الطريق المؤدي الى مركز ناحية بنكرد في قرية سيد كان، ازمانه : العبيد، الوركاء، آشوري، ميدي.

٣٢- قبر الصحابة :

مستوطن قليل الارتفاع، يطل بموقعه على مركز ناحية مرزة رستم (قبل ان تغمرها المياه)، وقد اتخذ قسم كبير منه مقبرة لسكنة القصبة، ازمانه : عصور ما قبل التاريخ، آشوري، ميدي.

ج. تنقيبات الموسم الاول في باسموسيان :

تل باسموسيان اكبر المواقع الاثرية في سهل بتوين، قرب الضفة الغربية لنهر الزاب، والى الجنوب من مركز قضاء رانية بمسافة ١٢كم ان ارتفاع باسموسيان يبلغ ٢٣م ومحيط قاعدته يتجاوز ١٥٠٠م، ويبرز من طرف قاعدته الشمالي الغربي مستوطن قليل الارتفاع، سكن في أزمان أقدم بكثير مما تمثله الطبقات العليا للموقع نفسه. ان قرية باسموسيان التي كانت تشغل مساحات واسعة من جهات التل الشرقية والجنوبية والغربية سميت على ما يظهر باسمه، وان عمرها يزيد عن نصف قرن من الزمان (كما أخبرنا المسنون من سكانها). ان عدد بيوت القرية يقرب من اربعين، وان أغلبها قد شيد من الطوف على اسس من الحصى النهري الكبير، وكذلك أسافل جدرانها في بعض الحالات، كما ان سقوفها مسطحة مشيدة من أخشاب وأغصان الأشجار المتوفرة في المنطقة وقد لطشت سطوح هذه الدور بالطين. ان من أهم المحاصيل الزراعية لسكنة قرية باسموسيان (و كذلك القرى الاخرى في سهل بتوين) كان التبغ والقطن والرز وبدرجة اقل الحنطة والشعير.

لقد استغرقت عمليات التنقيب للموسم الاول في باسموسيان ثلاثة اشهر (١٠تموز لغاية ١١ تشرين أول ١٩٥٦)، وكانت الهيئة الموفدة لهذا الغرض تتألف من كاتب المقال رئيسا والسادة برهان جلميران مساعداً للرئيس ومسؤولا عن تسجيل الآثار ورسمها وشعلان حسين كسرة (معاون ملاحظ متحف الموصل آنذاك) مديراً للمقر وحسن عزام محاسباً وعيسى الطعمة لمراقبة العمال والعمل ومحمد الاحمد الحميضة للمساعدة في الاعمال الهندسية ورسم الابنية المكتشفة وخارطة منحنيات الموقع.

كانت عمليات الحفر قد بدأت بشق خندقين (مقطعين) كل منهما بعرض ٢٠م : المقطع أ يتجه من قمة الموقع شرقاً وبمسافة ٤٠ م، واتجاه المقطع ب الى الغرب بمسافة ٢٥م. وان استمرار التنقيب خلال الاسابيع الاربعة الاولى اثبت بأن البقعة الكائنة في منتصف قمة التل والمحصورة الآن بين المقطعين أ و ب تحوي حارة للمعابد. وكان هذا سبباً كافياً لتركيز عمليات الحفر في هذه البقعة بالذات وحتى نهاية الموسم، اما حصيلة العمل في المقطعين نفسيهما فكان الكشف عن خمس طبقات بنائية في كل منهما، ولضيق الوقت فقد اقتصر على عرض خمسة أمتار فقط لكل من المقطعين أسفل الطبقة الثانية (ترقيم الطبقات كان من الاعلى)، ولا بد من الاشارة الى ان الطبقات البنائية واللقى المكتشفة فيها ومن بينهما كسرات الفخار قد كانت مشوشة في كلا المقطعين وذلك بسبب التخريبات والحفر الحديثة التي اقتطعت من قمة الموقع وان سكنة الادوار المتأخرة من التل تسببوا في احداثها بالاضافة الى اهل قرية باسموسيان انفسهم.

* وصف الطبقات البنائية في كلا المقطعين :

من الملاحظ ان معظم بقايا الطبقة العليا (الاولى) في كلا المقطعين (أ و ب) معدومة ما عدا أجزاء متناثرة من أسس من الحصى لا يمكن تكوين فكرة واضحة منها عن طبيعة الشكل البنائي لسكنة هذه الطبقة من الموقع. أما فخارياتها فمزيج يرجع على الغالب الى القرنين الثامن والتاسع الميلادي، كما أن هناك بقايا قبرين كبيرين من الطابوق نازلين في هذه الطبقة وربما يرجعان الى العصر الالخاني، وجدا في الطرفين الشرقي والغربي من الموقع. أن جدار الطابوق الضخم الذي يلف حول الطرف الغربي من أعلى التل يشبه الى حد كبير ما يحيط بقلعة أربيل مثلا من جدار ساند يلف حولها من جميع الجهات.

تدل المواد الأثرية المكتشفة على ان هناك فجوة سكنية بين الطبقتين الاولى والثانية بالرغم من تشابه بقاياهما البنائية الضئيلة، فأسس الحصى متناثرة هنا (اي في الطبقة الثانية) وخاصة عند النهايتين الشرقية والغربية في كلا المقطعين، كما ان هنالك أرضيات او تباليط من الطابوق عثر عليها في الطرف الغربي من المقطع أ في هذه الطبقة (اي الثانية). ومن الملاحظ ان اسس الطبقة الثانية قد تغلغلت الى الاسفل حيث بقايا الطبقة الثالثة، وهذا أدى الى امتزاج كسر فخار اسلامي مع فخاريات من عصور اقدم بكثير. إن أهم البقايا البنائية في الطبقة الثالثة هي بناية المعبد الاول الذي سنتكلم عنه فيمايلي، اما فخاريات هذه الطبقة فيرجع زمانها على الغالب الى منتصف الألف الثاني ق.م. كما ان هذه الطبقة نفسها قد تكون مصدر كسرات رقم الطين المكتوبة بالخط المسماري والتي يرجع زمنها الى العصر الآشوري الوسيط والتي عثر عليها في حفرة اقتطعت في الطبقة الرابعة خارج الجدار الجنوبي للمعبد الثاني.

لقد كشفت لنا تنقيبات الطبقة الرابعة، بالاضافة الى دور أقدم من بناية المعبد الاول دعيناه بالمعبد الثاني، بضعة جدران سميكة من اللبن - وخاصة ما ظهر منها في المقطع ب - لعلها تمثل بقايا مرافق بناية ذات أهمية خاصة لكونها تعاصر زمن المعبد الثاني، ولكن أرضياتها مشوشة في أماكن متعددة بسبب الحفر الحديثة النازلة من أعلى، يرجع زمن فخاريات الطبقة الرابعة بصورة رئيسية الى النصف الاول من الألف الثاني ق.م، كما تحوي هذه الفخاريات نماذج مميزة من النوع المعروف بصناعة الخابور.

ان ما استظهر من الطبقة الخامسة في كلا المقطعين كان صغيراً نسبياً، ومع هذا فقد ظهرت فيهما بقايا بنائية واضحة متمثلة بجدران سميكة من اللبن عليها عدة طبقات من اللطوش باللون الرمادي المائل للخضرة. يرجع زمن الطبقة الخامسة بمحتوياتها الى بداية الألف الثاني ق.م. لقد كانت عمليات تنقيب الموسمين الثاني والثالث (صيفي ١٩٥٧ و ١٩٥٨) متممة من عدة وجوه لتنقيبات الموسم الاول، فقد قام الزميل السيد عبد القادر حسن التكريتي والذي كان مسؤولاً عن تنقيبات الموسمين الاخيرين باكمال استظهار حارة المعابد والنزول الى أسفل الطبقة الخامسة وحتى الطبقة السادسة عشر حيث تأكد لديه بصورة عملية بأن تل باسموسيان كان قد سكن خلال معظم الألف الثالث ق.م وكذلك في عصور الوركاء والعبيد وحلف وسامراء.

حارة المعابد : يتألف كل معبد من المعبدين المكتشفين في تل باسموسيان أثناء حفريات الموسم الاول من غرفة واحدة مستطيلة، تتجه زواياها الاربع الى الجهات الكونية الاربع. ان من الملاحظ ان بناية معبد الطبقة الثالثة (المعبد الاول) تشبه من وجوه عديدة بناية

المعبد الثاني الكائنة تحتها (في الطبقة الرابعة) وبصورة خاصة من حيث شكل البناء وحجمه، فيما عدا كون أسس المعبد الاول وجدرانه قد انحرفت قليلاً الى الشرق عن مثيلاتها في المعبد الاول.

ولقد وجدنا انه من المفيد اعادة رسم مخطط ارضي لمعبد الطبقة الرابعة معتمدين بذلك على الصور والقياسات المتوفرة.

معبد الطبقة الثالثة (المعبد الاول) : شيدت جدران المعبد الاول من لبن كبير الحجم نسبياً (٤٤×٤٠×١٠سم) على أسس ضخمة من الحصى الكبير، ان جدران المعبد الضخمة البالغ ثخنها ٣م قد لطشت بالطين من الخارج والداخل ولأكثر من مرة. لقد وجد ان معظم جدران المعبد هذه قد تكسرت في أماكن عديدة نتيجة للحفر النازلة من أعلى وفي أوقات مختلفة. لقد كانت الأوجه الخارجية لجدران هذا المعبد على ما يظهر مزينة بتغضنات معمارية (Buttresses and Recesses)، كما هو مألوف في معابد العراق القديم، ومما يؤكد هذا الرأي وجود حنية (دخلة Recess) عرضها ٢,٦م قرب الزاوية الغربية للجدار الجنوبي الغربي من الخارج، وكذلك طبيعة مدخل هذا المعبد الفخم المزين بهذه التغضنات، وعددها ستة في كل ركن من ركني المدخل. ان عرض فتحة المدخل هذا ١,٦٠م فقط، ومن الجدير الاشارة اليه أن أرضية هذا المدخل عليها آثار حريق وتنتشر هذه الآثار الى الفسحة الكائنة أمامه من الخارج. من بين تفاصيل غرفة المعبد نفسها مساطب قليلة الارتفاع مشيدة من اللبن لصق أسافل جدران المعبد، عرض المسطبة ٤٠ سم بارتفاع ٢٥سم، كما تتوسط الغرفة دكة للقرابين من اللبن ايضاً، طولها ٢,٣م بعرض ١,١م. وتتوسط الضلع الشمالي الغربي حنية المحراب

التي عرضها ٢م وترتفع قاعدتها عن أرضية الغرفة ٣٠سم، تؤلف ضلعاً حنية المحراب تغضنات متعاقبة عرض كل واحدة ٢٠سم، ويشاهد الى يمين الداخل الى غرفة المعبد بناء من الطابوق الصغير الحجم (٣٠×٢٥×٦سم) اسطواني الشكل كائن لصق الزاوية الشمالية للغرفة عمقه ١,٥م بقطر ٩٠سم من المحتمل ان يكون هذا البناء الاسطواني محلا للماء الذي يستعمل لاغراض عقائدية، كما انه من الجائز ان يكون موضعا لصنارة باب المعبد ؟ ولكن الاحتمال الاول اقرب الى الواقع.

معبد الطبقة الرابعة (المعبد الثاني) : ترفع بناية المعبد الثاني مسطبة متدرجة من اللبن يتراوح عدد سوفها بين ٦-١٢ ساف، وارتفاع الساف الواحد من هذه المسطبة يتراوح بين ١٠-١٢سم، لقد اقتطعت هذه المسطبة المتدرجة في بقايا الطبقة الخامسة ان جدران هذا المعبد ضخمة عريضة ولكنها قد اقتطعت في أكثر من محل واحد من قبل بناة المعبد الاول، وجدران المعبد الثاني ليست بثخن واحد : فالجدار الجنوبي الغربي سمكه ٣م والشمالي الشرقي ٣,٢٥م بينما ثخن الجدار الجنوبي الشرقي ٣,٥م، يلاحظ في صلب الجدار الجنوبي الغربي من الخارج وقرب نهايته حنية - Recess - بداخلها ثلاثة أنصاف أعمدة من اللبن محاطة من الجانبين بتغضنات كما أن هناك مزيداً من بقايا لحنايا أخرى في صلب جدران المعبد تظهر خاصة في الزاوية الجنوبية وهذا دليل واضح يؤكد كون الجدران الخارجية للمعبد الثاني مزدانه بهذا النوع من التغضنات المعمارية كماهو مقترح في المخطط الارضي لهذا المعبد.

لم نقف على أية تفاصيل لمدخل المعبد الثاني وذلك بسبب التهديمات

التي تعرض لها فلا أثر هنا للتزيينات التي تظهر في مدخل المعبد الاول ومن الممكن الافتراض بأن ذلك المدخل لم يكن اقل مهابة (ان لم يكن افخم قياساً على التزيينات المعمارية في جدرانه من الخارج والداخل من مدخل معبد الطبقة الثالثة. ان أبعاد غرفة المعبد الثاني من الداخل كما يلي :

الطول ١٠م والعرض ٥, ٦م، ولقد وجدت تفاصيل هذه القاعة سليمة الى درجة كبيرة، ان حنية المحراب هنا اكبر قليلا مما كانت عليه في المعبد الاول كما انها قد اتخذت في وسط الضلع الجنوبية الشرقية بعكس مكانها في معبد الطبقة الثالثة توجد امام حنية المحراب دكة قليلة الارتفاع (ارتفاعها ٢٠سم) طولها بعرض الغرفة نفسها (٦,٥م) وعرضها ٢م. تحيط بأسفل جدران غرفة المعبد من الداخل مساطب قليلة الارتفاع بعرض ٤٠ سم والمتبقي من ارتفاعها ١٣سم، ١٧سم، ٢٢سم لصق الاضلاع الشمالي الغربي والشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي على التوالي وتتوسط غرفة المعبد دكة للقرابين مربعة الشكل طول ضلعها ١٧٥سم وارتفاعها ٣٣ سم تزين الاوجه الداخلية لاضلاع قاعة المعبد الثاني انصاف اسطوانات من اللبن : ففي كل من الضلعين الطويلين ثلاثة مجاميع من انصاف الاسطوانات هذه تفصل بينها مسافات متساوية وأما الضلع الشمالي الغربي القصير فيحتوي على مجموعتين فقط من هذه التزيينات : ان المجموعة التي تواجه المدخل في الضلع الجنوبي الغربي الطويل قد تآكلت. ان عرض كل نصف عمود ٤٠ سم بثخن ١٤سم، من الملاحظ ان أرضية مدخل هذا المعبد تحوي آثاراً لحريق تماماً كما كان الحال في ارضية مدخل المعبد الاول أيضاً .

وبالرغم من ارتفاع المسطبة المتدرجة التي ترفع جدران هذا المعبد فأن مستوى ارضية الطبقة الرابعة خارج المعبد اعلى مما هي داخل غرفته مما أدى الى وجود انحدار ملحوظ في مستوى الدروب المتجهة نحو المعبد في جميع الجهات وهذا مظهر واضح ومتوقع في الابنية الدينية التي يدوم استخدامها عادة لفترات أطول بكثير مما هو الحال في بقية أبنية ودور سكنى الطبقة او الدور البنائي الكائنة فيه مع تكرار تجديدها وادامتها لعدة أدوار زمنية أحياناً، ان هناك دورا بنائياً أقدم عهدا من غرفة المعبد الثاني تمكنا من الوصول اليه في الأيام الأخيرة القليلة من موسم التنقيب الأول وذلك باحداث حفرة دراسية صغيرة في أرضية المعبد الثاني قادتنا الى الوقوف على بعض تفاصيل البناء الكائن تحته مباشرة.

٢ - التنقيب في تل الصوان

الموسم الرابع – ربيع ١٩٦٧

مقدمة :

يقع تل الصوان[٦]، قرب النصب المعروف بالقائم على الضفة الشرقية لنهر دجلة، جنوبي مدينة سامراء على مسافة أحد عشر كيلومتر. وان البقايا الاثرية للموقع تؤلف تلاً بيضوي الشكل تقريباً طوله من الشمال الى الجنوب ٢٣٠ متراً وعرضه من الشرق الى الغرب

(٦) انظر "سومر" المجلدات ١٩-٢٢ فيما يتعلق بموجز تنقيبات المواسم الثلاثة الاولى في هذا الموقع، وكذلك القسم الاجنبي من المجلدين ٢١ و ٢٣ بصدد النتائج التفصيلية للموسمين الاول والثالث .

١١٠ أمتار ولا يزيد ارتفاعه عن ثلاثة أمتار ونصف عند اعلى بقعة على سطحه .

ان أول من التفت الى الطبيعة الاثرية لتل الصوان هو عالم الآثار الالماني ارنست هرتسفيلد الذي كان ينقب في اطلال سامراء الاسلامية في مطلع هذا القرن (١٩١٢ - ١٩١٤ م). ثم قامت المديرية العامة للآثار في عام ١٩٤٩ بالاعلان عن أثريته وميزّت نوعية الملتقطات المنتشرة على سطحه وثبتت أزمانها الحضارية. وفي أوائل عام ١٩٦٤ قررت المديرية المذكورة اجراء تنقيبات علمية شاملة فيه وكان وراء ذلك القرار أمران : أولهما وقوع تل الصوان في وسط العراق جعل التفكير يتجه الى احتمال الكشف في طياته عن دلائل أثرية تلقي الضوء على نوع الارتباط الحضاري بين شمالي وجنوبي بلاد الرافدين في النصف الثاني من الالف السادس قبل الميلاد، حين بدأ العراقي القديم ينحدر الى منطقة السهول الغرينية في وسط وجنوبي وادي الرافدين لتأسيس أولى القرى الزراعية هناك.

ثانياً : ان كل ما كنا نعرفه عن المرحلة المسماة بطور سامراء لما قبل التاريخ (في أواخر الالف السادس قبل الميلاد) هي فخارياتها المميزة التي كشف عنها هر تسفيلد الاول مرة في قبور من هذه الفترة في مكان ما أسفل قصر الخليفة في سامراء. وقد كنا نجهل الشيء الكثير عن عناصر ومقومات اخرى لتلك المرحلة الحضارية، وكان أملنا كبيرا بالعثور هنا على قرية من هذا الطور بأبنيتها وآثارها الاخرى توضح لنا جوانب كثيرة وهامة من تاريخ العراق القديم في النصف الثاني من العصر الحجري الحديث، وبداية ما يسمى بالعصر الحجري - المعدني. وكان معظم ما توقعناه صحيحاً. فبالإضافة الى ما أظهرته

نتائج تنقيبات الموسم الاول (١٧ شباط - ٢٠ مارس ١٩٦٤) والمواسم الاربعة التالية (انجزنا تنقيبات الموسم الخامس بين المدة ٢٥ تشرين الثاني ١٩٦٧ لغاية ٢٥ كانون الثاني ١٩٦٨) من نتائج حضارية ألقت الضوء على جوانب كثيرة من هذين السؤالين، فانها كشفت ولأول مرة عن لقى وبقايا أثرية تفوق كثيراً ما كان يدور بمخيلتنا ومخيلة المشتغلين بهذا الحقل في الخارج [٧]. تنقيبات الموسم الرابع :

بدأت تنقيبات الموسم الرابع في تل الصوان في الاول من آذار ١٩٦٧ واستمرت لغاية الثامن من حزيران من نفس العام. وكانت بعثة التنقيب تتألف برئاسة كاتب هذا المقال وعضوية السادة غانم وحيدة، عواد

(٧) كان كاتب المقال مسؤولاً عن تنقيبات الموسم الاول، وقد نشرت النتائج التفصيلية لذلك الموسم في القسم الأجنبي من "سومر" المجلد ٢١ لسنة ١٩٦٥ بتنقيبات الموسم الثاني، والتي تعتبر من عدة وجوه مكملة لأعمال الموسم الاول، وان موجزاً بنتائج هذه التنقيبات قد أدرجت ضمن مقدمة المجلد العشرين من مجلة "سومر" لسنة ١٩٦٤ كما ان السيد الاعظمي نفسه يعد تقريراً مفصلاً بتلك النتائج لينشر في هذه المجلة. ونظراً للأهمية العلمية البالغة التي أظهرتها نتائج تنقيبات الموسمين الاول والثاني، ورغبة في الكشف عن الموقع بأكمله فقد ارتأت المديرية العامة للآثار بدء عمليات الموسم الثالث بأسلوب الحفر الافقي الشامل ابتداء من قمة المستوطن الوسطي (ب) حيث كشفنا سابقاً عن جزء من طبقته العليا (الخامسة)، وانيطت رئاسة الهيئة المكلفة بالتنقيب بالسيد غانم وحيدة الذي نشر نتائج هذا الموسم (اي الثالث) في لبقسم الاجنبي من "سومر" المجلد ٢٣ لسنة ١٩٦٧ . ويمكن ايجاز نتائج الموسم الثالث بمايلي : (أ) اكمال استظهار جميع المرافق البنائية المتبقية للطبقة الخامسة (العليا) من المستوطن الوسطي (ب).
(ب) البدء بالكشف عن أبنية الطبقة التي تليها من أسفل (الرابعة) والتي كنا قد استظهرنا اجزاء منها أثناء الموسم الاول في ربيع ١٩٦٤ .

الكسار، وياسين رشيد، وكان السيد حسين رسولاً مسؤولاً عن حسابات البعثة كما كان السيد عيسى الطعمة مسؤولاً كالعادة عن ادارة العمال ومراقبة العمل والسيد محمد الاحمد الحميضة للمساعدة في الاعمال الهندسية كما التحق بالبعثة في الشهر الاخير من الموسم السيد رمزي نعوم للقيام بتحبير المخططات ورسوم الآثار والفخار. وقام السيد انتران ايفان بتصوير الحفريات والآثار.

لقد تركزت أعمال الموسم الرابع باكمال استظهار جميع المرافق البنائية للطبقة الرابعة ضمن الخندق الدفاعي في المستوطن الوسطي (ب) حيث أكمل ذلك في منتصف شهر نيسان (١٩٦٧) ثم بدئ بالحفر في الطبقة التي تليها من أسفل (الثالثة) وفي نفس المستوطن أيضا. ومن الجدير بالاشارة اليه في هذا الصدد ان أجزاء بنائية من هذه الطبقة الأخيرة، (أي الثالثة)، وخاصة في طرفها الجنوبي، كانت قد أستظهرت سابقا اثناء تنقيبات الموسم الاول، كما كشف عن بعض أقسامها في الموسم الثاني أيضاً .

لقد تم اكمال استظهار الجدار الضخم الذي يلف حول الخندق الدفاعي من الداخل محيطاً بمعظم أبنية الطبقة الثالثة ضمن المستوطن الوسطي (ب) وخاصة قسمه الشرقي. ان هذا الجدار (أو السور) كان على ما يظهر قد شيد في بداية زمن الطبقة الثالثة في دورها الأسفل (Level III B). كما ان البناء رقم ١٢ قد شيد على امتداد ضلعه الشمالي في أواخر زمن الطبقة الثالثة أو ربما في بداية زمن الطبقة الرابعة التي تعلوها. لقد كشف في هذا الموسم (الرابع) عمّا يقرب من ثمانية أبنية، سبعة منها ذات تخطيط بنائي موحد يشبه الى حد كبير الحرف اللاتيني (T)، كما هي الحال في البناء رقم ١٢ (المذكور أعلاه) والذي تم اكتشافه خلال حفريات الموسم الثاني واطلق

عليه اسم " معبد الطبقة الرابعة " .

وتتخلل هذه الابنية ساحات واسعة ودروب بعضها مرصوف بالحصى. وفي احدى الساحات تشاهد مجموعة من التنانير ملاصقة للوجه الداخلي للضلع الجنوبية من سور القرية في هذه الطبقة. ان بقايا الجدار الضخم المجاور للبناء رقم ١ من الغرب ربما تمثل الضلع الغربي لسور قرية الطبقة الثالثة. ولما كانت معظم أبنية الطبقة الثالثة (وربما جميعها) تحوي على مستويين (أرضيتين)، العلوي منهما عادة من الجص، فقد تأكد لدينا بصورة قاطعة ان هذه الابنية (لا بل الطبقة نفسها) قد مرت بدورين سكنيين على الأقل نسميها: (١) دور التأسيس الاول اي الأسفل (أ)، و(٢) دور التجديد أو اعادة السكنى وهو الدور العلوي (ب). كما ظهر لنا بصورة لا تقبل الشك بأن معظم مشتملات الدور العلوي (ب) بغرفها الصغيرة قد اتخذت مخازن للغلال. لقد جاءتنا من باطن أغلب هذه المخازن بقايا من تلك الغلال وعظام الحيوانات التي استفادوا من لحومها للطعام وكذلك الآلات والادوات الحجرية التي استعملت لتهيئة الطعام وللحراثة والحصاد. هذا وان هنالك احتمالا بكون بعض هذه المخازن ومشتملات الدور العلوي من الطبقة الثالثة قد بقى مستعملا حتى أوائل زمن الطبقة الرابعة التي تعلوها.

القبور :

كانت القبور المكتشفة خلال الموسم الرابع في تل الصوان على نوعين : الاولى التي يرجع زمنها الى دور سامراء، لما قبل التاريخ، دفن أصحابها على ما يظهر من قبل سكنة الطبقة الثالثة نفسها، كما أن بينها ما هو مدفون من الطبقتين العلويتين (الرابعة والخامسة). أما المجموعة الثانية من القبور فترجع بزمنها الى العصر البابلي أو الكاشي (حوالي

أواسط الألف الثاني قبل الميلاد) حين اتخذ سطح الموقع مقبرة بعد أن هجر المكان بزمان طويل .

يسرنا في هذه المناسبة ان نشير الى ان صديقنا طبيب الأسنان الدكتور جلال جرجيس قد قام بزيارة للموقع أثناء التنقيب بصحبة زوجته طبيبة الأسنان الدكتورة فائزة مقادسي وفحصا سوية عددا من أسنان اناسي عصر سامراء والعصر البابلي القديم (أو الكاشي) وخلصا الى ان اسنان سكنة تل الصوان في عصر سامراء (أواخر الالف السادس قبل الميلاد) كانت اكثر تآكلا وتسوساً وتساقطاً من أسنان الدور الاخير (أي العصر البابلي القديم)، وهذا مرجعه كما يعتقدان الى نوع الغذاء السائد حينئذ.

المواد الغذائية الرئيسية :

ان من يعمل في حقل التنقيب العلمي في الوقت الحاضر لا يكتفي بالبحث عن الآثار الجميلة البارزة التي هي مطلب اي متحف من متاحف العالم، بل هو يسعى جهده الى التوصل بشتى الوسائل المبتكرة الى الكشف عن بقايا مادية تلقي الضوء على جوانب عدة من حياة سكنة المستوطن الذي يعمل فيه. ان الجانب الاقتصادي أخذ يشغل أذهان علماء الآثار في الآونة الاخيرة وخاصة من يبحث منهم في فترات ما قبل التاريخ والمراحل التي أعقبت تدجين الحيوان ومعرفة الزراعة للتعرف على نمط الحياة الاقتصادية وانواع المواد الغذائية الاولى التي عرفها واستخدمها الانسان بعد ان استقر في قرى ثابتة قرب الينابيع والأنهار أو في المناطق التي تتوفر فيها الامطار الكافية للزراعة ديما، وهذا ما سعينا اليه دوماً في مختلف مواسم التنقيب في تل الصوان وقد كوفئنا على بحثنا بالعثور على نماذج من الغلال والبقايا العظمية للحيوانات التي اقتات على لحومها سكنة هذا الموقع في مختلف ادواره. ففي الموسم

الاول (ربيع ١٩٦٤) عثرنا على نماذج من الحبوب المتفحمة في جهة من الضلع الشمالية من الخندق الدفاعي تفرغ على دراستها أحد مشاهير المختصين بالنباتات القديمة، هو البروفيسور هانس هيلباك من المتحف الوطني في كوبنهاكن بالدنمارك، والذي أفادنا بأن من جملة المحاصيل الحقلية لأهالي تل الصوان هي الحنطة والشعير، وان سكنة الموقع كانوا يعتمدون أحياناً على السقي في زراعة هذين النوعين من الغلال، كما هي الحالة الان في نفس المنطقة، لقلة الأمطار في وسط العراق في ذلك الزمن كما هي عليه الان .

ان البحث الدقيق في التربة والركام الناجم عن حفريات مختلف أجزاء البقايا النباتية ومخازن الطبقة الثالثة خلال عمليات الموسم الرابع قد زوّدنا بمجاميع كبيرة من بقايا عظام الحيوانات الاليفة والبرية، والتي اصطادها الانسان في هذا الموقع، واقتات على لحومها واستفاد من بقاياها الاخرى. وبنتيجة تفرغ المختصين بعظام الحيوانات على دراسة وفحص هذه البقايا العظيمة ظهر بأن الخراف والماعز والغزلان كانت عماد الثروة الحيوانية لأهل هذه المنطقة من العراق في الالف السادس قبل الميلاد . كما ان السمك كان الغذاء الرئيسي لسكنة تل الصوان في جميع عهوده .

٣- التنقيب في تل الصوان

الموسم الخامس - (شتاء ١٩٦٧-١٩٦٨)

١- ابتدأت عمليات تنقيب الموسم الخامس في تل الصوان في الخامس والعشرين من تشرين الثاني ١٩٦٧ واستمرت لغاية الخامس والعشرين من كانون الثاني ١٩٦٨ وكانت البعثة المكلفة بالعمل برئاستنا وعضوية كل من السادة الآثاريين شاه محمد على الصيواني، غانم

وحيدة ووليد ياسين. وقد صور الحفريات والأبنية المكتشفة كالعادة السيد انتران ايفان رئيس المصورين في مديرية الآثار العامة كما قام بمهام مراقبة العمل والعمال السيد عيسى الطعمة وساعد في اعمال الهندسة والترسيم المرحوم محمد الأحمد الحميضة الذي كانت وفاته المفاجئة خلال عمليات الموسم السادس خسارة لهذه المؤسسة العلمية ومبعث اسى وحزن عميقين لجميع الذين عرفوه وزاملوه طيلة سنين طويلة.

كان الهدف الرئيس من تنقيبات الموسم الخامس هو اكمال استظهار بقية الاجزاء البنائية في الطبقة الثالثة بدوريها السفلي والعلوي (أ، ب) وبحدود الخندق الدفاعي والسور المحاذي له من الداخل وكذلك الكشف عما يبطنه القسم الشرقي من التل الوسطي (ب) والذي كانت معظم أقسامه العليا قد تعرضت لتخريبات واسعة من قبل المزارعين المجاورين في الأعوام الأخيرة. كانت تنقيبات الموسم السابق (الرابع) قد انجزت بالاضافة الى الكشف عن اغلب بقايا الطبقة الرابعة (الترقيم من الاسفل)، استظهار ثمان وحدات بنائية [٨] يتميز بعضها (الابنية ٢، ٤ - ٨) بشكل موحد من الخارج يشبه بمظهره الخارجي الحرف اللاتيني (T). وقد ثبت لدينا في حينه بأن هذه الأبنية ذات الشكل الخارجي الموحد قد اشغلت على الاقل في فترتين زمنيتين متعاقبتين من حياة الطبقة الثالثة سميناهما بالفترة أ (Phase A) وترتيبها الأسفل في هذه الطبقة، وهي فترة التأسيس، تعقبها من الأعلى الفترة

(٨) في الواقع ان ما ستظهرته عمليات الموسم الرابع من هذه الابنية كان في الغالب حدودها الخارجية بالاضافة الى التنقيب في جميع مشتملات فترتها العليا (الدورب) والنزول احياناً (خاصة في الابنية ٥-٧) الى مستويات دور التأسيس (الفترة السفلى أ).

ب (Phase B) وفيها طليت أرضيات (وفي أغلب الأحيان جدران) مشتملات هذه الأبنية بالجص بعد ان ارتفع بعضها بمعدل ٨٠- ١٢٠سم (بفعل الملء المتعمد بالنقض) مع بقاء نفس الجدران الاصلية للفترة أ او أحياناً اضافة جدران جديدة ملاصقة للاولى (من الداخل عادة) طليت هي الاخرى بالجص أيضاً. وقد استخدم اغلب ما نتج عن هذه التغيرات المعمارية في الفترة العليا كمخازن للغلال (Granaries) من قبل سكنة الموقع في هذه الفترة، مع الاحتفاظ بالشكل المعماري الخارجي لهذه الوحدات البنائية كما كان سائدا في زمن التأسيس مع تغيير عدد وحجوم بعض غرف هذه الابنية وذلك بتقسيم كل منها الى غرفتين صغيرتين او اكثر لاستيعاب أصناف متعددة من الغلال والمواد المراد خزنها لمواسم قادمة.

٢- اظهر التنقيب في القسم الشرقي من التل الوسطي (ب) خلال عمليات الموسم الحالي (الخامس) بقايا أثرية وبنائية بارزة يعتبر بعضها (أي البقايا البنائية) مكملا لأجزاء الطبقة البنائية الثالثة التي كشفت عنها في مواسم سابقة. فالبناية الواسعة (اعطيت الرقم ١٣) الكائنة قرب الزاوية الشمالية من هذا المستوطن لها نفس المظهر المعماري كغالبية أبنية الطبقة الثالثة وقد عايشت فترتي هذه الطبقة أيضاً. تتميز فترة التأسيس في هذه البناية بغرفها الواسعة والمتعددة وقد تغير معظم ذلك في الدور العلوي حين تحولت غرف البناية الى مخارن صغيرة متعددة للغلال وحاجيات سكنتها الاخرى من فخاريات وسلال وأدوات والآت من حجر وعظم وصوان وزجاج بركاني اسود [٩]. لقد تيسر لنا في هذا الموسم تحديد أبعاد هذه البناية وشكلها الخارجي

(٩) بضعة كسر من فخاريات حلف الملونه وجدت في دفن غرفنتي من هذه البناية.

وكذلك التنقيب في مشتملات فترتها العليا، ومن الأبنية التي اكمل استظهار جميع مشتملاتها وتفريغها من النقض المتراكم في دوريها العلوي والسفلي بنايتين محاورتين لبعضهما البعض بصورة خاصة على بقايا ومواد محروقة وبعض أدوات حجرية ولوازم منزلية وفخاريات لأغراض الطبخ والخزن. ومن المرجح أن تكون هذه البناية قد اتخذت في زمن الدور العلوي للطبقة الثالثة مخزناً لمواد ووقود التنانير والأفران الكائنة في الساحة المجاورة. أدت تنقيبات الموسم الخامس الى الكشف عن عدد من الساحات لا يقل عن ثلاث موزعة في أرجاء الطبقة الثالثة في القسم الشرقي من التل الوسطي استخدمت لاغراض عامة وبصورة جماعية مشتركة من قبل سكنة القرية. فالساحة الجنوبية الواسعة تحوي لصق ضلعها الجنوبي عدد من التنانير يتراوح بين ٨-١٠ استمر استخدامها حتى في زمن الطبقتين الرابعة والخامسة بعد عدة تجديدات ظاهرة من تراكم هذه التنانير فوق بعضها البعض .

من المكتشفات الاثرية الهامة في هذا الموسم ثلاثة أفران كبيرة من الطين عثر عليها في طرفي الساحة الوسطية الغربي والشرقي، وهناك احتمال كبير في أن تكون الكورة الاولى عند الطرف الغربي للساحة داخل غرفة مربعة تقريباً كما عثر على كورة ثانية أسفلها والكورة الثالثة وجدت عند الطرف الشرقي لهذه الساحة لصق غرفة مستطيلة وعلى بعد ٧م من مكان الكورتين السابقتين ويبلغ قطر كل من الكورتين الاولى والثانية ٢م، أما قطر الكورة الثالثة فيقل عن ذلك بقليل، إن شكل الكور الثلاث دائري، مشيدة بكتل من الطين وقد طليت أرضياتها وجوانبها بالطين ايضاً والباقي من ارتفاع جدرانها يتراوح بين ٢٠-٢٥سم وأن آثار الحريق الشديد ظاهر للعيان في أرضيات وجدران هذه الكور وهذا ناتج بالطبع عن تكرار عمليات الحرق ولسنين عديدة. من الملاحظ ان

بناة الكورة الاولى (العليا) لم يتقيدوا عند بناء فرنهم بنفس امتدادات الكورة الثانية (السفلى) بل انحرفوا بفرنهم العلوي الى الغرب قليلا. لم نتوصل الى معرفة شكل ووضعية الاقسام العليا لهذه الكور ولكن بقايا كتل الطين المتساقطة في باطنها وانحراف جدرانها التدريجي الى الداخل كلما ارتفعت تدل على الأكثر بأن سقوفها كانت بشكل يقرب الى القبة أو ما يشبه ذلك. لهذه الكور فتحات جانبية قريبة من القاع استخدمت لادخال وإخراج الأواني وللوقود أيضاً.

ترجع هذه الكور في زمنها الى عصر الطبقة الثالثة، وربما استمر استعمالها في زمن الطبقتين التاليتين (الرابعة والخامسة) لو صح اعتبار هذه الافران كورا لشي الفخار [١٠]، كما ذهبنا اليه أعلاه ما كنا نكون قد وفقنا الى اكتشاف هام يؤكد ما ذهبنا اليه سابقا من ان فخاريات سامراء بكل انواعها (من بينها الملونة طبعا) هي صناعة محلية في تل الصوان وليست مستوردة ثم ان غزارة هذا النوع من الفخار هنا يؤكد بان موقع تل الصوان كان واحدا من المراكز المهمة والرئيسية لهذه الصناعة في القسم الوسطي من العراق ومنه كانت تتزود القرى والمستوطنات الاخرى في هذه المنطقة من بلاد الرافدين.

لقد برزت ظاهرتان هامتان نتيجة لتنقيبات الموسم الخامس: اولهما تكرر ظهور سلالم من درج من جص لصق اغلب ابنية القسم الشرقي من التل الوسطي في زمن الدور العلوي للطبقة الثالثة (IIIB)، اذ اضيفت هذه السلالم سوية مع ارضيات وقواطع الجص التي

(١٠) قد يفسرها البعض أفرانا او مواقدا كبيرة لطبخ، بأن توضع قدور الطبخ الفخارية في قاعها وتوقد النار اسفلها وحواليها (اي القدور) وهذا جائز ايضا. ولكننا نرجح الرأي الاول بكونها كورا لحرق الفخار استناد الى الادلة الواردة أعلاه.

ادخلت الى تلك الابنية. كان الغرض من السلالم الجص في الغالب، الصعود من الخارج الى اعالي ابنية الدور الثاني من الطبقة الثالثة حيث مخازن الغلال والحاجات الأخرى أما الظاهرة الثانية فهي دروب مرصوفة بالحصى تنحدر عاده من اعالي المستوطن الوسطي منتهية في اطرافه الشرقية حيث السور والخندق الدفاعي. بالامكان تتبع احد هذه الدروب عند الممر الضيق الكائن بين الابنية في اعالي المستوطن ومروره في الساحة الوسطية وحتى نهايتها الشرقية. لقد مرّ هذا الدرب بثلاث مراحل زمنية اظهرتها حفرة سبر اقتطعت في منتصف سيره حيث يشاهد مقطع عرضي تظهر فيه ثلاث طبقات من الحصى المرصوف: الاسفل وقد رصف في زمن تأسيس الطبقة الثالثة (IIIA) وبعد ان ارتفع مستوى الأبنية المجاورة في زمن الدور العلوي من هذه الطبقة (IIIB) اعيد رصف الدرب بمستوى أعلى كما رصفت للمرة الثالثة عند نهاية زمن الطبقة الثالثة وبقيت صالحة للاستعمال طيلة زمن الطبقتين (الرابعة والخامسة) على الاكثر.

٣- لم يظهر التنقيب في القسم الغربي من التل الوسطي اجزاء بنائية تذكر، ما عدا بقايا قليلة من ثلاثة جدران تتخللها بعض أرضيات تعود جميعها لبناء غير واضح المعالم كشف عنه في نهاية الطرف الغربي للطبقة الثالثة. تتألف اللقى الاثرية المكتشفة حول هذه الجدران من عدد من كسرات من فخار سامراء بأنواعها مع بضعة كسرات من النوع الملون بعد الحرق (من عصر سامراء أيضاً) وصنارة باب من الحصى وعدد من حجارة المسن بشل الازميل (Celts).

ان السبب الرئيس في زوال اغلب البقايا البنائية في هذا الجزء من التل الوسطي يرجع الى كثرة القبور الحديثة العهد نسبياً وتكرار الدفن لسنين طويلة بالإضافة الى ما سببه استيطان جديد اعقب عصر

سامراء وأبنيته في هذه الناحية من الموقع فقد كشف في منتصف القسم الغربي من التل الواسطي عن بقايا أسس من الحصى بشكل بقعة دائرية واسعة قطرها حولي ١٢م وبسمك ٢٠سم يخرج من طرفها الشرقي بقايا اسس من الحصى أيضاً مستطيلة الشكل. تنتشر فوق أسس الحصى هذه وحواليها أعداد من كسرات فخار حلف الملونة خاصة كما كانت تشاهد بعض كسرات من هذا النوع من الفخار في مستويات اعلى فوق هذه البقعة في دفن الطبقتين العلويتين (الرابعة والخامسة). وتعود أسس الحصى هذه وكسرات فخار حلف الى استيطان وسكنى أكيدة لأصحاب هذه الحضارة. ان حملة حضارة حلف القادمين من الشمال قد حلوا في تل الصوان في الازمان الاخيرة من حياة الموقع (الطبقتين الرابعة والخامسة) واقاموا ابنيتهم الدينية (Tholoi) خاصة في القسم الغربي من المستوطن الوسطي حيث نزلت أسسها من الحصى الى مستوى الطبقة الثالثة مما أدى الى تحطيم وإزالة قسم كبير من أبنيتها.

٤- قبل اختتام بحثنا في نتائج عمليات الموسم الخامس في تل الصوان نرى بان الوقت قد حان للشروع بمحاولات أولية لتقييم ما وصلنا من معلومات بتكرار التنقيب في هذا الموقع ومحاولة وضع ادواره البنائية والمواد الأثرية المكتشفة فيها في اطارها الزمني المناسب. لقد مضى على شروعنا بالتنقيب في تل الصوان ما يقرب من عشرة سنوات أنجز خلالها ثمان مواسم كاملة من العمل. لقد أعطتنا تنقيبات الموسم الاول (ربيع ١٩٦٤) فكرة شاملة وواضحة عن محتويات الموقع بطبقاته البنائية الخمس والمقبرة الغنية بالتمثيل والاواني الحجر والكائنة تحت جزء كبير من الموقع الاثري خاصة التلين الوسطي والجنوبي (ب،ج). لقد أكدت نتائج حفريات المواسم اللاحقة ما حققته عمليات الموسم

الأول وزادت عليها الشيء الكثير.

ان العدد الكثير من تماثيل النساء الذي وجد في مقبرة تل الصوان[11]، قد يعني ان الموقع كان في اوائل الالف السادس ق.م (وربما قبل ذلك بقليل) مركزاً رئيساً لعبادة الام الالهة استطعنا ان نميز احد معابدها فيه منذ اسفل الطبقات وربما اقيمت لها مزارات اخرى قبل زمن هذه الطبقة في مستوطن سبق قد يكشف عنه التنقيب في المواسم القادمة اسفل التل الوسطي وبحدود الخندق الدفاعي [12]. لقد وضعت تماثيل الام الالهة في قبور الصغار خاصة لتحميهم وترعاهم في رحلتهم الطويلة في عالم ما بعد الموت [13].

اننا نجد في ابنية الطبقتين السفليتين (الاولى والثانية) والمقبرة الكائنة اسفلها وحدة حضارية متجانسة تختلف عما يعلوها في الطيقات الثالثة والرابعة والخامسة ففي هاتين الطبقتين (الاولى والثانية) وفي المقبرة تحتهما عناصر من حضارتي جرمو وحسونة : فالأواني والمحابس (rings) والاساور والقلائد الحجر وبعض الدمى السمجة من الطين كلها عناصر من الحضارة الاولى (اي جرمو). كما ان الفخار السمج والدمى الطين وأدوات تهيأة الطعام المنزلية من الحجر والآت الحجر والعظم والصوان في هاتين الطبقتين من مظاهر حضارتي

(١١) نعني بها دائما المقبرة الكائنة تحت الطبقة السفلى من الموقع.

(١٢) الا اذا افترضنا بأن اوائل ساكني الموقع هم اصحاب الطبقة البنائية الاولى (السفلى) عندئذ سوف لا يكون وجود لهذا المستوطن. ان الدلائل الاثرية تشير الى ما يسبق ابنية الطبقة السفلى. فالخندق الدفاعي بالاصل كان قد اختط لاغراض سبقت زمن الطبقة الاولى حيث بعض اجزائها البنائية قد عطت اقسام من هذا الخندق.

(١٣) للتفسيرات العديدة حول دمى النساء او الام الالهية، انظر : P.J Ucko "Anthropomorphic Fgureines (1968) خاصة الصفحات ٤٠٩-٤٢٦.

حسونة وجرمو ما بعد ظهور الفخار. ثم ان القليل من فخاريات حسونة الأكيدة بأنواعها الخشن والملون، والملون المحزز المكتشفة هنا هي من مظاهر طور حسونة المتقدم. كل هذه العناصر تظهر في تل الصوان بطابع واسلوب محليين وليس نسخاً او تقليداً لتلك التي مواطنها الأصلية في الشمال. ثم ان الأبنية الكبيرة في الطبقتين الأولى والثانية بغرفها المتعددة الواسعة والمشيدة باللبن ذي الحجوم الكبيرة لا نظير لها لا في جرمو ولا في حسونة ولا في اي مكان اخر نقب لحد الان ...

لهذا كله، ومع علمنا بعدم جدوى الاكثار من التسميات، فاننا قد لا نكون مغالين في اطلاقنا التسمية : حضارة تل الصوان (Tell es-Sawwan Culture) على كل ما يمت بصلة للطبقتين الاولى والثانية والمقبرة الكائنة اسفلها. ان حضارة تل الصوان تتميز باحتوائها على عناصر من كل من طوري جرمو وحسونة بأسلوب محلي خاص بها، كما ان لها عناصرها المميزة الخاصة بها فقط ونعني بذلك البناء والنحت: نحت التماثيل والأواني من الحجر المرمر الشمعي والاواني والاشكال العقائدية الاخرى من الحجر ايضاً.

مع ان بعض الفخاريات المحززة (حسونة) تستمر في الظهور في الطبقة الثالثة الا أن عنصر الفخار الرئيسي فيها وفي الطبقتين التاليتين (الرابعة والخامسة) هو سامراء بكل انواعها: السمجة، قليلة الخشونة، المدلوكة، الملونة، الملونة المحززة، والمحززة، ثم ان غالبية أبنية الطبقة الثالثة اخذت تتبع اسلوباً معمارياً خاصاً، ربما استمر بدرجة أقل في الطبقتين العلويتين، يتميز من الخارج بمظهر الحرف اللاتيني (T). هناك احتمال، قد لا يكون بعيد عن الواقع، كون أبنية عصر سامراء هذه كانت تشيد لأغراض عقائدية، تماماً كما كان الحال مع أبنية

عصر حلف ذات الشكل المزدوج ذي الغرفة الدائرية الكبيرة والاخرى المستطيلة الملصقة بها Tholoi وبسبب سيادة هذا النوع من العمارة، مع طغيان فخاريات سامراء المميزة في الطبقات الثالثة والرابعة والخامسة فاننا نعتقد بأن ما تحويه هذه الطبقات الثلاث يستحق بكل جدارة حمل اسم حضارة سامراء اكثر من غيرها في المواقع الاخرى. وربما يكون مركز هذه الحضارة هو تل الصوان بالذات!

ان حضارة حلف التالية قد تركت طابعها أيضاً بوضوح في الاقسام العليا من تل الصوان. فبالإضافة الى كسرات فخار هذا العصر المميزة التي كانت ولا تزال تظهر بين طيات الموقع العليا فقد ظهرت أثناء عليات الموسم الخامس أسس من الحصى لما يحتمل ان يكون بناءا عقائدياً (Tholos) من هذا العصر.

٤- التنقيب في تل قالينج أغا في أربيل

من يصل مدينة أربيل قادماً إليها بطريق كركوك يشاهد على يمينه (جوار الملعب الرياضي للادارة المحلية) تلاً واسعاً يعلو عن مستوى الشارع المحاذي له بما يزيد عن سبعة امتار يدعي محليا كرد (تل) قالينج اغا، يتوسط هذا التل أرضا خالية تقوم بلدية أربيل بانشاء فندق سياحي فخم في طرفها الشمالي، ويشغل هذا التل الأثري مساحة كبيرة من الأرض تزيد عن ثلاثين ألف متر مربع. ان ازدياد رقعة المنطقة السكنية في أربيل في السنوات الاخيرة والتوسع العمراني الذي يشمل مساحات كبيرة وبعيدة عن مركز قلعتها المشهورة أدى الى وقوع تل قالينج أغا وسط الاحياء الجديدة من المدينة مما حدا بمالكي الارض التي يقوم وسطها هذا التل الى مطالبة المديرية العامة للآثار السماح لهم باستغلال أرضهم للاغراض العمرانية بعد تقسيمها الى وحدات

سكنية وبيعها الى الناس. وبحكم مواد قانون الآثار القديمة النافذ وحماية لتراث البلد التاريخي امتنعت مديرية الآثار عن الموافقة على تغيير مزية الموقع الأثري بالبناء عليه أو بإزالة قسم مما يبطن من بقايا عمرانية ولقى أثرية قبل اجراء الدراسات اللازمة لمعرفة أزمنة ونوعية تلك الآثار. ولكن حرص مديرية الآثار العامة على مصلحة ذوي العلاقة من المواطنين واحتراماً منها لحق الملكية الخاصة فقد أجازت لهم التصرف بكل ما يحيط بالمستوطن الأثري من أراضي خالية من البقايا التاريخية ريثما يتم لها انجاز دراساتها وتحرياتها بالكشف عن أكبر جزء من الموقع، وهذا عمل علمي بطيء يتطلب الدقة والحرص الشديدين وقد يستغرق عدة مواسم من التنقيب الاثري المنتظم. وللبدء بتلك الدراسات فقد أوفد المؤلف في أواخر سنة ١٩٦٥ للكشف على الموقع والتعرف ولو بصورة اولية على طبيعته الاثرية وادواره التاريخية. وبعد فحص التل وسفوحه ودراسة الكسرات الفخارية الكثيرة المنتشرة عليه مع غيرها من الملتقطات السطحية تمكنا من التوصل الى ان قالينج اغا د سكن في أزمان متعاقبة خلال الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد في الفترات المعروفة بأدوار حلف والعبيد والوركاء(١٤) من عصور ما

(١٤) سمي كل دور من هذه الأدوار بالاسم الحديث للموقع الذي كشف فيه عن آثاره وفخارياته لأول مرة. فدور الوركاء الذى تحدد زمانه بين ٣٥٠٠-٣١٠٠ قبل الميلاد تقريباً اكتشفت بقاياه المميزة للمرة الاولى في الطبقات السفلى من مدينة الوركاء السومرية الشهيرة قرب مركز محافظة السماوة. ودور العبيد الذي يبدأ زمانه في حدود ٤٣٠٠ سنة قبل الميلاد وربما قبل ذلك بقليل وينتهي في بداية عصر الوركاء في حدود ٣٦٠٠ ق.م عرفت اثاره المميزة أولا في تل العبيد القريب من اور في محافظة الناصرية. وأما دور حلف (في حدود ٤٩٠٠-٤٣٠٠ ق.م تقريبا) فقد عثر على بقاياه المميزة لأول مرة في تل حلف (موقع مدينة كوزانا القديمة) في أعالي الخابور شمالي سوريا. لقد وضعت البحوث الدراسات المختصة الكثيرة عن هذه الأدوار الحضارية ومميزاتها وازمانها. ولعل خير مرجع يلخص ويبحث

قبل التاريخ وربما هجر المكان نهائيا في أوائل الالف الثالث قبل الميلاد حيث لم نجد أية آثار باقية لادوار سكنى تعقب هذا الزمن الاخير بين الفخاريات والملتقطات السطحية الظاهرة. كما تراءى لنا في حينه بأن التراكمات الاثرية لدور الوركاء قد كون سميكة في هذا الموقع بالنظر لكثافة البقايا واللقى السطحية الميزة لهذا الدور وانتشارها الواسع وخاصة على قمته واطرافه الغربية. ولزيادة التأكد من كل هذا فقد قمنا في أوائل شباط من عام ١٩٦٦ بتنقيبات استكشافية دامت ثمانية أيام بمساعدة عدد من العمال المحليين أعارتنا اياهم مشكورة محافظة

في هذه الأدوار بالغة العربية هو مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (الجزء الأول). للاستاذ المرحوم طه باقر. ونود ان نذكر باختصار ان الدراسات الحديثة قد اثبتت بأن بلاد الرافدين بشماله وجنوبه كان مهدا لمولد وتطور معظم العناصر الحضارية المكونة لهذه الادوار وغيرها من الادوار التي سبقها أو أعقبتها في فترتي العصر الحجري الحديث والحجري المعدني، ومنها انتشرت الى البقاع المجاورة في الشرق الأوسط. كما أن الأهمية الخاصة التي يتميز بها دور الوركاء دون سواه من الادوار الحضارية في هذه الحقبة من تاريخ العراق القديم ان فيه قد وضعت الأسس والمقومات الاولى للحضارة السومرية العظيمة التي ازدهرت واينعت بعد ذلك في وسط وجنوبي العراق في بداية الالف الثالث قبل الميلاد ففي هذا الدور (الوركاء) اتسعت الزراعة كثيراً وتوسعت القرى حتى اصبحت مدناً عامرة بسكانها وبمناطقها السكنية وابنيتها الدينية الفخمة التي اخذ بعضها يرفع على مساطب مدرجة من اللبن الصلد هي بداية الزقورات الشاهقة التي اشتهرت بها حضارات العراق الاولى قبل غيرها بالاف السنين وفي هذا الدور نضج واكتمل فن النحت فانتجت نماذج رائعة من اوائل قطع النحت في العالم كما بدأ الفنان بالحفر على الاختام الاسطوانية باشكال عديدة وعلى انواع من الاحجار الثمينة التي جلبت خاماتها من مناطق مناجمها من اماكن بعيدة كافغانستان وايران وسواحل الخليج العربي. وتطور دولاب الفخارى وبلغ مرحلته النهائية ومن منجزات هذا الدور التواصل الى استنباط طريقة للكتابة الصورية التي وضعت حداً فاصلاً للفترة المعروفة بعصور ما قبل التاريخ في العراق حيث بدأ التدوين، فدخلت البلاد مرحلة العصور التاريخية حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م.

أربيل ورئاسة بلديتها وكان من نتائج هذه التحريات القصيرة الامد الكشف عن ست طبقات متعاقبة من دور الوركاء في مقطع بمقياس ٦×٢,٥م وعمق ٢,٢٢م على قمة المستوطن وعلى خمس طبقات أثرية مماثلة في النهاية الغربية من الموقع، جوار الشارع العام الذاهب الى كركوك في حفرة أخرى (بطول ١,٨٠م وعرض ١,٢٤م وعمق ٢,١٥م) تستقر طبقتها الخامسة (أي السفلى) على الارض البكر مباشرة والتي تنخفض عن مستوى الطريق المجاور بمترين(١٥). وهذه دلالة قاطعة على أن سهل أربيل قد ارتفع بفعل عوامل طبيعية مختلفة بما يزيد عن المترين عما كان عليه في حدود ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد حين ابتدأت السكنى في قالينج اغا وربما في قلعة أربيل نفسها (ان لم تكن السكنى قد بدأت فيها أقدم من ذلك في بداية دور تأسيس القرى وبدء الزراعة في حدود ٧٠٠٠ ق.م). وان معظم ما أعطتنا حفرتا الجس في سنة ١٩٦٦ من لقى أثرية كان الفخار المميز لدور الوركاء بأنواعه الثلاثة المعروفة وهي الاحمر والرمادي والنوع الاعتيادي البسيط وهو الغالب.

وللاستزادة من معلومات أخرى عن ماضي فالينج أغا والتعرف على أحوال وحياة من تعاقب عليه من الناس رأينا ضرورة الكشف عن مساحة أكبر من تراكماته الاثرية فكانت التنقيبات الاستكشافية التي دامت هذه المرة طيلة شهر آذار من عام ١٩٦٧ (١٦). فقد كان من حصيلة هذه العمليات الاستكشافية الثانية التغلغل في الحفرة الدراسية في قمة المستوطن الى الطبقة الثانية عشر على عمق خمسة أمتار ثم

(١٥) نشرنا دراسة تفصيلية لهذه التنقيبات الاستكسافية الاولى في قالينج في القسم الاجنبي من مجلة سومر، المجلد ٢٢ لسنة ١٩٦٦، ص ٧٧-٨٢.

(١٦) نشرنا نتائج الموسم الثاني من التنقيبات التجريبية بالاشتراك مع الزميل شاه محمد علي الصيواني الذي شاركنا في عمليات الحفر في ذلك الموسم في القسم الاجنبي من مجلة سومر المجلد ٢٣ لسنة ١٩٦٧ ص ٦٩-٧٥.

اقتطاع خندق كبير بطول ٩٢ مترا وعرض ستة أمتار يربط بين قمة الموقع، حيث حفرة الجس العميقة ونهايته الغربية كشف فيه عن العديد من الطبقات البنائية العائدة الى دور الوركاء نفسه. وبالاضافة الى كميات وفيرة من فخار عصر الوركاء المعهود فقد جاءتنا اعداد كبيرة من الحلي والخرز كانت تزين أعناق وصدور وربما ملابس الموتى[١٧] عند دفنهم في أسفل أرضيات بيوت ذويهم في قبور خاصة. وكانوا يدفنون الاطفال في جرار كروية الشكل ذات فوهات واسعة يوضع فيها الطفل المتوفي بهيئة تشبة الى حد كبير وضعية الجنين في الرحم. ومن ابرز الاثار التي جاءتنا من تلك القبور هي قلادة ذهبية وجدت في قبر امرأة تتألف من عدد كبير من خرز مختلفة الحجوم والاشكال (تشاهد صورتها في أول المجلد الثاني والعشرين من سومر) تضم بالاضافة الى ما يزيد على خمسين قطعة ذهبية خرز أخرى من أحجار ثمينة كاللازورد (Lapis Lazuli) والعقيق (Garnelian) ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المقام ان اكتشاف حلى ذهبية في موقع قالينج أغا يعتبر سابقة آثارية. فهذه واحدة من أقدم الحلى الذهبية المكتشفة لحد الآن[١٨]، كما أنها من الادلة الاولى على استفادة الانسان من ذلك

(١٧) ان اعداداً كبيرة من الخرز تتكون من الصدف أو العظم أو أحجار ثمينة كاللازورد والعقيق وجدت حول صدر الهيكل العظمى اوٍ قرب الركبتين والقدمين تدل على انهما كانت مطرزة على الثياب لتزيينها تماماً كما تفعل النساء الان في بعض ثيابهن الخاصة بالمناسبات. ونود ان نشير بهذا الصدد الى أننا عثرنا على بعض تماثيل طينية صغيرة في تل الصوان (من أوائل الالف السادس ق.مٍ) كانت تزين ركبها واقدامها وكذلك يلف حول وسطها حبيبات من الطين أيضاً محاكاة لقلائدالخرز التي كانت تطرز في الثياب.

(١٨) عثر في عدد من القبور العائدة الى عصر الوركاء في موقع تيه كوره قرب الموصل على عدد من الخرز والحلى الذهبية في الثلاثينيات من القرن العشرين من قبل البعثة الامريكية التابعة لجامعة بنسلفانيا.

المعدن الثمين لاغراض الزينة بعد طرقة وصياغتة. ومع ان الذهب يعتبر من المعادن الاولى التي اجتذبت انظار الانسان في عصور ما قبل التاريخ الا ان استغلاله لاغراضه الخاصه لم تتم الا بعد فترة طويلة حين توصل الى معرفه المبادئ الاولى للتعدين (بالطرق) ومارسها بصورة عملية في مواد أخرى أولها النحاس (ربما كان ذلك في أواسط الألف السادس قبل الميلاد). ولما كان الذهب موجوداً ولو بصورة ضئيلة جداً في جميع الصخور والتكوينات الحصوية والغرينية، كما هو موجود في خامات بعض المعادن كالنحاس والرصاص، فربما حصل عليه سكنة المواقع القديمة في شمالي العراق (تبة كوره وقالينج اغا وربما عشرات غيرها من المواقع القديمة) محليا من غسل المواد الصخرية والغرينية. اما الحجارة الثمينة الاخرى كاللازورد والعقيق والشذر فانهم حصلوا عليها من مناطق مناجمها في افغانستان وأيران وسواحل الخليج العربي عن طريق التجارة.

وبعد هذين الموسمين القصيرين من التنقيبات الاستكشافية التي أوضحت لنا جوانب كثيرة من ماضي تل قالينج أغا (ولو بصورة محدودة) والمستوى الحضاري الذي بلغه سكنته من العراقيين القدامى قبل أكثر من خمسة الآف سنة بدأنا نخطط لحفريات شاملة تكشف لنا عن رقعة واسعة من التل الاثري وخاصة في طرفه الغربي حيث بقايا عصر الوركاء الغني بقبوره ومنجزاته العمرانية وكان هدفنا من ذلك :

١ - استكمال البحث في المقبرة الغنية بآثارها الثمينة والتي ظهرت بوادرها في موسم التنقيب لعام ١٩٦٧ وذلك خشية العبث بمحتوياتها عن طريق نقل الاتربة او التجاوز بالحفر غير المشروع.

٢- الكشف عن مساحة واسعة من كل طبقة من طبقات السكنى لنتمكن من التعرف بصورة واضحة على تخطيط مستوطناتهم بما

فيها من دور سكنى وأبنية دينية ومرافق عامة ودروب وما شابه في هذه الفترة الهامة (دور الوركاء) من تاريخ العراق القديم (لا بل الشرق الادنى القديم كله) حيث أخذت القرى بالاتساع لتصبح مدنا عامرة مكتظة بسكانها بفضل الرخاء الاقتصادي واتساع الزراعة والتخصص بالحرف بمختلف انواعها.

٣- التحقق من احتمال الكشف في الطبقات العليا من هذا الموقع عن نماذج من الكتابة الصورية الاولى التي تضاهي في القدم ما كشف منها في وسط وجنوبي العراق (في الربع الاخير من الالف الرابع قبل الميلاد) في مدن أثرية شهيرة كالوركاء وفارة والعقير وجمدة نصر[١٩]، ان الكشف عن بعض فخاريات ولقى أثرية من الفترة الزمنية التي تعرف بعصر نينوى الطبقة الخامسة[٢٠] في الطبقات المتأخرة (العليا) من تل قالينج أغا قد حدا بنا الى التفكير باحتمال الوقوف هنا على الواح من

(١٩) لعل ذلك يلقي بعض الضوء على المشكلة القائمة عن اصل السومريين وحضارتهم ولغتهم ولو ان الكاتب يؤمن بان اصل ومقومات الحضارة السومرية وعناصرها المختلفة في العمارة والفخار والنحت والفنون الاخرى قد ولدت وتطورت في بلاد الرافدين كما يؤمن ايضا بان لا صحة لما يدعيه بعض المشتغلين في هذه الدراسات من علماء اثار غربيين من ان السومريين وحضارتهم ولغتهم غرباء عن هذه البلاد ويجعلون منبتها احيانا مراكز في أواسط اسيا وأحياناً يرجعون اصول بعض عناصرها الفنية والتقنية الى تركيا او ايران.

(٢٠) تعقب هذه الفترة مباشرة دور الوركاء في شمال العراق ويعاصرها في الجنوب دور جمدة نصر (وربما بداية دور فجر السلالات السومرية) وهي الفترة الزمنية التي ظهرت فيها الكتابة لاول مرة في وسط وجنوب العراق (حوالي ٣٢٠٠ ق.م). وقد سميت هكذا (اي عصر نينوى الطبقة الخامسة) نسبة الى العثور لأول مرة على فخارياتها المميزة بانواعها الملونة والمبرقشة بحزوز غائرة والأخرى البسيطة الخالية من النقوش لأول مرة في الطبقة الخامسة من حفرة الجس العميقة في تل قوينجق في نينوى من قبل البرفوسور ملون سنة ١٩٣١-١٩٣٢.

تلك الكتابات الأولى. وإن كان الحظ لم يسعفنا في هذا الموسم بالعثور على دليل بهذا الشأن فلعلنا سنصل إليه في مكان آخر من ڤالينج أغا قد يتناوله معول التنقيب في المواسم القادمة أو ربما سيكشف عنه في موقع آخر من مواقع العراق الشمالية [٢١].

نتائج تنقيبات الموسم الثالث :

ولو ان الهدف الأخير لم يتحقق فقد كان موسم التنقيب الثالث والذي دام نحو من ثلاثة أشهر من صيف ١٩٦٨ [٢٢]، مثمرا للغاية اذ بالاضافة الى ما أظهرته لنا الطبقات الثلاث التي تم التنقيب فيها من بقايا معمارية دينية وسكنية مهمة فقد كشف بين طياتها وتحت أسفل أرضيات منازلهاعن عدد من قبور الاطفال يربو على الخمسين قبراً يضم معظمها قلائد من خرز من الصدف والعظم والأحجار الثمينة مع بعض الحلى الذهبية القليلة، منها مكحلة صغيرة مدببة من الزجاج البركاني الأبيض الشفاف يلف حول وسطها حزام من الذهب دلالة على مكانة صاحبتها المرموقة. كما عثر في هذه الطبقات الثلاث على العديد من التماثيل الصغيرة من الطين بهيئة نساء على الغالب بوضعية الجلوس تظهر عليهن علامات الحمل رمز الحياة والخصب والاكثار

(٢١) قد نكون متفائلين بعض الشئ في هذا الصدد وقد يكون سكنة مواقع شمال بلاد الرافدين لم يتوصلوا الى الكتابة الصورية الاولى وقد يكون الجنوب لأسباب حضارية معينة والحاجة الملحة للتدوين لتصريف شؤون المعابد وما شابه استنبط طريقة مبسطة للكتابة بعد محاولات وتجارب عدة. على كل حال سيكون الجواب القاطع بهذا الشأن في معول المنقب.

(٢٢) كانت الهيئة المسؤولة عن تنقيبات الموسم الثالث في ڤالينج اغا تتألف من كاتب المقال رئيساً والسادة شاه محمد علي الصيواني مساعداً لرئيس الهيئة واسماعيل حجارة مسؤولا عن ترسيم وتسجيل الآثار وتحسين عبد الوهاب واحسان حسين للمشاركة في الأعمال الحقلية وخضر عبد الله لمراقبة العمل والعمال ومحمد الأحمد الحميضة للمساعدة كالعادة في أعمال الهندسية ورسم الأبنية المكتشفة.

ترمز للأم الالهة. بعض هذه الدمى الطينية كانت تبدو عليها مسحة من الرمزية والتحوير عن الطبيعة حيث قد شكلت أجسام بعضها بهيئة أشكال اسطوانية أو مخروطية لا أثر للأيدي أو الأرجل عليها ويرمز للرأس عادة بتدبب تخرج من أحد جانبيه ندبة أو أكثر تعطي للوجه بعض تفاصيله. كما كشف عن عشرات من الصور الحيوانية المجسمة من الطين أيضاً بينها الحصان والكلب والكبش والعجل وحتى النمر. وللدلالة على اهتمام سكنة قالينج اغا بحياكة الملابس من الصوف أو شعر الماعز المغزول فقد خلفوا لنا وراءهم المئات من أقراص المغازل من الطين بأشكال مخروطية أو قرصيه وثقالات من الطين أو الحجر أو الحصى لجومة الحياكة اليدوية البسيطة وكانت بعض ملابس النساء والاطفال تطرز بخيوط عديدة من الخرز الصدف أو الأحجار الثمينة. والتطريز عادة كان بتثبيت هذه المواد على حافات الثوب أو في وسطه أو حافات أكمامه (انظر أيضاً الهامش رقم ١٧). ومن اللقى الاثرية التي لها تفسير عقائدي رؤوس من الطين لعجول بقرنين صغيرين وجد بعضها مثبتاً في أرضيات غرف بعض الأبنية الدينية. كما كشف عن عدد من الأجسام الطينية وهي ذات شكل دائري تقريباً تنتهي من الأعلى بقرنين. وقد يدل هذا على تقديس سكنة تل قالينج اغا في زمن الوركاء للعجول أو الثيران بصورة خاصة بحيث كانت رؤوسها أو أشكال تلك الرؤوس المحورة عن الطبيعة أحياناً تنصب في غرف خاصة في منازلهم أو دور عبادتهم (ونود ان نذكر بهذا الشأن ان سكنة موقع جتل هيوك في غربي تركيا وخاصة سكنة الطبقتين السادسة والسابعة قد اتخذوا لرؤوس ثيرانهم المقدسة بقرونها الطويلة المقوسة احياناً معابد خاصة أسسوها لهذا الغرض في أواخر الالف السابع قبل الميلاد وصبغوا جدرانها ونقشوها أحياناً بصور آدمية وحيوانية) انا تقديس الثيران

واظهار رؤوسها بقرونها البارزة كان من أهم الطرز التي تزين جدران الاواني الفخارية لعصر حلف (أوائل الألف الخامس قبل الميلاد). ويمكن للباحث أن يتتبع تطور هذا الطراز على بعض تلك الفخاريات من شكله الحقيقي الذي يحاكي الطبيعة حتي أصبح رمزياً محضاً بعد مروره بعدة مراحل بين هذا وذاك[٢٣].

وبالاضافة الى رؤوس العجول الطينية تلك بعض اعطتنا تنقيبات صيف عام ١٩٦٨ في هذا الموقع بعض الأشكال الفخارية الغريبة التي ترمز لاجسام بشرية محورة عن الطبيعة في أعلاها عادة تجويفان كبيران يرمزان الى موضع العيون كما ان اسافلها بهيئة قرصية صلدة أو مجوفة ولا أثر للأرجل أو الأيدي على هذة الأشكال. وتعرف هذه الأجسام عند الباحثين من الآثاريين عادة بالهة العيون Eye-Goddesses or Eye-Symbols or Eye-ldol وكان تقديس هذا النوع من الآلهة من الطين (وأحياناً أخرى من الحجارة أو الحصى) منتشراً في بقاع عديدة في شمال وجنوب العراق وشمالي سوريا أيضاً، فقد وجدت نماذج عدة من آلهة العيون هذه في موقع تبة كورة قرب الموصل وكري ريش قرب سنجار وفي مدينة الوركاء نفسها وأور ولكش، كما وجد منها بالالاف في تل براك على الخابور (شمالي سوريا) وأظهرت حفريات ماري (تل الحريري) العديد منها[٢٤]. وفي براك كان قد افرد لهذا المعبود

(٢٣) يمكن مشاهدة هذا التطور على بعض فخاريات عصر حلف في احدى خزانات المتحف العراقي في بغداد (قاعة عصور ما قبل التاريخ).

(٢٤) انظر بهذا الصدد :

O.G.S. Crawford "The Eye Goddess" London 1957

حيث يدرس المؤلف في كتابه هذا الهة العيون نشأتها في الشرق الادنى القديم وانتشرها غربا بشكل او باخر الى اليونان وجنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية واسبانيا وغربي فرنسا وانكلترا وايرلندا وشمالي افريقيا وجزر الكناري.

مزارا خاصا (Eye-Temple) اقيمت دكة عالية في ابرز مكان منه رفع عليها شكل كبير من الحجر لاله العيون هذا، كمازين الجدار وراءه بافريز محلى بالذهب ومطعم بالاحجار الملونة. لم يكن صيف ١٩٦٨ غنيا باللقى الاثرية فحسب بل أن ما كشف عنه من أبنية دينية وسكنية في الطبقة الثالثة في قالينج أغا يعتبر إضافة هامة لمعلوماتنا عن تاريخ العمارة العراقية القديمة وتخطيط المدن في عصر الوركاء. ففي مساحة واسعة من الطبقة الثالثة تقرب من ثلاثة الاف متر مربع وعلى الطرف الغربي من الموقع وقفنا على حيين سكنيين واسعين دعيناهما بالحي الشرقي والحي الغربي من الطبقة الثالثة يخترقهما شارع رئيس يزيد طوله عن ستين مترا ويتراوح عرضة بين ٢-٣م ينحدر من أعلى الطرف الشمالي للمستوطن باتجاه الجنوب تتسع نهاية الجنوبية لتصبح حارة واسعة تتناثر في أطرافها تنانير وافران للخبز واعداد الطعام. ويتفرع من منتصف هذا الشارع طريقان أقل منه طولا يتجهان غربا وشرقا. وكانت بعض الطرق في هذه الطبقة (أي الثالثة) والطبقة التي تعلوها (الثانية) مرصوفة بالحص الناعم والمتوسط ويصل الرصف أحياناً الى عتبات المداخل الخارجية لبعض الدور في هاتين الطبقتين. ان عدد الابنية المكتشفة في كل حي من أحياء الطبقة الثالثة الاثنين محدود نسبياً. فهنالك مايزيد عن ست وحدات بنائية في الحي الشرقي بينما تضم بقايا الحي الغربي نحوا من خمس بنايات. ان من ابرز ابنية المنطقة الشرقية معبدا صغيرا ذا شكل مستطيل تقريبا أبعاده ٨,٥×٧م نتو سطة غرفة طويلة تحف بها من الجانبين غرف أصغر منها حجما اثنتان في كل جانب تؤدي ابواب جميعها الى الغرفة الوسطية الكبيرة التي هي عبارة عن غرفة المصلى وأقدس مكان في البناء كله. وكان هذا البناء كغيره من ابنية الموقع مشيدا بمادة اللبن (طابوق مجفف بالشمس

معمول بقالب وبحجوم كبيرة مقاسها في حدود ٤٥×٢٥×٨ سم) المهيأ من الطين. ولاضفاء صفة خاصة على أبنية المعابد كانت تزين أصلاعها وزواياها من الخارج بدعامات من نفس مادة بناء المعبد تكسبها طابعاً هندسياً جميلاً كما تزيد من متانة البناية ومقاومتها للعوامل المناخية المتغيرة. كانت الزوايا الأربع للمعبد توجة عادة الى الجهات الكونية الاربعة. والميزتان الاخيرتان لازمتا تخطيط بناء المعابد العراقية القديمة منذ أول ظهورها (في بداية الالف السادس قبل الميلاد) حتى زمن متأخر من تاريخ العمارة العراقية القديمة في أوائل النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد (ربما في العصر الكلدي - البابلي الحديث - أو بعد ذلك بقليل). وأما بقية أبنية الحي الشرقي فلا تتعدى عن كونها دورا للسكنى تتألف كل دار في الغالب من غرفتين أو ثلاث، وكان المطبخ يقوم في جهة من الفناء واحيانا هناك غرفة أو مرفق صغير في كل دار تستعمل كمخزن للغلال والقدور والاواني الفخارية وغيرها من ادوات حجرية لتهيئة الطعام. ان ابرز بناء في الحي الغربي (في الطبقة الثالثة) هو معبد آخر مربع الشكل تقريباً أبعاده ٩,٥×٩,٣٠ سم كثير الشبة بمعبد الحي الشرقي وتتوسطه أيضا غرفة المصلى الطويلة وتحف بها كالعادة غرفتان من كل جانب يظهر في احداها (الغرفة الشمالية في الجانب الشرقي) جدار من اللبن يظن بأنه كان لدعم بناية الدرج المؤدي الى سطح المعبد. إن لغرفة المصلى الوسطية في هذا المعبد الغربي أهمية خاصة إذ أن أوجة جدرانها الداخلية كانت على ما يظهر مصبوغة بطلاء أبيض وجدت بقاياه، بين ركام الغرفة وعلى أرضيتها كما ان هناك بقايا لافريز منقوش على أسفل جدارها الشرقي باللونين الاحمر والاسود على أرضية بيضاء وقوام النقش عبارة عن معينات كبيرة متعاقبة واشكال هندسية أخرى غير واضحة المعالم بسبب التآكل

الحاصل بالجدار بسبب التهدم والرطوبة ومرور الزمن، ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد بأن هذه الالوان الجدارية المكتشفة في تل قالينج اغا في أربيل تعتبر واحدة من أقدم ماكشف عنة التنقيب الاثري في هذه البلاد من ألوان ونقوش جدارية بعد تلك التي ظهرت في بعض معابد واحد دور السكن في موقع تبة كوره (من دور العبيد) قبل أكثر من ثلاثين سنة.

٥- تنقيبات انقاذية شاملة في حوض سد حمرين في ديالى

فيمايلي ملخصاً لعمل البعثات العراقية والعربية والأجنبية في حوض سد حمرين. على أثر تلقينا من الجهات المعنية في وزارة الري نبأ البدء في تنفيذ مشروع سد حمرين الاروائي على نهر ديالى قرب موقع الصدور في شهر آذار من عام ١٩٧٦. بدأنا في مؤسسة الآثار إجراء مسح آثاري شامل لمنطقة الحوض التي ستتحول الى بحيرة بعد انشاء هذا السد. وقد انجزنا عملية المسح هذه في أوائل سنة ١٩٧٧ واعددنا خارطة للمنطقة التي ستتعرض للانغمار وضعنا عليها ما يقرب من سبعين موقعاً أثرياً سيتناول الغمر جميعها، وتتراوح أزمنة هذه المواقع بين أواخر الألف السادس قبل الميلاد (حيث ظهرت على بعضها بوادر من فترتي سامراء وحلف) وبين القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) وربما بعد ذلك بقليل. تنتشر معظم المواقع على طرفي نهر ديالي، خاصة في الأراضي المنخفضة القريبة من شواطئ النهر وعند فرعيه الرئيسيين نارين وكوردرة وقد تبعد قليلاً عن مجاري هذه الأنهار شرقاً أو شمالاً حيث تتوفر جداول وعيون وربما مجاري كانت قديماً صالحة للاستخدام اندثرت بمرور الأجيال وبفعل الترسبات والعوامل الطبيعية الأخرى.

وسهل حمرين بشكل عام منخفض واسع من الأرض يمتد بمحاذاة السفوح الشرقية لسلسلة جبال حمرين وهو يتكون من التواء مقعر واسع محصور بين التوائين محدبين وقد ملأته عوامل التعرية بطبقة سميكة من الترسبات الرملية والطينية التي حملتها الانهار والسيول من التلال والهضاب المجاورة. ان سلسلة جبال حمرين التي عرف السهل باسمها تعتبر أطول سلسلة جبلية في العراق اذ تمتد من الحدود العراقية الايرانية جنوبي مدينة خانقين حتى نهر دجلة ولمسافة ٢٥٠ كم وهي ضيقة يتراوح عرضها ٥ – ١٢ كم. ويبلغ أعلى ارتفاع لها ٥٢٧ م بالقرب من نهر دجلة، وان معدل ارتفاعها العام نحو من ٢٠٠م ويقل هذا الارتفاع في اجزاءها الشرقية. والقسم الذي يحد منها حوض سد حمرين من الغرب لا يتجاوز عرضه ٧ كم وهو قليل الارتفاع، وتعتبر سلسلة جبال حمرين اول سلسلة جبلية تعقب نهر دجلة من الشرق، وهي تمتد كسائر السلاسل الجبلية من الجنوب الشرقي باتجاه الشمال الغربي يقطعها نهر العظيم بالقرب من قرية أنجانة في المكان المعروف باسم بندر العظيم. كما تقطعها دجلة في الفتحة القريبة من بيجي ويعرف امتدادها عبر نهر دجلة من بعد الفتحة باسم جبل مكحول ويظن بأن سلسلة جبال حمرين قد وردت في الكتابات المسمارية باسم ابخ (Ebech) والتي اعتبرها الاشوريون موطن كبير آلهتهم آشور وحددوا امتدادها من عاصمتهم المقدسة آشور وحتى مدينة على نهر ديالى جاءت في النصوص باسم مي – ترنات والتي تعني مياه ديالى، وترنات هو اسم لنهر ديالى في المصادر البابلية والآشورية. هذا وان للآشوريين الها باسم هذه السلسة من الجبال.

ابتدأت المؤسسة العامة للآثار في النصف الثاني من شهر مارس ١٩٧٧ حملة تنقيب انقاذية واسعة في ارجاء الحوض. فأوفدت أولاً بعثة

آثارية للتنقيب في تلول سليمة وآق تبه والزاوية والخبارى وامام اسماعيل الكبير والصغير وشعير وابو سعود وارشيدة وعبد عمه وكرجية وابن علوان وبردان والسيب وصباغ ثم اعقبتها بفرق اخرى في اوائل عام ١٩٧٨ للتنقيب في تلول عبادة ورشيدة وشور تبه ومحمود آغا، ثم ابو كباب وابو شعاف وقاسم وكريش وخيط نملة. كما ساهمت جامعة بغداد - قسم الآثار ومنذ البداية في التنقيب في تل عياش. وابتدأت جامعة الموصل - مركز البحوث والدراسات الاثرية التنقيب في تل حلاوة الواسع والكائن عند الطرف الشمالي للحوض في النصف الثاني من شهر شباط ١٩٧٨.

هذا ورغبة من المؤسسة في مشاركة اكبر عدد ممكن من المؤسسات الآثارية في الخارج في حملة التنقيب الانقاذية التي تخوضها في الحوض. فقد وزعت نداءات عن طريق منظمة اليونسكو تدعو فيها هذه المؤسسات للمساهمة ان رغبت وفق تسهيلات مادية تشمل سكن اعضاء البعثات المساهمة وتزويدهم بمواد ولوازم العمل والعمال والوقود والادامة لآلياتهم ووسائط نقلهم في الحوض وذلك وفق توجيهات الدولة واهتمامها ودعمها المادي والمعنوي الكامل. وقد استجابت لهذه الدعوة كثير من المعاهد والمؤسسات الآثارية داخل القطر وخارجه منها قسم الآثار في جامعة بغداد ومركز البحوث والدراسات الأثرية في جامعة الموصل حيث عملتا كما اسلفنا في تلي عياش وحلاوة على التوالي، كما بدأت بعثة جامعة تورينو والمركز العراقي الايطالي للآثار في بغداد عملها، ومنذ أوائل الحملة في تلول اليلخي وأبو حصيني والسراح وحسن. وفي خريف عام ١٩٧٧ بدأت بعثة جامعة كوكوشيكان اليابانية عملها في منطقة منخفضة من الحوض قريبة من ملتقى ديالى بفرعه نارين حيث تقوم مجموعة من التلول المتقاربة من عصور مختلفة منها الكبة

(الوركاء، جمدة نصر، فجر السلالات والعصر الأخميني في الأعلى) وصنكر بمستوطناته الثلاث من عصري حلف والعبيد (وربما سامراء) والحميديات (العص البارتي والساساني). وعملت بعثة انكليزية في تل مظهور (من عصر العبيد) بالقرب من قرية كشكول وفي تل ربيضة (عصر الوركاء) عبر نهر نارين في الطرف الغربي من الحوض. وقد كانت بعثة امريكية من جامعة نيويورك قد عملت في اوائل شتاء ١٩٧٨ ولمدة شهرين في خيط كنج (بداية الألف الثاني ق.م. من العصر البابلي القديم) وعملت للموسم الثاني علي التوالي بعثة فرنسية في خيوط قاسم (مقبرة من عصر فجر السلالات وربما جمدة نصر) كما عملت بعثة بلجيكية واخرى نمساوية في موقعي صبرة (فجر السلالات، بابلي قديم والاخميني) والعبابرة (البابلي القديم) على التوالي وانجزت بعثة جامعة ميونيخ الالمانية موسماً في أواخر عام ١٩٧٨ في تل الابكع الواسع (اخميني، بابلي قديم واكدي) في الطرف الشرقي من الحوض قرب قرية جميلة كما انجزت في نفس الفترة بعثة المانية أخرى من متحف ما قبل التاريخ في برلين الغربية موسم عمل في مجموعة تلول احمد الحتو (وركاء، جمدة نصر، فجر السلالات والبابلي القديم) الكائنة قرب النهاية الشمالية من الحوض. وقد أجرت أسبار واسعة في هذه المجموعة من التلول للتعرف بشكل سريع على ما تبطنه في جميع أقسامها المتباعدة. وقام في نفس الوقت عدد من الجيولوجيين الآلمان التابعين للبعثة الأخيرة بإجراء دراسات حقلية وبيئية في نفس المنطقة كما عملت بعثة المانية أخرى من معهد الآثار الالماني في بغداد في تل الزبيدية (البابلي القديم والكاشي) الكائن في منطقة متوسطة بين بردان والكبة بعد ان كانت قد أجرت في خريف ١٩٧٨ اسبار سريعة في تل أمليحية (كاشي). وعملت بعثة من المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو في مجموعة تلول أوج تبه عند

الطرف الشمالي للحوض وفي منطقة منخفضة تغمرها المياه طيلة أيام الشتاء. وقد ركزت البعثة عملها في تلين رئيسين (عتيقة ورزوق) أولهما من الفترة الاكدية والآخر من عصر فجر السلالات وجدت البعثة فيهما مباني هامة من هاتين الفترتين وتجري البعثة اسبارا في تل ثالث يقع الى الشرق قليلاً من تل رزوق يدعى تل أحمد المغير.

هذا عرض موجز وسريع لما قام به الزملاء من عراقيين وأجانب في الحوض. أعطانا هذا العمل صورة واضحة لما في هذه المنطقة من قطرنا من بقايا أثرية فقد وقفنا على التدرج الحضاري في الحوض الذي سكن ومنذ الألف السادس قبل الميلاد وبدون انقطاع (هناك موقع من عصر سامراء عبر نارين، تل ريحان) في فترات سامراء وحلف (صنكر وحسن) وان كانت سكنى سامراء وحلف غير كثيفة وواضحة بشكل بارز هنا بسبب عدم العثور، لحد الآن على مبان أكيدة ولقى منوعة من هاتين الفترتين في التلول التي ظهرت بوادرها فيها. إلا ان عصر العبيد كان أكثر بروزاً ووضوحاً في الحوض. اذ ان تلي عبادة ورشيدة في الطرف الشرقي من الحوض، قد اعطيانا بقايا بنائية وأثرية كاملة وبارزة من هذا العصر. وكذلك تلول عياش وصنكر وابو حصيني وبدرجة أقل مظهور. لقد استمرت السكنى بدون انقطاع في الحوض في فترات الوركاء (احمد الحتو ، الكبة) وجمدة نصر (خيط قاسم، أبو قاسم، مظهور، الكبة) وفجر السلالات (الكبة، مظهور، زروق، خيط قاسم، ابو قاسم) والاكدي (مظهور، عتيقة، سليمة، حلاوة، الزاوية، الابكع) ثم عاش الحوض بغالبية مستوطناته فترة العصر البابلي القديم بكل وضوح وجلاء. فنرى بقايا بنائية وأثرية لهذا العصر منتشرة في جميع مناطق الحوض وبكل وضوح (تلول سليمة، الزاوية، السيب، اليلخي، خيط كنج، امليحية، العبابرة، صبرة، حلاوة وعشرات غيرها). وقد استمرت

السكنى في الحوض في الفترات الكاشية والآشورية (بشكل قليل جداً). ثم تبرز بعدئذ بوادر الاحتلال الاخميني والبارثي والساساني في غالبية تلول الحوض (آق تبه، الخبارى، سعود، شعير، امام اسماعيل، بردان، ارشيدة، صباغ، ابو شعاف، الكبة، الحميديات، أبو كباب وغيرها). حتى مجيء الفتح العربي الاسلامي للقطر وتحريره لهذه المنطقة أيضاً. لقد أصبح الحوض في العصر العربي الاسلامي منطقة حيوية هامة ففيها كان يمر طريق خراسان التجاري الشهير.

٦- تنقيبات انقاذية شاملة في حوض سد اسكي الموصل في محافظة نينوى ١٩٨١-١٩٨٦

لما تقرر البدء بتنفيذ سد اسكي موصل، في محافظتي نينوى ودوهك. في اواخر السبعينات، قام عدد من الاثاريين في دائرة اثار محافظة نينوى بأجراء الدراسات والموسوحات اللازمة لاحصاء التلول والمستوطنات الاثرية التي ستتعرض للغمر بمياه البحيرة الواسعة التي ستنشأ من اجراء تشييد هذا السد وقد أعدت بنتيجة هذه الدراسة خارطة تفصيلية تضم عشرات التلول والمباني المندرسة والمغاور والقلاع التي تنتشر بقاياها في ربوع الوادي على طرفي نهر دجلة والتي كانت يوماً مأهولة بالسكان في مختلف حقب التاريخ.

بعد استكمال العديد من الأعمال التمهيدية وتخصيص مبالغ سخية ارصدتها الدولة في خطتها الخمسية ١٩٨١-١٩٨٥، بدأت الدائرة الشمالية للآثار والمتاحف أعمال حملة التنقيبات الانقاذية الواسعة في الحوض في عدد من تلول ومواقع الطرف الشرقي من الحوض في منطقة فايدة، بين الطريق العام الذاهب الى دهوك ونهر دجلة ومن

أبرز هذه المواقع : جمبور، بقاق، كري قاسم، جيكان، خرابوك، مشرفة، كرهول، شعبو، جالوقة، زهرة خاتون، كرانة والعديد غيرها. كما قامت جامعة الموصل بنفس الوقت بالتنقيب في تلول مصيفنة وسلال وضويج في منطقة زمار الى الغرب من نهر دجلة.

وتلبية لدعوة مؤسسة الاثار العراقية ، بدأت بعثات تنقيب من اقطار خارجية مختلفة تصل القطر منذ ربيع ١٩٨٢ للمساهمة في حملة التنقيبات الانقاذية في حوض سد أسكي موصل. فعملت بعثة انكليزية في عدد من المواقع على طرفي دجلة منها: محمد عرب، خاتونية، خربة شطاني، قصرج، ديرستون، سيانات ووادي السويدي. ونقبت لموسم واحد بعثة نمساوية في تل عنزة وفرنسية في تلول كوتان وكرخوش وعثرت على عدد من مقار انسان العصر الحجري القديم من قسمه الأسفل ومخلفاته من الأدوات الحجرية على اكتاف بعض الوديان المنحدرة الى نهر دجلة في هذه البقعة من الطرف الشرقي من الحوض وعملت بعثة جامعة كوكوشيكان اليابانية في مجموعة من التلال على طرفي نهر دجلة في منطقتي فايدة وزمار منها : جيكان، فسنة دير هال، مشيرفة، جيساري، ضويج وقصر البنت. وقامت بعثة جامعة وارشو البولونية بإجراء مسوحات اثرية على مساطب نهر دجلة التي تحف بمجراه في منطقتي رفان وفايدة وسجلت عدداً من مستوطنات انسان العصر الحجري القديم الى الجنوب من مركز ناحية زمار على ضفة دجلة الغربية. كما وقفت على بقايا أقدم قرية زراعية من بداية العصر الحجري الحديث عند قرية نمريك الى الغرب من فايدة على ضفة دجلة الشرقية ونقبت فيها كما نقبت في موقعي رفان ورجم عمر دلة وعملت بعثة سوفيتية من أكاديمية العلوم في موسكو لموسم واحد في تل شيخ حمصي على ضفة دجلة الغربية الى الشمال من مركز ناحية زمار

ونقبت بعثة ايطالية من جامعة تورينو في موقع حتارة الى يسار طريق موصل- دهوك العام. وحفرت بعثة مشتركة من جامعة هامبورك في المانيا وجامعة نابولي الايطالية في موقعي كرانة ٣ وخربة صالح. وأجرت بعثة جامعة هايدلبرك في المانيا حفريات قصيرة في مستوطن واسع في عقار بابيرة.

أظهرت نتائج المسوحات السطحية والتنقيبات الواسعة التي اجريت في عدد كبير من مواقع الحوض خلال ما يقرب من خمس سنوات ان وادي دجلة في هذه المنطقة من شمال القطر كان مأهولاً بالسكان بشكل كثيف وعلى طرفي النهر ومنذ أكثر من ربع مليون سنة ابتداء من العصر الحجري القديم مروراً ببقايا الاستيطان في أوائل عصر القرى الزراعية قبل معرفة صناعة الفخار وبعده مباشرة في ادوار جرمو وحسونة وسامراء وحلف والعبيد في الالفين السابع والخامس قبل الميلاد كما ان غالبية مواقع الحوض قد شهدت سكنى كثيفة خلال عصر الوركاء في الالف الرابع قبل الميلاد والفترة اللاحقة من بداية الألف الثالث ق . م والتي تعرف في الاقسام الشمالية من العراق وشمالي سوريا بعصر نينوى الطبقة الخامسة وهي تعاصر في وسط وجنوبي بلاد الرافدين المراحل النهائية من عصر جمرة نصر والفترة الانتقالية الى بداية فجر السلالات السومرية. وقدمت بعض تلال حوض السد اشارات مؤكدة من زمن الامبراطورية الأكدية في النصف الأخير من الألف الثالث، عصر الانبعاث السومري في مختتم الألف الثالث ق.م تعقب ذلك وفي معظم مواقع التنقيب لقى وفيرة وبقايا بنائية من مرحلة بداية الألف الثاني ق.م وحتى منتصفه وأبرز تلك اللقى الفخاريات المميزة لهاتين المرحلتين والمعروفة بفخاريات الخابور وما يعاصرها من فخار

العصر الاشوري القديم وكذلك فخاريات العصر الاشوري الوسيط وفخار الخوري ونوزي الذي يعاصره.

تلي ذلك بقايا بنائية وفخارية من مرحلة العصر الاشوري الحديث في النصف الأول من الألف الأول ق.م. تعقبها اشارات من مراحل الغزو الفرثي الفارسي والساساني لهذه المنطقة وكشف عن مباني وقلاع وبقايا مدن من زمن ازدهار الحضارة العربية الاسلامية من أواخر العصر العباسي وفترات الحكم الاتابكي والايلخاني للمنطقة. وقد وجدت بقايا بعض مباني هذه المرحلة بحالة جيدة تغطيها الانقاض والأتربة كمباني مواقع خرابوك وشرفية وزهرة خاتون وبقاق ٣و٤ وكلها مشيدة بمادة الجص والحجارة او الطابوق.

ان أبرز اكتشاف حصلت عليه الاوساط الاثارية المتخصصة من نتائج تنقيبات ومسوحات حوض سد أسكي موصل في الفترة الأخيرة والذي يلقى الضوء على التحركات البشرية الواسعة في مرحلة موغلة في التقدم من حياة قطرنا ومنطقتنا العربية هو التوصل الى اكتشاف مخلفات مؤكدة لانسان العراق خلال المراحل الاولى من العصر الحجري القديم يرجع زمنها الى اكثر من ربع مليون سنة مضت. وهذه المخلفات ممثلة بالآت وأدوات ذلك الانسان في عدد كبير من المقار على مساطب نهر دجلة الاربع التي خلفتها العصور الجليدية خلال دهر البلايستوسين في المليون سنة الأخيرة من عمر الارض فقد عثر على ما يقرب من أربعين مستوطنا لانسان العصر الحجري القديم الاسفل على مساطب نهر دجلة الكائنة فوق قرية رفان العليا الى الجنوب من مركز ناحية زمار كما عثر على ما يقرب من نصف هذا العدد من مقار

ذلك الانسان على مساطب دجلة الشرقية واكتاف الوديان المؤدية اليه جنوبي مركز ناحية فايدة وأبرز تلك الالات المصنوعة من الحجر مفارم وفؤوس ومقاشط كلها من الصناعة المعروفة بالاشولية والممثلة لتلك الفترة السحيقة من العصر الحجري القديم. ان الظاهرة البارزة على هذه الالات والأدوات الحجرية انها ومثيلاتها المكتشفة على طريق نهر الفرات في حوض سد القادسية في اوائل الثمانينيات والاخرى التي عثر عليها في غري كربلاء بين منخفض الرزازة ومنطقة الاخيضر في اوائل السبعينيات كثرة الشبه بما اكتشف سابقاً من النوع من اللقى لحجرية ومن نفس الفترة الزمنية في هضبة الجزيرة العربية الشمالية.

ان الدراسة المقارنة لهذه المواد الحجرية تؤكد المسار الذي اتخذه انسان المنطقة العربية وكان دائما يتخذه في الازمان اللاحقة الأكثر حداثة باتجاهه نحو وديان الأنهار العظيمة وهو يؤكد في نفس الوقت ان جزيرة العرب هي موطن معظم الموجات البشرية التي استقرت في بلاد الرافدين وبلاد الشام وفلسطين ووادي النيل ومنذ العصور الحجرية القديمة. بقي ان نذكر أخيراً ان أنواعاً من الأدوات الحجرية من الصناعة الموستيرية اللاحقة (٨٠-٤٠ الف سنة قبل الان) والتي تتشابه مع مثيلاتها في مقار جبال العراق الشمالية والشرقية وكهوفها قد وجدت أيضاً في بعض مقار ضفتي دجلة في حوض سد أسكي موصل شمالي مدينة الموصل. وانها من الصناعات المحلية في تلك المقار، والتي تطورت فيها على مر الزمن من قبل سكنة تلك المناطق الذين كانوا ينحدرون أحياناً حاملين معهم ادواتهم والاتهم الحجرية الى ضفاف نهر دجلة.

٧- تاريخ منطقة الموصل القديم من الكهف الى القرية

١- شهد العراق بجباله وهضابه وسهوله وضفاف نهريه العظيمين دجلة والفرات تطورات أولى في تاريخ البشرية منذ ما يقرب من ربع مليون سنة. فقد عاش على هذه الارض وتجول انسان العراق الاول في عصوره الحجرية القديمة. وكان ذلك الانسان لا يزال يدرج، كما كان حال معاصريه في بقاع الدنيا الاخرى، في مضمار التطور، فقد كان ينتمي الى انسان النياندرتال المنقرض الذي لدينا نماذج عديدة من بقاياه العظمية في كهف شانيدار في محافظة أربيل والتي تعاصر مثيلاتها في فلسطين في مغارة الصخول في جبل الكرمل. كان انسان الكهوف العراقي هذا بدائياً في شكله وفي طريقة معيشته. والفرد منه يتميز برأس ضخم ووجه عريض وحاجبين بارزين وجبهة منحدرة الى الخلف وذقن صغير يكاد يكون معدوماً. ومع ان طوله لم يكن يتجاوز الخمس اقدام الا قليلاً، فإن مظهره الغليظ وصدره الواسع واكتافه العريضة كانت تكسبه ملامح خشنة وقاسية. وقد عاش انسان النياندرتال في جماعات صغيرة معتمداً في حياته على جمع والتقاط ما تجود به الطبيعة آنذاك، كما كان يسعى وحيداً او في جماعات لمهاجمة واصطياد الحيوانات الضخمة التي كانت تزخر بها بيئته القاسية. وكان سلاحه فؤوساً مدببة من لب الحجارة يهيئها لهذا الغرض، فضلاً عن هراوات وعصى من اخشاب الاشجار.

لقد اثبتت الدراسات المقارنة لعلم الانسان الجسدي Physical Anthropology في السنوات الاخيرة ان نوع انسان النياندرتال الذي يسكن كهوف العراق وفلسطين في المراحل الاخيرة من عصر البلايستوسين قد مر بمراحل تطورية احيائية سريعة خلال الـ ٣٥ – ٤٠ الف سنة الماضية نتج عنها نوع عاقل من الجنس البشري له من الصفات

والمظاهر والطباع ما يجعله مؤهلاً ليكون السلف المباشر لجنسنا البشري الحالي في هذه المنطقة من العالم القديم، ومنها العراق بالذات. واذا ما تذكرنا بأن عراقي كهف شانيدار قد اعتنوا عناية خاصة بدفن موتاهم أسفل أرضية الكهف، وانهم زودوا بعض اولئك الموتى بزهور برية كانت تنمو على سفوح الجبال وجدت بقاياها مدفونة عند رأس عدد من هياكلهم، كما قاموا بالاهتمام بالمعوقين والكسيحين من ابناء جنسهم في اثناء حياتهم، تأكد لدينا التوجه الانساني المبكر لأولئك البشر سكنة العراق الاوائل وانهم ربما كانوا في طريقهم الى تحقيق الطفرة التطورية الهائلة لبني نوعهم من البشر.

٢- أكدت الدراسات والبحوث الآثارية لمرحلة العصور الحجرية في القطر، ومنذ أواخر العشرينات من القرن الماضي، على وجود مخلفات انسان العراق في أكثر من بقعة من شمالي بلاد الرافدين ووسطه وغربه خلال العصور الحجرية القديمة والوسطى والحديثة. فقد عثر على مخلفات انسان العصر الحجري القديم من قسميه الأسفل والأوسط بهيئة آلات وادوات حجرية معمولة أبرزها حجارة القطع، والفرم وبعض الفؤوس الحجرية الكمثرية الشكل والشظايا والمقاشط والسكاكين من الصناعيتين الاشولية والموستيرية والتي حدد زمانها بين ثلاثمائة الف سنة وثمانين الف سنة قبل الآن في صحراء الرطبة ومنطقة الرزازة غربي كربلاء وعلى طرفي نهر الفرات في منطقة الفحيمي وجزيرة بيجان في حوض سد القادسية وعلى طرفي نهر دجلة في حوض سد أسكي موصل الى الجنوب من مركز ناحية فايدة على الضفة الشرقية لدجلة واكتاف الوديان المؤدية اليه في اطراف قريتي كرخوش وبابيرة المغمورتين بمياه الحوض الآن.

ومنطقة برده بالكة قرب مركز قضاء جمجمال في محافظة التأميم. وفي الطبقة السفلى من كهف شانيدار في محافظة أربيل. كما عثر على بقايا العصر الحجري القديم الاعلى (٣٠٠٠٠ – ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد) لأول مرة في شمالي العراق في كهفي زرزى وهزار مرد في منطقة السليمانية في عام ١٩٢٨. وفي الطبقات العليا من كهف شانيدار في محافظة أربيل قرب راوندوز. وفي كهف بالي كوره في محافظة السليمانية وكهف ببيخال في محافظة اربيل وباراك في محافظة نينوى. وقد اطلق على هذه المرحلة الاخيرة من مراحل العصر الحجري القديم في العراق البرادوستي نسبة الى جبال برادوست التي يقع فيها كهف شانيدار ببقاياه المميزة لهذا العصر وعند نهايات هذا العصر في حدود ١٥ ألف – ١٢ ألف سنة مضت حين بدأ مناخ العالم بالتغير وقارب آخر عصر جليدي على الانتهاء وبدأت مرحلة الدفء والجفاف النسبي تسود العراق، ومنطقة الشرق الأوسط، اخذ العراقيون سكنة الكهوف في الأقسام الشمالية من قطرنا يهجرون كهوفهم لفترات طويلة وخلال أشهر الصيف يختارون فيها مقار ومستوطنات وقتية في العراء، غير بعيدة عن أماكن كهوفهم تلك، قرب الينابيع والجداول ومجاري الأنهار ينزلونها مع عوائلهم وأطفالهم.

ومن أبرز هذه المقار والمستوطنات الأولى التي حل فيها العراقيون أثر خروجهم من الكهوف، زاوى جمي على ضفة الزاب الأعلى الشرقية ليس بعيداً عن كهف شانيدار، وكريم شاهر بالقرب من مركز قضاء جمجمال في محافظة التأميم، وملفعات على الكتف الغربي لنهر الخازر قرب طريق موصل– اربيل في محافظة نينوى، ونمريك على ضفة دجلة الشرقية الى الغرب من مركز قضاء فايدة في محافظة دهوك والمغزلية وقرمز دره غربي بلدة تلعفر في محافظة نينوى، وعشرات غيرها لم

يكشف عنها البحث الآثاري لحد الآن. وفي هذه المقار والمستوطنات الاولى احتاج سكنة العراق الاوائل الى ملجأ يحميهم واطفالهم من حر النهار وبرد الليل ومكان يجمعون فيه حاجاتهم وادواتهم البسيطة فبدأوا يخطون منازلهم الاولى، وكانت ثمة حفر دائرية في الارض يرفعون جدرانها بالحجارة والطين ويسقفونها بالقصب واغصان الاشجار فكانت تلك أكواخ العراق الأولى بشكلها الدائري وارضياتها مفروشة بالحصى أو الحجارة، وتتألف في الغالب من حجرة واحدة فتم بهذا للعراقيين تعلم البناء ومبادىء العمارة البسيطة قبل اكثر من اثنتي عشر ألف سنة. وبقت لهم خطوة اخرى اذا ما حققوها فسيضعون قدمهم على أول مرحلة نحو الاستقرار الذي يقود للحضارة. وهذه الخطوة هي الزراعة وتدجين الحيوان.

لم تمض على خروج سكنة الكهوف من العراقيين واستيطانهم العراء غير الفي سنة حتى بدأنا نواجه بين بقايا مقارهم تلك امارات وأدلة على سيطرتهم على انتاج القوت وبدء الزراعة وتدجين الحيوان، بعد ان كانوا ولألوف عديدة من السنين جامعين للقوت وصيادين. ومن هذه الامارات حبوب متفحمة للقمح والشعير المزروعة في حقل والتي تختلف عن مثيلاتها التي تنمو برياً. وكذلك عظام وقرون للخراف والماعز مدجنة وغيرها من الحيوانات الصغيرة. فضلاً عن الآت وادوات من الحجارة للطحن والجرش والدق والحصاد. كالمناجل المصنوعة من شفرات من حجر الصوان والملصقة مع بعضها بالقار والمثبتة بمقبض من العظم او الخشب لتصبح مناجل صالحة للحصاد بأيدي ماهرة ومدربة. بجانب هذا بقي انسان العراق في بيئته تلك يصطاد أحياناً ويجمع القواقع والبلوط لغذائه أيضاً.

الا أنه بدا يسير حثيثاً نحو الاستقرار النهائي في قرى ثابتة نمت

واتسعت وتعاقبت فيها السكني خلال الالفين السابع والسادس قبل الميلاد. حيث بدأت مهارات فلاحي العراق الاوائل تزداد وتتنوع فيها فأتقنوا فن العمارة وتشييد الدور من الطوف واللبن وبأشكال مربعة او مستطيلة وبعدد من الغرف تفي حاجات العائلة الواحدة. كما تعلموا صناعة الفخار وتلوينه وحرقه وغزل اصواف الخراف وشعر الماعز وخيوط الكتان بمغازل اقراصها من الحجارة او الطين وحاكوا منها اقمشة بجوم بدائية ثقالاتها من الحجارة او الطين أيضاً. واستوردوا بعض الخامات ومواد الزينة من اقطار بعيدة كبلاد الاناضول والخليج العربي وشرقي ايران وشمالي افغانستان.

ان توصل الانسان الى معرفة الزراعة وتدجين الحيوان والاستقرار في قراه الزراعية الاولى يعد انقلاباً خطيراً في مسيرته الطويلة على سطح الارض. ويؤشر هذا الانقلاب بداية للعصر الحجري الحديث في منطقتنا والعراق بالذات. وقد اطلق عليه مؤرخو الحضارات القديمة ثورة العصر الحجري الحديث او ثورة انتاج القوت واحياناً الثورة الزراعية. اذ انها قد نقلت البشرية من عهد طويل من التنقل والسعي وراء القوت والصيد الى مرحلة جديدة من الاستقرار والامن وتشييد القرى التي نمت فيها المعارف والمهارات والتقنيات وتنوعت تبعاً لحاجات الانسان الاقتصادية والاجتماعية والفنية والعقائدية. وتطور العديد من هذه القرى الاولى خلال الالف الرابع قبل الميلاد في شمال ووسط وجنوبي العراق الى نواة لعدد كبير من المدن التي اشتهرت في بداية الالف الثالث ق.م. حواضر مزدهرة للعراق القديم في عصوره التاريخية اللاحقة. كمدن نينوى، وسامراء، ونمرود، وآشور، وبابل، وكيش، والعقير، ونفر، والوركاء، واور، والعبيد، وتلو، واريدو، والعديد غيرها. وقلاع الموصل، وتلعفر، واربيل، وكركوك.

٣- كان للموصل واقليمها الواسع على طرفي دجلة دور بارز ومهم في حياة انسان العراق الاول في عصوره الحجرية القديمة. كما شهدت سهولها الخصبة الفسيحة وباديتها الغربية البدايات الاولى للاستيطان الزراعي الدائمي لفلاحي القطر الاوائل في مرحلتي ما قبل الفخار وبعدها في مفتتح العصر الحجري الحديث خلال الالفين الثامن والسابع قبل الميلاد وما بعدهما بقليل. لقد اثبتت الدراسات والمسوحات التي اجرتها فرق العمل الاثارية في حوض سد اسكي موصل في اواسط الثمانينات وجود مخلفات اكيدة لانسان العراق خلال المراحل الاولى من العصر الحدري القديم يرجع زمنها الى اكثر من ربع مليون قبل الآن. وهذه المخلفات ممثلة بالآت وادوات ذلك الانسان في عدد كبير من المقار وعلى مصاطب نهر دجلة الاربع التي كونتها العصور الجليدية خلال دهر البلايستوسين في المليون سنة الاخيرة من عمر الارض. فقد عثر على ما يقرب من اربعين مستوطناً لانسان العصر الحجري القديم الاسفل على مصاطب نهر دجلة الكائنة فوق قرية رفان عليا الى الجنوب من مركز ناحية زمار في الطرف الغربي من الحوض. كما عثر على ما يقرب من نصف هذا العدد من مقار ذلك الانسان على مساطب دجلة الشرقية واكتاف الوديان المؤدية اليه جنوبي مركز ناحية فايدة. وابرز تلك الآلات المصنوعة من الحجارة مفارم وفؤوس ومقاشط وكلها من الصناعة المعروفة بالاشولية والممثلة لتلك الفترة السحيقة من العصر الحجري القديم، ان الظاهرة البارزة على هذه الآلات والادوات الحجرية انها ومثيلاتها المكتشفة على طرفي نهر الفرات في حوض سد القادسية في اوائل الثمانينات والاخرى التي عثر عليها في غربي كربلاء بين منخفض الرزازة ومنطقة الاخيضر في اوائل السبعينات كثيرة الشبه بما اكتشف سابقاً من هذا النوع من اللقى الحجرية ومن نفس الفترة الزمنية في

هضبة الجزيرة العربية الشمالية. ان الدراسة المقارنة لهذه اللقى الحجرية تؤكد المسار الذي اتخذه انسان المنطقة العربية، وكان دائماً يتخذه في الازمان اللاحقة الاكثر حداثة، باتجاهه نحو وديان الانهار العظيمة في المنطقة. وهو يؤكد في الوقت نفسه ان جزيرة العرب هي موطن معظم الموجات البشرية التي استقرت في بلاد الرافدين وبلاد الشام وفلسطين ووادي النيل ومنذ العصور الحجرية القديمة.

بقي ان نذكر ان انواعاً من الادوات الحجرية من الصناعة الموستيرية اللاحقة (٨٠ – ٤٠ الف سنة قبل الميلاد) والتي تتشابه مع مثيلاتها في مقار جبال العراق الشمالية والشمالية الشرقية وكهوفها قد وجدت ايضاً في بعض مستوطنات ضفتي دجلة في حوض سد أسكي موصل شمالي مدينة الموصل وانها من الصناعات المحلية في تلك المقار والتي تطورت فيها على مر الزمن على يد سكنة تلك المناطق الذين كانوا ينحدرون احياناً حاملين معهم آلاتهم وادواتهم الحجرية الى ضفاف نهر دجلة طلباً للماء والقنص.

ان من أبرز منازل الاستيطان الأولى لطلائع فلاحي منطقة الموصل، بعد مضي ما يقرب من اربعة آلاف سنة على خروجهم من الكهوف والتمرس في مبادىء الزراعة وتدجين الحيوان، التي كشف عنها البحث الآثاري لحد الآن ملفعات على ضفة نهر الخازر الغربية الى الشمال قليلاً من طريق – موصل – أربيل. وقرمز درة والمغزلية الى الغرب من بلدة تلعفر. اعقب ذلك بحوالي ألف سنة بداية ظهور قرى اقليم الموصل الزراعية الدائمية التي نشاهد بقاياها البنائية والفخارية وأدوات المنزل الخاصة بإعداد الطعام والتنانير والمواقد ومخازن الغلال واقراص المغازل وثقالات جوم الحياكة وخرز وقلائد الزينة من العظم والحجارة والصدف والاحجار الثمينة وتماثيل صغيرة للأم الآلهة من

الطين والحجر. ومواد أخرى عديدة تطلبتها الحياة الجديدة المستقرة في قرى الالف السادس ق.م. في أماكن عديدة منها اسفل طبقات تل قوينجق في مدينة نينوى التاريخية واسفل تراكمات قلعة الموصل المطلة على نهر دجلة في المنطقة المسماة بقليعات، والاربجية شرقي مدينة الزهور بالموصل، وتبه كورا وتل جنجي وتل بلا قرب مدينة خرصباد التاريخية والطواجنة جنوبي مدينة الموصل بمسافة ١٨ كم على يمين الطريق الجديد موصل – كوبر – كركوك، وحسونة في منطقة حمام العليل وابراهيم عزو في منطقة السحاجي جنوب غربي مدينة الموصل ويارم تبه والثلاثات في منطقة تلعفر وكرى ره ش في منطقة سنجار وام الدباغية الى الغرب من مدينة الحضر التاريخية. وضويج وسلاسل ومصيفنة وشيخ حمصي في منطقة زمار من حوض سد أسكي موصل وجيكان ودير هال وكوثان وكرخوش في الطرف الشرقي من الحوض، والعديد غيرها سيكشف عنها البحث الاثاري في السنوات القادمة.

لقد مارس سكنة قرى الموصل هذه حرفاً متعددة منها الزراعة والرعي وصناعة الفخار وتلوينه وحرقه وغزل الصوف وشعر الماعز وخيوط الكتان وحياكة الاقمشة. كما مارسوا التجارة بنوعيها الداخلية والخارجية فجلبوا حجر الزجاج البركاني من اماكن تواجده في وسط بلاد الاناضول، وقد سلكوا طريق شمالي سوريا مروراً بمنطقة سنجار وتلعفر فقرى البادية الشمالية ومنطقة الحضر والقرى الكائنة على طرفي نهر دجلة في منطقة الموصل. واتوا بصدف بحري خاص والعقيق لعمل قلائد لزينة النساء والاطفال من منطقة الخليج العربي، كما استوردوا الشذر من شرقي ايران واللازورد من مناطق مناجمه في شمالي افغانستان.

ان اكتشاف التماثيل الصغيرة من الطين للنساء في كل هذه القرى

دليل واضح على انتشار عقيدة تقديس الام الالهة عند سكنة منطقة الموصل خلال هذه الفترة، كما هو الحال في بقية مناطق القطر والعالم القديم، لقد رمزوا الى الخصب والعطاء والاكثار التي منحتها لهم الارض بدمى صغيرة لنساء بحالة الحمل. فصارت المرأة لديهم رمزاً للخصب. والأرض المعطاة شبيهة بالمرأة الحامل وأصبحت كلتاهما الأرض والمرأة رمزاً للخصب. والارض شبيهة بالمرأة الحامل وأصبحت كلتاهما الأرض والمرأة رمزاً مقدساً للعطاء والحياة.

٨- اكتشاف منشآت بابلية

محاذية لدجلة في جانب الكرخ من بغداد

حينما تقرر البدء بتنفيذ مشروع جسر باب المعظم في منتصف السبعينيات من القرن المنصرم وابتدأت اعمال التحري والدراسات الهندسية الاولية في جانبي الكرخ والرصافة من بغداد في البقعة المحددة له ولمقترباته على ضفتي دجلة، قمنا من جانبنا في مديرية الآثار العامة بفحص المنطقة التي ستحتلها مقتربات الجسر في كلا طرفيه، وخاصة تلك الواقعة منها في جانب الكرخ في المنطقة المسماة بخضر الياس. اذ كنا على علم بوجود مسناة مشيدة بآجر بعضه قديم من النوع المعروف في مدينة بابل وفي غيرها من امهات المدن البابلية القريبة من بغداد، وبعضه الآخر حديث. بالإضافة الى ان مادة البناء هي الاخرى غير متجانسة، فالقار والجص والسمنت كانت تشاهد في الاجزاء الظاهرة من هذه المسناة. من الواضح ان سبب وجود هذه المسناة في هذا المكان من بغداد كان لحماية هذه المنطقة من جانب الكرخ من اخطار الفيضانات. ان ما كان ظاهراً من هذه المسناة للعيان كان يبدو للنظر المتفحص حديثاً. لذا فقد كان الشك يساورنا في قدم

اجزاء هذه المسناة، كما كان الظن يتجه الى احتمال كون الآجر القديم المشيدة به بعض تلك المسناة منقولا من بابل او من غيرها من المدن القديمة في وسط العراق. ولم يكن في حينه، اى سبيل لفحص الاجزاء المستترة من هذه المسناة. اذ كان ما يقع منها خلف الواجهة المطلة على دجلة، عند مزار خضر الياس، مغطى بحي سكني كامل، وبعد ذلك (اي بعد هدم ذلك الحي) بانقاض ذلك الحي بارتفاع لا يقل عن بضعة امتار، مما يجعل من العمل الاثارى والتنقيب العلمي أمر صعب للغاية. لذا فقد آثرنا في حينه الانتظار حتى تبدأ اعمال تسوية البقعة التي ستقوم عليها مقتربات الجسر في هذا المكان وعندها سيصبح بالامكان فحص حقيقة هذه المسناة وما يقع وراءها [٢٥].

وعندما بدأت أعمال التسوية في (أوائل صيف ١٩٧٥)، كان عدد من منتسبي مديرية الآثار العامة المختصين يتناوب في الاشراف على تلك الاعمال الملاحظة ما يستجد نتيجة لازالة النقض والاتربة المتراكمين. وقد لوحظت بالفعل اجزاء بناية قديمة ممتدة وراء واجهة المسناة باتجاه شارع الامام موسى الكاظم المجاور. وهذه الاجزاء البنائية القديمة مشيدة بالآجر والقار. ولأجل التعرف بصورة اوضح على هذه البقايا وطبيعتها والغرض من وجودها في هذا المكان عند نهر دجلة، فقد سارعت المديرية العامة للآثار الى وضع خطة عاجلة لاجراء التنقيب الواسع في منطقة المسناة بالتنسيق مع القائمين على تنفيذ

(٢٥) بصدد ما ذكر عن وجود ما يشبه المترأس يحاذي ضفة دجلة الغربية مشيد بالا جر لبابلي وملاطه من القار، ومشاهدة ذلك منذ أواسط القرن الماضي، انظر دليل خارطة بغداد قديما وحديثا (١٩٥٨) للمرحوم الدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسه ص ٢٧-٢٨.

مشروع الجسر في الشركة العراقية للمقاولات والمديرية العامة للطرق والجسور. وقد ابتدأت بالفعل اعمال التنقيب الموسع في اواسط حزيران (١٩٧٥) واستمرت لمدة شهرين، توقفت بسبب ازدحام منطقة العمل بالآلات والمعدات استعدادا لصب دعامات الجسر على اليابسة في منطقة خضر الياس الا اننا كنا نأمل باستئناف التنقيب مرة اخرى فور الانتهاء من الاعمال الانشائية لمقتربات الجسر في هذا المكان [٢٦].

تم خلال هذين الشهرين الكشف عن بقايا جدران ضخمة مشيدة بالآجر المربع (الفرشي) والقار. طول ضلع الآجرة الواحدة يتراوح بين٣٣ الى ٣٥سم كما ان سمكها يتراوح بين ٧ الى ٨ سم. تعلو سطح العديد من هذا الآجر طبعة ختم الملك البابلي الشهير نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ -٥٦٢ ق٠م) أبرز ملوك الامبراطور ية البابلية الحديثة. وترجمة نص هذا الختم كالآتي :-

(نبوخذ نصر ملك بابل حامي ايساكلا [٢٧] وايزدا [٢٨] الابن البكر للملك نبوبلاسر ملك بابل).

تتألف البقايا المكتشفة، لحد الآن، من كتلتين صلدتين، الجنوبية منهما الكائنة لصق مزار خضر الياس عبارة عن دعامة ضخمة من الآجر والقار ربما كان ذراعها الشرقي يدخل حوض دجلة الى مسافات لم

(٢٦) كانت الهيئة المكلفة بإجراء التنقيب تتألف من كاتب المقال رئيسا وعضوية الآثاريين السيدين شاه محمد علي الصيواني واسماعيل حسين حجارة. كما كان السيد عزالدين جعفر الصندوق مسؤولا عن اعمال المسح والترسيم الهندسي. وقد صور الحفريات واللقى المكتشفة لسيد مظهر غالب

(٢٧) معبد الآله مردوخ في مدينة بابل.

(٢٨) معبدالآله نابو في بورسيبا (برس نمرود جنوبي مديبة الحلة).

نستطيع تحديدها بعد. ان طول ما استظهر من هذه الدعامة، لحد الآن، ٢٤م تقريباً وعرضها ١٧,٥م تتخلله فتحة عند طرفه الشمالي ربما كانت لدرج ينزل الى النهر اما الكتلة الشمالية فتتألف من جدارين ضخمين متوازيين يذكراننا بدفاعات مدينة بابل على عهد نبوخذ نصر طول ما استظهر منهما ٤١م تقريباً، يحصران بينهما فراغا وقد يكون ممراً عر ضه ٥,٢م تنحدر الى قاعه درجات مشيدة بنفس مادة بناء الجدارين (اى الآجر والقار). لقد ضيق هذا الممرعند نهايتيه بحيث جُعل ١,٨٠ ثم إغلق هذا التضيق أيضاً في فترة لاحقة هذا وتخترق كل من هذين الجدارين المتوازيين بوابة يعلوها قوس نصف دائرى يشبه بشكله تلك الاقواس التي تعلو بوابات ومداخل مماثلة في أبنية ودفاعات مدينة بابل من الفترة ذاتها تمتد بقايا هذه الكتلة الى مسافة في حوض النهر حيث ظهرت بقاياها في مكان انزال دعامة الجسر الأول في الماء قرب الضفة الغربية لدجلة. لقد إهملت هذه المنشآت البابلية واستغني عن استخدامها كليا في زمن الفترة الفرثية في العراق (١٣٩ق٠م-٢٢٦م). إذ وجدت أبنية وبقايا هذه الفترة وقد غطت تلك المنشآت في جميع الأجزاء المكتشفة[٢٩] بعد ان مهدتها بحيث جعلت منها قاعده (مسطبة) شيد فوقها قصورها واحيائها السكنية. واغلب الظن ان الساسانيين (٢٢٦م-٦٣٧م) الذين اعقبوا الفرثيين في تواجدهم في اجزاء من العرق آنذاك قد إستمروا في اتخاذ هذا المكان موضعا

(٢٩) الادلة على ذلك مواد البناء الفرثية، خاصة اللبن الضخم المعروف، الفخارتات المثلة لتلك الفترة ثم النقد الفرثي الذي يرجع للملك ولجش الثالث (سنة ٤٨٩ يلوقية المقابلة للسنة ١٧٨ الميلادية).

لقصورهم وسُكناهم. كما اتخذه العباسيون بعد ذلك أيضاً [٣٠].

هذا وصف موجز لمنطقة الاكتشاف، وللآجزاء المستظهرة لحد الان، بقى الجانب المهم المتعلق بماهية هذه المنشآت وطبيعتها والغرض من تشييدها في هذا المكان عند نهر دجلة.

بالطبع ان الاقسام المستظهرة من هذه المنشآت ليست كبيرة او كافية، الى حد ما، بحيث تمكننا من اعطاء تفسيرات مباشرة وقاطعة ولهذا سأحاول هنا تقديم اكثر من احتمال معتمدا على ما قدمته لنا التنقيبات، القصيرة نسبيا، من ادلة مادية وكذلك على ما هو متوفر من نصوص ومدونات لها علاقة من قريب او بعيد بموضوع البحث [٣١].

ان كون هذه المنشأت الموصوفة اعلاه بابلية من الفترة المعروفة بالدور البابلي الحديث (النصف الاول من القرن السادس ق.م) شيدت في الغالب في زمن اشهر ملوك تلك الفترة نبوخذ نصر الثاني شيء مؤكد الان وذلك استنادا الى الطبيعة المعمارية لهذه المنشأت ومطابقتها لمنشات من الفترة ذاتها في مدينة بابل. اضافة الى استخدام القار في

(٣٠) ربما تكون رحى المعركة التي دارت بين قسم من جيش خالد بن الوليدوالفرس في هذا المكانن للسيطرة على المحل المعروف انذاك بقرية سوق بغداد. حيث تم عبور قائد تلك القوة النسيم بن ديسم(١٢هـ٦٣٣م) من الجانب الغربي الى الجانب الشرقي على جسر ساساني كان معقودا هناك. هذا وقد استفاد العباسيون من كرسي الجسر الشرقي والغربي فعقدوا هناك جسر سنة ٣٨٣هـ – ٩٩٣ م وهو الجسر الذي نزل على مقربة منه الرحالة ابن جبيير ايام زيارته لبغداد سنة ٥٨٠ هـ – ١١٨٤م. انظر المرحوم الدكتور مصطفى جواد (اثار بغداد الاسلامية) في دليل تاريخي على مواطن الاثار في العراق. بغداد ١٩٥٢ص ٥-١٢.

(٣١) ان اي احتمال اخر يقدم من القاري الكريم يرحب به وهو عرضة للمناقشة، كما ان الاحتمالات التي ساقدمها هنا هي الاخرى عرضة للمناقشة.

البناء كما هو الحال في بابل نفسها [٣٢]، كما وان صراحة النص على الاجر يعزي هذا الاجر،على الاقل، الى نبوخذ نصر نفسه.

ان اقامة هذه المنشأت على ضفة نهر عظيم كنهر دجلة يؤشر حتما الى طبيعة كونها منشآت ذات علاقة بهذا النهر اي يمنحها الطبيعة الاروائية. وهنا أيضاً يكمن اكثر من احتمال : فهل كانت هذه البقايا جزءاً من شاذروان عظيم تمتد ذراعه (لاحظ الدعامة الجنوبية) الى مسافات في دجلة لترفع من مناسيبه وتلقى بالفائض من مياهه الى فتحات او بوابات كائنة على ضفته (لاحظ الفتحات التي تعلوها اقواس في الكتلة الشمالية) تنساب بعدها الى جداول وحقول في بقاع مجاورة[٣٣] ام كانت هذه البقايا لمسناة او ناظم عظيم شيده نبوخذ نصر في هذا المكان للحد من طغيان دجلة في زمن الفيضانات خوفا من انحداره من ثغرة في هذه البقعة واغراقه ما يحيط ببابل من حقول ومزارع، لا بل تهديده مدينة بابل نفسها. وربما استفاد نبوخذ نصر من هذا الناظم لغرض دفاعي أيضاً. فبالاضافة الى درء خطر الفيضان عن بابل وما يحيطها فإنه قد كان يعمد الى فتح بوابات هذا الناظم عند الحاجة لمليء المنخفضات المحيطة ببابل لتغدو مستنقعات يتعين على المهاجمين اجتيازها قبل محاصرتهم لبابل نفسها. هناك احتمال اخر يسنده نص

(٣٢) كثر استخدام القار في البناء مع الاجر منذ العصر البابلي الحديث، وبقي استخدامه شائعا في ابنية العراق القديم حتى اواخر العصر السلوقي (٣١٢-١٣٩ ق.م).

(٣٣) ان المنطقة الكرخ في هذه البقعة لم تكن بالارتفاع الذي تشاهد عليه الان. وان سبب ارتفاعها الحالي ناجم عن وجود هذه المنشات اولا ثم ما علاها بعدئذ من منشات فرثية فساسانية وعباسية وحديثة .

لنبوخذ نصر نفسه(٣٤) في كون هذه المنشآت هي بقايا لبداية سور عظيم شيده نبوخذ نصر محكما قويا بدايته فوق اوبسس (٣٥) عند نهر دجلة. ونهايته عند مدينة سبا (أبوحية) على الفرات (في منطقة اليوسفية) لصد هجمات أعداء مملكته الميدنية.

(٣٤) انظر : Lane, W. H. 1923
" Babylonian Problems", pp.163-137 and 188- 189.

(٣٥) اسم اطلقه المؤوخون اليونان امثال سترابوا (٢٤ ق.م) على مدينة سومرية قديمة عرفت باسم اكشاك في المدونات السومرية ثم اصبحت تسميتها اوبي (Upe) البابلية في الفترة الكاشية. وقد حورت اللفظة الاخيرة (اوبي) عند المؤرخين اليونان الى اوبس (المرجع السابق : ص ١-٣) وهناك اكثر من احتمال عن موقع هذه الدينة احدهما يفترض وجودها قرب بلد على دجلة ويجعل من الجدار المشيد باللبن والكائن الى الشمال من بلد (على بعد ٢٧ كم جنوبي سامراء) الجدار الميدي، اي جدار نبوخد نصر كما ان رأيا اخرا (حديثا) يفترض وجودها اسفل بقايا المدينة الساسانية كوخة في منطقة سلوقية (انظر مجلة ما بين النهرين الايطالية (تورينو) المجلد الاول، ١٩٦٦ ص ١٧ – ٣٨) ان صح الرأي الاخير يكون موضع السور الذي نتحدث عنه في منطقة خضر الياس اكثر ملائمة لماورد في نص نبوخذ نصر المار ذكره اعلاه، خاصة اذا ما علمنا بأن السور الذي كان يعرف بالميدي سابقا (الكائن شمالي بلد) قد شيد على الاكثر في اوائل الفترة الساسانية واستمر استخدامه في العصور الاسلامية التالية، وقد عرف باسم المطبق عند الرحالة والاثاريين الاوائل (سومر ، المجلد العشرون ١٩٦٤، ص ٨٣- ٨٩، القسم الاجنبي).

كلمـة أخيـــــرة

حقق إنسان العراق الأول الثورة الزراعية أو ثورة انتاج القوت قبل أكثر من عشرة آلاف سنة حيث توصل إلى انتاج قوته بنفسه. وهذا كان أخطر انقلاب في حياة البشرية، وبهذا الانجاز وضع فلاحو بلاد الرافدين الأوائل نهاية لعهد من الحياة البدائية المتسمة بالسعي وراء الحيوان لصيده والتقاط ما في الطبيعة من ثمر ونبات. ان تحقق إنتاج الغذاء وتدجين الحيوان من قبل سكنة العراق الأوائل قادهم إلى الالتصاق بالأرض والسكن قرب حقولهم وحيواناتهم الاليفة.

وبذلك قامت أولى تجمعات وقرى الإنسان في التاريخ. وفي هذه القرى توصل العراقيون إلى عدد من التقنيات والصناعات والفنون التي تطلبتها حياة الاستقرار. فبجانب معرفة الإنسان في البناء والتشييد، اتقن صناعة الفخار والغزل والحياكة وصناعة السلال. ومن الطين انتج نماذجه الأولى من الأشكال الآدمية والحيوانية وبهذا عرف الفن. وعندما ادرك هذا الإنسان أهمية الأرض وقيمتها العالية في اعطاء الغذاء، قدسها ورمز إليها بتماثيل دقيقة شبيهة بالنساء الحوامل، عنوان الخصوبة والولادة وتجدد الحياة. فصارت الأرض والأم رمزها معبودتهم الأولى، وبهذا عرف الإنسان نواة العقيدة الدينية. وقد استمرت عبادة سيدة الأرض والخصب اجيالاً عديدة لاحقة إلى ان عرفت بعد مجيء التدوين باسم أنانا عند السومريين، كما عرفها الأكديون ومن ثم البابليون والآشوريون من بعدهم باسم عشتار.

وتطور العديد من قرى العراق الاولى خلال الألف الرابع قبل الميلاد في شمالي ووسط وجنوبي بلاد الرافدين إلى نواة للكثير من المدن اشتهرت في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد حواضر مزدهرة للعراق القديم في

عصوره التاريخية التالية مثل مدن نينوى وآشور وكيش وبابل واور ولجش والوركاء وقلاع الموصل وأربيل وكركوك. وفي مدن العراق الأولى هذه كانت حضارة السومريين تزدهر بعد ان شهدت قرى عصر الوركاء الواسعة بدايات نشوئها وتطورها في ميادين العمارة الدينية والتذكارية الفخمة، والنحت بنوعيه المجسَّم والبارز والاختام الاسطوانية، واكتمال تطور دولاب الفخار وانتشار استخدامه وصناعة الأواني من النحاس والفضة وشيوع استعمال الذهب للحلي.

وتوجت نهايات عصر الوركاء بمعرفة الكتابة، التي كانت في أول امرها صورية محضة. ونجد بدايات هذه الكتابة في نظام مبسط للعد ابتكره سكنة قرى العراق الأولى منذ أكثر من تسعة الآف سنة واستخدموه في تعاملاتهم اليومية. وقد تطورت استخدامات صور الاشياء بمرور الزمن إلى رموز مجردة تطبع على الطين بقلم من القصب أوالمعدن له رأس يشبه رأس مسمار. لذا دُعيت تلك الرموز من قبل الباحثين بالكتابة المسمارية. وقد هُذبّت هذه الكتابة وكثر استعمالها في مختلف الشؤون الحياتية. وبدخول إنسان العراق عالم الكتابة والتدوين صار يدّون افكاره ومعتقداته بالكون والآلهة والحياة في قصص واساطير وملاحم وحكم وامثال بالخط المسماري. والقصص والاساطير والملاحم السومرية هي اقدم أنواع الآدب المدون التي عرفها العالم القديم وقد تاثرت بها آداب المناطق المجاورة ومعتقداتها وفنونها.

وأثبتت بحوث اللغة السومرية ان الفضل يرجع إلى السومريين، أصحاب حضارة العراق الأولى، في وضع أسس الكثير من المعارف والعلوم والتربية والتعليم والتشكيلات الإدارية والسياسية المعمول بها حالياً. فمثلاً ان هيئة شورى دولة مدينة الوركاء على زمن ملكها جلجامش كانت مؤلفة من مجلسين أحدهما للشيوخ والآخر للرجال

القادرين على القتال. إنه أقدم نموذج للنظام البرلماني في العالم القديم. كما ان المدرسة التي عرفت على زمن السومريين باسم بيت الرقم (اي – دوبا) هي أيضاً النموذج الأول لكل أشكال المعاهد التربوية والعلمية اللاحقة.

وفي القضاء وصلتنا أقدم قضية قضائية في التاريخ، يجلس فيها محلَّفون للإسهام في إصدار قرار الحكم، عرضت أمام محكمة مدينة نفر في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. وفي أمور الصيدلة وصلتنا أقدم وصفة طبية تضمُّ اثني عشر نوعاً من العلاج دوَّنها طبيب سومري كان يمارس مهنته في مدينة أور في اواسط الألف الثالث قبل الميلاد.

وفي مدينة نفر أيضاً عثر على أقدم تقويم زراعي يضمُّ العديد من التوصيات والتعليمات الزراعية الخاصة بإعداد الحقل وموعد البذار وبعض امور الري والحصاد، وضعه فلاح عراقي على رقيم طيني ضمَّ خمسا وثلاثين فقرة. ومن العراق القديم جاءت اقدم نماذج لأدب البطولة والحكمة ممثلة بملحمة جلجامش.

وفي زمن السومريين أيضاً برزت لأول مرة في التاريخ حدود الملكية الشخصية وتوضحت العلاقات الاقتصادية بين الافراد والدولة وبين الافراد انفسهم. واقتضى هذا كله وضع اصلاحات إجتماعية واقتصادية في وقت مبكر من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، كانت هي النواة الأولى للتشريعات القانونية في حياة البشر والتي ظهرت بعد ذلك في اواخر الألف الثالث ذاته، وتوجتها الشريعة القانونية الكاملة للعاهل البابلي حمورابي ومسلته الشهيرة التي ضمت ٢٨٢ مادة قانونية عالجت مختلف نواحي الحياة.

وتأتي أهمية عصر الإمبراطورية الآشورية من كثرة المخلفات التي أقامها الآشوريون في عواصمهم بقصورها الفخمة ومعابدها الكبيرة

وزقوراتها الشاهقة واسوارها وبواباتها ومئات الامتار من المنحوتات والرسوم الجدارية الملونة والتماثيل الآدمية والحيوانية والثيران المجنَّحة التي تجمع بين حكمة الإنسان وذكائه وقوة الثور وجلده، ومسلات مختلفة الحجوم والاشكال.

وإلى القائد العظيم نبوخذ نصر (٦٠٥-٥٦٢ قبل.الميلاد) يرجع الفضل في إجتثاث بقايا الكيان العبري المغتصب لاجزاء من فلسطين وتحرير القدس بثلاث حملات موفقة، وقد قام نبوخذنصر باعمال عمرانية واسعة في العاصمة بابل وفي الكثير من مدن العراق القديم. فصارت بابل، في زمانه، عروساً للعالم القديم ومحجة لطلاب العلم والثقافة. وإلى جانب كونه قائداً عسكرياً فذاً ومصلحاً طموحاً، كان مشرعاً عادلاً، وفوق هذا كان ملكاً ورعا يخشى الآلهة ويحرص على رضاها. وبعد وفاته لم يظهر قائد مقتدر محنك قادر على الحفاظ على استقلال البلاد وسيادتها، فكبت بابل في عام ٥٣٩ قبل الميلاد أمام الغزو الاخميني الفارسي الذي حاول عبثاً طمس معالم ارثها الحضاري الضخم. كانت كبوة بابل نتيجة لعوامل داخلية وأخرى خارجية أبرزها غياب قيادة الدولة عن العاصمة بابل طويلاً وخيانة بعض رجال السلطة ودسائس اليهود القاطنين في بابل واتصالهم بالعدو المتربص على الحدود الشرقية.

وبعد سقوط بابل شهدت أرض العراق موجات من الغزاة مرت بها واختفت. فبعد الفرس الاخمينين جاءَ الاسكندر المقدوني، ثم السلوقيون، من بعده، وتلاهم الفرس الفرثيون، واخيراً الفرس الساسانيون. وبرغم تلك الاحداث الموجعة ووطأة الغزاة الثقيلة، بقيت هامة العراقيين عالية لا تنحني لظلم ولا ترهبها سطوة محتلٍّ غازٍ. فكانت الثورات تترى متعاقبة هنا وهناك في أرض بابل وفي غيرها من حواضر العراق القديم.

وقد نال العراق بسبب ذلك الشيء الكثير من اذى الفرس الساسانيين الذين دمّروا دولة الحضر العربية تدميراً شاملاً أَحالها إلى أطلال، كما اغتالوا النعمان بن المنذر، آخر ملوك الحيرة واصلبهم عودًا، في محاولة منهم لتشتيت القبائل العربية وفضّ التفافها حول زعامة دولة الحيرة العربية. وكان اغتيال النعمان الشرارة التي أوقدت نار الحرب والمواجهة الشاملة، ولأول مرة، بين عرب العراق بقيادة بني شيبان وبين الغزاة الساسانيين. فكانت واقعة ذي قار الشهيرة التي تحقق فيها للعرب نصر عظيم هيَّجَ في نفوسهم مشاعر الاحترام للعراقيين الذين دقوا بنصرهم الرائع في هذه الواقعة المسمار الاول في نعش الإمبراطورية الساسانية.

وقد خلد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يوم ذي قار المشهور بحديثه الشريف : (هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نصروا).

بعد ذلك بسنوات قليلة تخلص العراق نهائياً من التسلط الأجنبي بتحريره على أيدي القوات العربية الاسلامية. فأخذ ينهض نهضته الشاملة وقامت فيه مدن كبرى مثل البصرة والكوفة وواسط، وعمرت مدن قديمة كثيرة كالموصل والأنبار، وصارت مراكز تشع بعلوم الدين واللغة والفلسفة.

وفي زمن العباسيين، صار العراق قلباً للدولة العربية الاسلامية الكبرى، كما صارت بغداد، بعد تاسيسها واتساعها، حاضرة لدولة العرب المسلمين في أزهى عصورها يحج إليها طلاب العلم والأدب والفن من كل حدب وصوب، وبلغت عصرها الذهبي في زمن الخليفة الرشيد وابنه المأمون تعمر بشتى الفعاليات وتزخر بمباهج الحياة، رائدها العدل وارضاء الضمير، ودابها استقصاء الحقائق من علمية وفلسفية ودينية. وأنصبَّ إليها نتاج العالم من نفائس البضائع وكنوز الأرض. وبلغها كل

جديد من راي وابتكار. وبلغ العراق في هذا العصر ما لم يبلغه سابقاً في تاريخه الطويل الحافل بالأمجاد. وهناك من اثاره، ان كان في بغداد أو خارجها الشيء الكثير. وهذه سامراء التي شيدها الخليفة المعتصم لتحتل رقعة واسعة من الأرض تبلغ الأربعين كيلومتراً طولاً وبمعدل ثلاثة كيلومترات عرضاً بامتداد الضفة الشرقية لنهر دجلة فضلاً عن القصور القائمة على ضفته الغربية. وقد اتخذها العباسيون عاصمة لهم طوال نحو خمسة وأربعين عاماً. ان خطط المدينة شاهد على حسن هندستها ورقيها. ففيها شوارع عريضة مستقيمة وقصور واسعة كثيرة مزينة باجمل الزخارف وادقها ومساجد يحار المرء في سعتها ومنها جامع الجمعة الذي شيده المتوكل بطول ٢٤٠ متراً وعرض ١٦٠ متراً، يحيط به جدار سميك من الآجر، وفي داخله ٥٨٠ عموداً من المرمر لدعم السقوف، وأمامه المئذنة المعروفة بالملوية التي تدل بضخامتها وبساطتها على عظمة العصر وصفاء الفكر والدعوة إلى الإيمان.

ودارت عجلة الزمن وتكالب الدخلاء والطامعون والغزاة من اعاجم ومغول على دولة العرب وعاصمة الخلافة بغداد فنال الأمةَ الكثيرُ من الأذى على ايديهم.

واعقب ذلك كله استيلاء العثمانيين على العراق، من جملة ما استولوا عليه من أرض العرب، ومع قسوة حكمهم وتخلفه وجشعه ومحاولاتهم اليائسة طمس المعالم الوطنية والقومية للعراق وبقية أجزاء الوطن العربي، إلا ان العراق بقي صامداً، كما بقيت كل أرض العرب، بأرضه وإنسانه وتراثه الحضاري الضخم وقيمه الروحية والإنسانية. وفي الآخر وبعد مرور نحو ثلاثة قرون على الاحتلال العثماني، تحرر العراق في أعقاب الحرب الكونية الأولى، واخذ ينهض حثيثاً من كبوته بتأسيس الحكم الوطني فيه في أعقاب ثورة العشرين.

المؤلف في سطور - بهنام ناصر نعمان ابو الصوف

- ولد في مدينة الموصل بالعراق في عام ١٩٣١
- أكمل دراسته الأبتدائية والاعدادية في مدينته الموصل.
- حصل على بكالوريوس في الآثار والحضارة من كلية الأداب جامعة بغداد في عام ١٩٥٥.
- أكمل دراسته العليا في جامعة كمبردج بانكلترا وحصل على درجة الدكتوراه في الآثار ونواة الحضارة وعلم الانسان في خريف ١٩٦٦.
- عمل لسنوات عديدة في التنقيب عن الآثار في عدد من مواقع العراق الأثرية في وسط وشمال العراق. وكان مشرفاً علمياً على تنقيبات إنقاذية واسعة في حوضي سدي حمرين (في منطقة ديالى) وأسكي الموصل على نهر دجلة في أواخر السبعينات وحتى منتصف الثمانينات من القرن الماضي.
- كشف عن حضارة جديدة من مطلع العصر الحجري الحديث في وسط العراق في اواسط الستينات القت الكثير من الضوء على معلوماتنا من تلك الفترة الموغلة في القدم.
- حاضر لسنوات عديدة في مادة جذور الحضارة والآثار والتاريخ في عدد من جامعات العراق ومعهد التاريخ العربي للدراسات العليا.
- أشرف على عدد من الرسائل الجامعية للماجستيروالدكتوراه لطلبة عراقيين وعرب.
- ناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه لطلبة عرب وعراقيين في مواضيع الآثار والحضارة والتاريخ والملاحم القديمة.
- أسهمَ في العديد من مؤتمرات الآثار والحلقات الدراسية داخل العراق

وخارجه.

- دُعي لإلقاء احاديث ومحاضرات في جامعات أمريكية وأوربية عن آثار وحضارة العراق وعن نتائج تنقيباته.

- نشر العديد من البحوث والدراسات والتقارير العلمية عن نتائج اعماله الميدانية ودراساته المقارنة في مجلات علمية عراقية واجنبية.

- له أربعة كتب مطبوعة :

١) فخاريات عصر الوركاء - أصوله وانتشاره، بالانكليزية.

٢) ظلال الوادي العريق - بالعربية.

٣) العراق : وحدة الارض والحضارة والانسان، بالعربية أيضاً.

٤) قراءات في الآثار والحضارات القديمة - بالعربية.

- شغل عدداً من المواقع العلمية والإدارية في هيئة الاثار والتراث : منها باحث علمي ، مديراً للتحريات وحماية المواقع الاثارية ، ومديراً عاماً للآثار ومتاحف المنطقة الشمالية.

- رغم تقاعده من العمل الوظيفي في اواخر الثمانينات إلا انه استمر - ولا زال في نشاطاته الاكاديمية والعلمية في داخل العراق وخارجه.

ملحــق الصــور

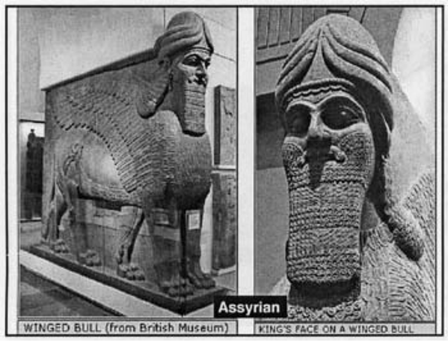

ثور آشوري مجنح

مغنية (منشدة) آشورية

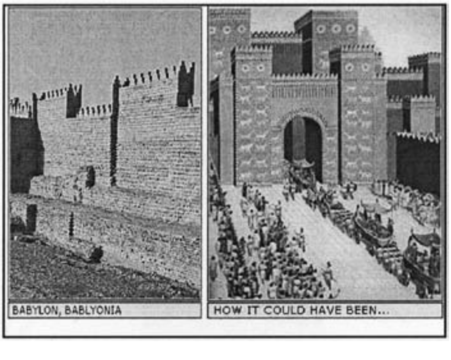

بقايا من بابل وبوابة
عشتار (معادة)

تماثيل من تل الصوان

بقايا بناء من جرمو

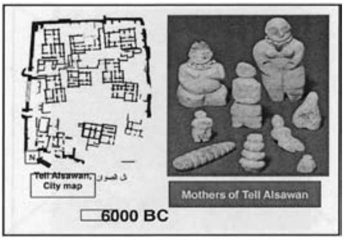

تماثيل من حجر شمعي للأم الآلهة مخطط الطبقة الثالثة في تل الصوان.

نماذج من النحت السومري (أواخر الألف الرابع ق.م)

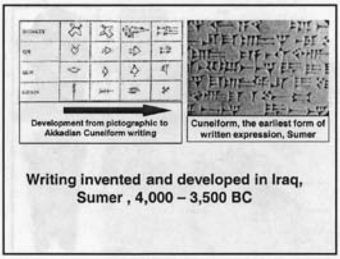

بدايات الكتابة السومرية

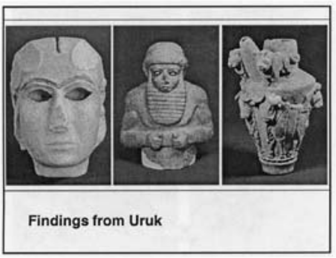

نماذج من النحت السومري وجدت في الوركاء (أواخر الألف الرابع ق.م)

بقايا زقورة عقرفوف

آشور بانيبال

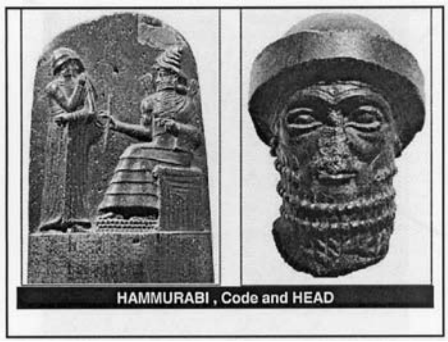

رأس حمورابي ومسلته من الحجر الأسود (مطلع الألف الثاني ق.م)

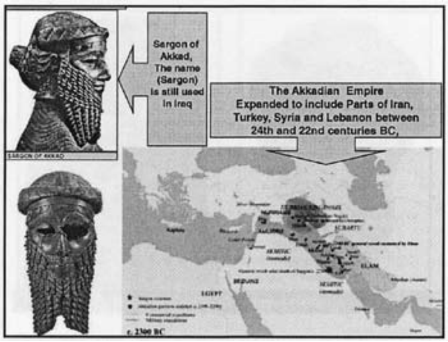

رأس سرجون الأكدي من البرونز (أواخر الألف الثالث ق.م)

رأس القيثارة الذهبي من المقبرة في آور

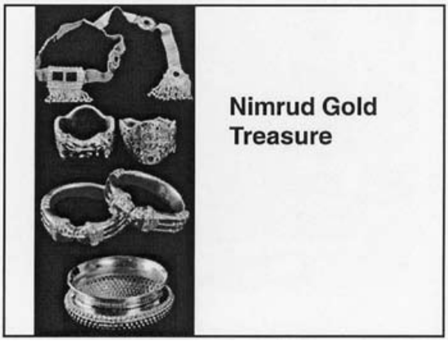

بعض من كنز نمرود الذهبي

المؤلف بين عدد من أساتذة جامعتي شيكاغو ومشيجان أثناء زيارته للمعهد الشرقي في جامعة شيكاغو في خريف عام ١٩٨٥ والقاءه عدد من المحاضرات هناك.

المؤلف على مائدة العشاء في دار السفير المرحوم نزار حمدون وزوجته السيدة سحر ويشاهد في هذه الصورة عالم الآثار الأمريكي وسكرتير معهد السمشونيان في حينه.

واشنطن خريف ١٩٨٥

المؤلف يشرح جانباً من نتائج تنقيبات حوض سد حمرين على ديالى للأمير ميكايا شقيق امبراطور اليابان حين زيارته لموقع تنقيبات بعثة التنقيب اليابانية في تل كبة. ربيع ١٩٧٩

الفهرس **الصفحة**

- كلمة أولى ٥

الفصل الأول : جذور الحضارة في بلاد الرافدين

١- تمهيد ٧

٢- الإنسان والأرض ٩

٣- الإنسان وحضارته ١٢

٤- نشوء النظام السياسي وقيام دولة القطر الواحدة ١٨

٥- بيوت الآلهة والأبراج المدرجة (الزقورات) ٢٧

٦- القصب والبردي في عمارة العراق القديم ٢٩

٧- البدايات الأولى لتجارة العراق الخارجية ٣٢

٨- مكانة المرأة في العراق القديم ٣٥

٩ - البدايات الأولى لنشوء وتطور دولاب الفخاري في العراق القديم ٤٣

١٠- قراءة في المضمون القانوني للشرائع العراقية القديمة ٤٧

الفصل الثاني : نشوء العمل الآثاري في العراق وتطوّره

١- البداية ٥٣

٢- التنقيب عن الآثار بين الهواية والنبش والعلم المنظم ٥٦

٣- التنقيب عن الآثار في العراق في القرن التاسع عشر ٦٢

٤- التنقيب عن الآثار في العراق خلال القرن العشرين ٦٩

٥- مستقبل العمل الأثاري في العراق ٧٧

الفصل الثالث : حضارات قديمة ومواقع آثرية ومدن تاريخية

١- بغداد : عطاء دجلة وارث الحضارة ٨٣

٢- منازل إنسان العراق الأولى ٨٧

٣- أضواء على أثرية دير ماربهنام وضريحه ٩٣
٤- تحامل اليهود على الحضارة العراقية القديمة ٩٩
٥- شيء من تاريخ الأردن وحضارته في العصور القديمة ١١٤
الفصل الرابع : إطلالة على تاريخ اليمن وحضارته
١- مدخل تاريخي ١١٩
٢- أبرز مظاهر الحضارة اليمنية ١٢٤
الفصل الخامس : حضارات المايا والأزتيك والانكا في أمريكا الوسطى والجنوبية
١- حضارة المايا ١٣٥
٢- حضارة الأزتيك ١٣٧
٣- إمبراطورية الأنكا ١٣٩
٤- بعض المراجع المفيدة لهذا الموضوع ١٤١
الفصل السادس : دلمون Delmun
١- توطئة ١٤٣
٢- دلمون في العصور القديمة ١٤٥
٣- البقايا الأثرية والعمرانية في دلمون ١٤٩
٤- مدافن دلمون ١٥١
٥- مدافن عالي العملاقة Giant Tumuli of Aale ١٥٣
٦- مراجع مفيدة للبحث ١٥٦
٧- الكهوف والملاجىء الصخرية وتكوينها ١٥٧
الفصل السابع : تنقيبات وأعمال ميدانية
- مقدمة ١٥٩
١- مواطن الآثار في حوض دوكان ١٦٤
٢- التنقيب في تل الصوان (الموسم الرابع) ١٧٨

٣- التنقيب في تل الصوان (الموسم الخامس) ١٨٤
٤- التنقيب في تل قالينج أغا في اربيل ١٩٣
٥- تنقيبات انقاذية شاملة في حوض سد حمرين في ديالى ٢٠٥
٦- تنقيبات انقاذية شاملة في حوض سد اسكي الموصل ٢١٠
٧- تاريخ منطقة الموصل القديم من الكهف الى القرية ٢١٥
٨- اكتشاف منشآت بابلية ٢٢٣
كلمة أخيرة ٢٣١
المؤلف في سطور ٢٣٧
ملحق الصـــور ٢٣٩
الفهرس ٢٤٨

History Unearthed
Archaeology - Civilization
Field Works

by

Behnam Abu Al-Soof

Ph.D

Amman - 2009

مطابع دار الأديب

عمان – الأردن

هاتف : ٤٨٨٨٥٨٥   فاكس : ٤٨٨٨٥٨٤

E-mail: info@label-world.com